سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

رئيس المشروع : أ. أحمد مريوش

الأعضاء:

- د. حوتية محمد.
- أ. أحمد بن جابو.
- أ. دبوب محمد.

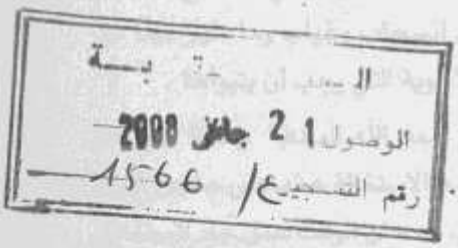

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة
الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

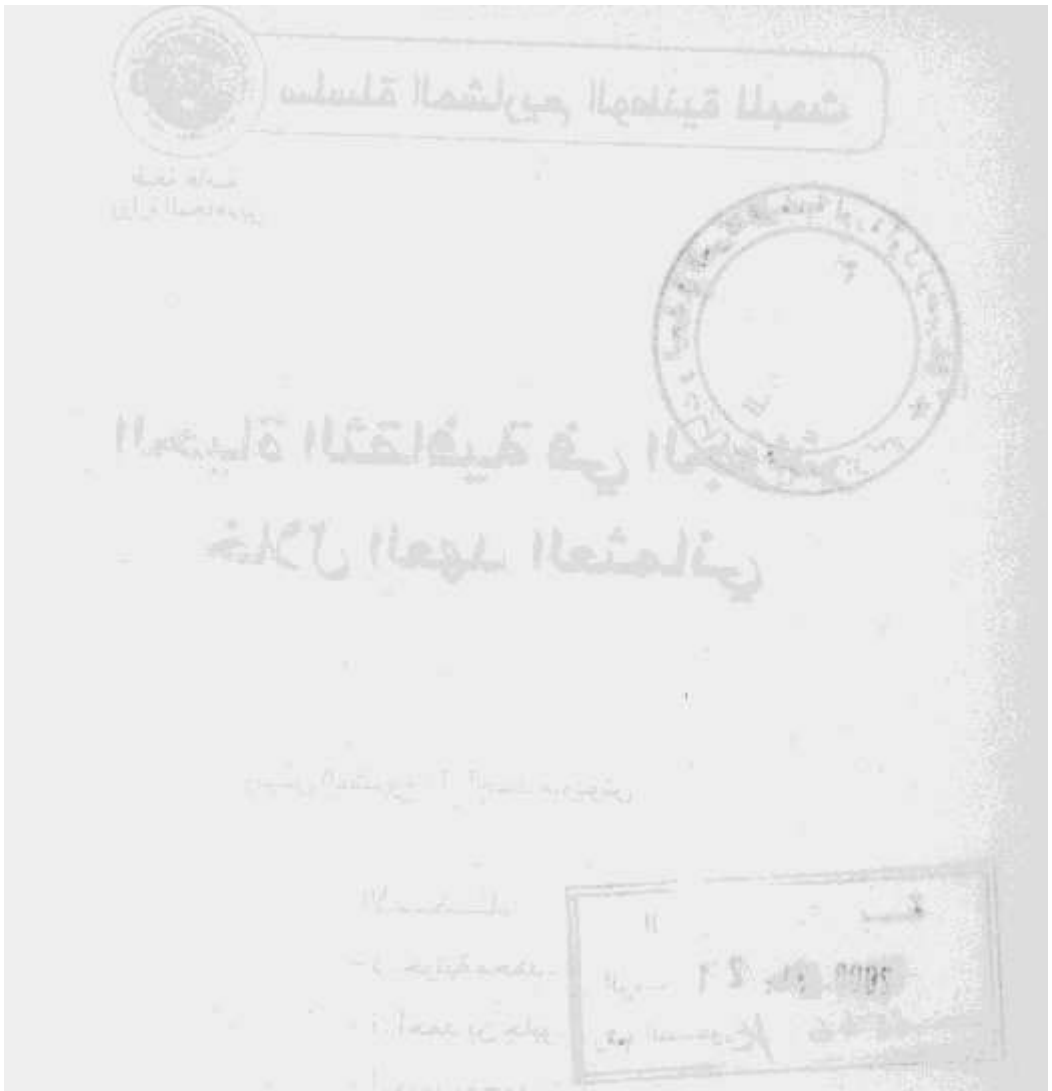

© المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة أول نوفمبر 1954. الجزائر، 2007.

تدمك : 9 - 33 - 846 - 9961 - 978
الإيداع القانوني 1583 - 2007

جميع الحقوق محفوظة.

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا

وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

السيد : محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

المقدمة

يندرج هذا المشروع الموسوم بالحياة الثقافية في الجزائر بالعصر الحديث في إطار إهتمامات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة التحرير المباركة بغرض إعادة كتابة التاريخ الوطني خاصة منه في المرحلتين الحديثة والمعاصرة .

ومن ثم فالموضوع يكتسي أهمية بالغة بإعتباره لا يزال بكرا رغم إسهامات بعض الباحثين الجزائريين في إثرائه منهم على سبيل المثال إهتمامات الدكتور أبو القاسم سعد الله بتاريخ الجزائر الثقافي وبالرغم من تلك الدراسات الجادة والمركزة التي ظهرت في الموسوعة الثقافية للفترة الحديثة، إلا أننا إرتأينا للبحث في الموضوع لأنه لا يزال في أمس الحاجة إلى الحبكة التاريخية والدراسة العلمية والإثراء.

ولعل المراد من هذه الدراسة إضافة لبنة جديدة للتاريخ الثقافي خلال العهد العثماني، خصوصا إذا علمنا أن الإحتلال الفرنسي كان من بين أهدافه طمس معالم ومآثر الأسس الثقافية والحضارية للشعب الجزائري خلال التواجد العثماني الذي اعتبره بمثابة احتلال.

ولعل الإشكالية التي لا تزال مطروحة إلى اليوم خاصة منها المظاهر الحضارية للفترة الممتدة ما بين (1518-1830)، وهل هناك مشروع ثقافي إهتم به العثمانيون خلال تواجدهم في الجزائر ؟ أم أنهم إكتفوا بجمع الضرائب والإتاوات وفرض الضرائب على الجزائريين. كل هذه الإشكاليات والتساؤلات تتضمن محتوى هذه الدراسة التي من دون شك أنها تبرز لنا المستوى الحضاري والثقافي الذي تميز به المجتمع الجزائري وقتئذ ولإثراء الموضوع إرتأى أعضاء الفرقة تقسيم العمل إلى

موضوعات مميزة تغطي بعض الجوانب التي عرفتها الحياة الثقافية التي ميزت تلك المرحلة في جوانبها الثقافية والدينية، والإجتماعية، ومدى إنعكاساتها على المنطقة محليا وجواريا.

وبعد جمع المادة وفحصها، وترتيبها خلصت الفرقة إلى وضع خطة عمل منهجية وهي مقسمة إلى المحاور التالية :

- المؤسسات الثقافية خلال العهد العثماني.
- الحياة الفنية والثقافية.
- الوقف كمؤسسة إجتماعية وثقافية
- الطرق الصوفية والرباطات.
- الزوايا والكتاتيب القرآنية.
- الدور الثقافي والعلمي للزوايا في الجنوب الجزائري.
- السكان والنمط العمراني، ومظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية لمدينة نمطيط.

وبالرغم من المجهودات التي بذلت من طرف أعضاء الفرقة محاولة منها توضيح الرؤيا حول المحاور الثقافية المعالجة إلا أنها رأت أن ذلك ما هو إلا مجهود ولبنة تضاف إلى المساهمات التي أنجزها بعض الباحثين في سياق التأسيس لبناء المدرسة التاريخية الوطنية، وإزالة اللبس حول الإشكالات التي ظلت تحوم حول الوجود العثماني في الجزائر خصوصا من طرف رواد المدرسة الاستعمارية واتباعها في الجزائر.

وفي الختام خلص أعضاء اللجنة إلى إستنباط جملة من النتائج التي سوف يكون لها بدون شك مساهمة في تنوير الطريق أمام المهتمين بتاريخ الجزائر في الفترة الحديثة، كما لا يسعنا إلا أن نقدم تشكراتنا إلى مدير مركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954 وطاقمه الإداري على ما وفروه لنامن إمكانات مادية ومعنوية كانت في خدمة البحث والدراسات التاريخية.

الفصل الأول

المؤسسات الثقافية وفن الرسم والفن المعماري

1 - المؤسسات الثقافية خلال العهد العثماني

ارتبط ظهور المؤسسات الثقافية بالجزائر قبل الوجود العثماني في القرن السادس عشر الميلادي وذلك منذ انطلاق الفتوحات الاسلامية بالمغرب العربي في القرن السابع للميلاد، ومثل المسجد في ذلك الوقت النواة الاولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية في آن واحد تبلغ رسالة الاسلام وتعالج مشاكل المجتمع في شتى مجالات الحياة الدينية والتعليمية والقضائية ثم بدأت تظهر مؤسسات أخرى بالتدريج مشاركة المسجد في تبليغ رسالته الدينية، ومخففة عنه بعض الاعباء كتحفيظ القرآن، وتعليم العلوم الشرعية في مختلف المراحل، وأهمها المدارس العلمية والكتاتيب القرآنية والمعمرات الى جانب الزوايا المختلفة والمنتشرة في مناطق متعددة من الوطن.

غير أن هذه المؤسسات الثقافية أصبحت في العهد العثماني بالجزائر مهتمة بالتعليم أكثر مما هي مهتمة بالثقافة بمفهومها الواسع كما هو معروف في عصرنا الحالي، وكانت هذه المؤسسات تبث تعليما يصل الى مستوى التعليم العالي، ولم تعرف الجزائر حينها لا الصحافة ولا المسرح وكذلك المطبعة.

و سنحاول في هذا المحور التعرض الى دور المؤسسات الثقافية في نشر العلوم الشرعية والمعارف بدأ من الجامع المسجد، والمدارس العلمية، والمعمرات والكتاتيب القرآنية مع الاشارة الى طريقة إنشائها وتسييرها ومكانتها في نظر المجتمع الجزائري، ومدى نشرها للثقافة الاسلامية في المدن والقرى، ومقاومتها لعمليات التنصير، والمحافظة على خصائص المجتمع الإسلامي بدأ من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر.

1- المسجد

اسم الجامع والمسجد والزاوية كان التداخل فيما بينهم من حيث التسمية غير أن الجامع أو المسجد تتمثل وظيفته بالدرجة الاولى في المكان الخاص الذي يؤدي فيه المسلمون الصلوات المفروضة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الفروض الدينية، ومختلف العلوم الاخرى المتعلقة بحياة المسلمين، والتعريف بشؤون الناس ومعالجة بعض المشاكل والقضايا المتعلقة بالحياة اليومية للمجتمع.

بينما الزوايا كانت تمثل مأوى للطلبة، ومركزا لاستقبال المريدين وتلقين الأذكار، وحجم الجامع أو المسجد يمثل عاملا أساسيا في تحديد وظيفته كمكان للعبادة وتحفيظ القرآن وتعليم الفروض الدينية فقط، أو القيام بمهام أخرى كالقضاء، فتوصف هذه المساجد بالجامع الكبير أو الجامع الأعظم وذلك حسب موقعها في المدينة ومكانتها العلمية أو قدمها كالمسجد القديم أو العتيق.[1]

والمساجد كانت تحدد أنواعها بناء على مؤسسها فهناك نوع قام ببنائه الحكام، ونوع بناه الأثرياء، ونوع قامت ببنائه الهيئات والجمعيات الخيرية.

فالنوع الأول هو النوع الذي قام بتأسيسه الحكام كالخلفاء والأمراء والولاة والملوك، ويعتبر ذلك في نظرهم جزءا من واجبهم الديني لخدمة المجتمع الاسلامي، ومساعدته في تأدية شعائره الدينية، وكسب عطف الرعية، وربما للشهرة أيضا[2]، ونجد هذا النوع من المساجد في الجزائر العاصمة كالجامع الكبير[3]، والجامع الجديد بالعاصمة والذي كان مقرا للمفتي الحنفي الذي كان في مقام شيخ الاسلام في اسطنبول، وجامع الباي بقسنطينة، وصالح باي بعنابة، وجامع الباشا

---

1 – د.أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الهجري الى الرابع عشر الهجري 16-20 . ش. و. ن. ت.،ج1–الجزائر.1981 ص:243

2 – وزارة الاعلام والثقافة،مجلة الثقافة عدد63،الجزائر1981 . ص: 12.

3 – الجامع الكبير كان مقرا للمفتي المالكي، وبه مجلسا شرعيا ينعقد أسبوعيا كل يوم خميس يضم المالكي والحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي وكبار العلماء،و القضاة،و من مهامه الاساسية الفصل في القضايا الشائكة.

بوهران، والجامع الكبير بتلمسان، وآخر بندروما[4] والاهتمام بالمساجد يعتبر ميزة في المجتمع الجزائري المسلم، فهو بمثابة ملتقى للناس ومبعثا للنشاط العلمي والاجتماعي، كما أنه يمثل قلب القرية في الريف، والمركز الروحي لسكان المدينة، فتقام حوله الأسواق والكتاتيب والمساكن، كما تعتبر المساجد أيضا بمثابة الرابطة بين أهل القرية والمدينة.[5]

أما النوع الثاني من المساجد فقام بتأسيسه الاثرياء من الناس، وذلك ببنائه وصيانته، والوقف عليه بهدف التقرب الى الله، واستمالة بعض الفئات الاجتماعية، وشيوخ الدين، أو لكسب الشهرة، وهذا النوع من المساجد له أعداد كبيرة بالجزائر خلال الفترة العثمانية منها مدينة بجاية التي اشتهرت بمساجدها القديمة والحديثة، وفي الفترة العثمانية بني الجامع الكبير بها.

وفي عنابة بني مسجد سيدي أبي مروان، ومسجد صالح باي الذي عرف باسم المسجد الجديد، وجامع محمد الباي الكبير في معسكر الذي أضاف اليه مدرسة، وأوقف له أوقافا كثيرة منها خزانة كتب، وحمام وحدائق، ودورا وحوانيت، وبني له فرنا، وأصبح جامع الباي بمعسكر من المباني الهامة يقصده الناس للتنزه والتعجب[6].

وتلمسان كان بها في أواخر العهد العثماني 50 مسجدا منها جامع سيدي بومدين، والجامع الكبير، وجامع محمد السنوسي، وجامع ابن زكرى وجامع اولاد الإمام، ومدينة المدية في آواخر العهد العثماني كان بها أحد عشر مسجدا منها الجامع الكبير وجامع سيدي المزاري الذي بناه مصطفى بومزراق آخر بايات التيطري والجامع الأحمر الذي بناه الباي حسن.[7]

---

4 – أنظر ليكليرك (المجلة الافريقية) 1859 ،43. وابن سحنون (الثغر الجماني) ص:10–12.

5 – أنظر فيرو "المجلة الإفريقية" .....–85.

6 – أنظر: ليكرليرك (المجلة الإفريقية) 1959–43، وابن سحنون (الثغر الجماني) مخطوط –10–12.

7 – أنظر هنري فيدرمان (المجلة الإفريقية) 1865– (289-301)

والنوع الثالث من المساجد قامت بتشييده المؤسسات الخيرية وهو يعتبر بمثابة عمل مكمل لعمل الولاة والاغنياء، والشيوخ، وأعدادها كثير لا تحصى ولا تعد بمختلف جهات الجزائر، ويلاحظ الكثير من الباحثين بأن هذه المساجد كانت في معظمها متواضعة كما تحدث عن ذلك الورتلاني مقارنا بين المساجد التي بناها الأثرياء والأخرى التي بنيت من طرف الاهالي فهي مبنية بالحجر أو الجبس صوامعها منخفضة، قوائمها ضخمة، فراشها بسيط من الحصير والزرابي، أما المساجد العثمانية فتتميز بدقة البناء غنية بفراشها وزخرفتها المتنوعة، وسعتها وعلو صوامعها.

وكان بعضها يتميز بجمال يفوق جمال الكنائس كمساجد وهران وبجاية والجزائر العاصمة، ومعسكر وقسنطينة.[8]

ومما سبق يتضح لنا بأن الاهتمام بتأسيس المساجد والعناية بها وصيانتها خلال الفترة العثمانية كان كبيرا والمشاركة في تشييدها كانت من الحكام ومن عامة الناس على السواء، وكان هذا الاهتمام نابع من دوافع دينية، وخدمة للمذهب كالمذهب الحنفي مثلا، فكانت المساجد تسمى بالمسجد الحنفي، والمسجد المالكي، كما أن الأوقاف هي الأخرى كانت تصرف لأغراض دينية سواء للمدرسين أو القائمين بشؤون المسجد كالمدارس المتخصصة مثلا في التفسير أو الحديث أو في العلوم الشرعية بصفة عامة أو للأمامة أو الخطبة أو الآذان أو بأمور تعبدية كدلائل الخيرات، وتنبيه الانام.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول بأن المرحلة العثمانية بالجزائر كانت متميزة بطابعها الإسلامي الموحد، التقت فيه اهتمامات الحاكم بالرعية، ويبرز ذلك بصورة خاصة في العناية بالزوايا والرباطات والمساجد، ومدارس العلم والمساجد وربط ذلك كله بالتعليم بصورة عامة مهما تعددت وتنوعت هذه المؤسسات.

---

8 – المرجع السابق، د.ابو القاسم سعد الله، ص: 254-255.

2 -المدارس العلمية

المدارس العلمية مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، وكان ظهورها بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية واتصال الشعوب الإسلامية واحتكاكها بشعوب أخرى، فأصبحت الحاجة الملحة الى اقتباس المعارف والعلوم المتنوعة والاستفادة من مختلف المعارف الضرورية لحياة المسلمين الأمر الذي فرض إنشاء هذه المدارس وانتشارها.

والجزائر لم تكن بها جامعات أو مدارس عليا بالمفهوم الحالي خلال العهد العثماني بل كانت دروس مساجدها الكبيرة وزواياها تضاهي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجوامع الكبرى في المشرق العربي كالجامع الأموي بدمشق، والحرمين الشريفين، إضافة الى تردد بعض الأساتذة المدرسين من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ومشاركتهم في التدريس كعبد القادر الراشدي، وعبد الكريم الفكون بقسنطينة، وعلي الأنصاري وسعيد قدور بالعاصمة، وأحمد البوني في عنابة، ويذكر البعض بأن مدينة الجزائر وحدها كانت تتوفر على ثلاث مدارس للمذهب المالكي[9].

غير أن المدارس الابتدائية في الجزائر كانت منتشرة في المدن والقرى والأحياء، والبادية والجبال النائية بأعداد كثيرة تلفت نظر الزائرين والرحالة، واشتهرت المدن الرئيسية بالجزائر خلال الفترة العثمانية بكثرة مدارسها.

فتلمسان كانت تتوفر على خمس مدارس ثانوية وعالية، وهذا ما نوه به الرحالة المصري ابن خليل عبد الباسط والكاتب المغربي الحسن الوزان الذي أشاد باهتمام أهل تلمسان ببناء المدارس والانفاق عليها، ويشير الفرنسيون هنا كذلك بعد احتلالهم لتلمسان بأن وجدوا بها 50 مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي هي مدرسة أولاد الإمام ومدرسة الجامع الكبير.[10]

---

9 - انظر فانتور ديبارادي (الجزائر في القرن 18) ص: 158-160.

10 - للمزيد أنظر: إيمريت (الجزائر في عهد الأمير عبد القادر) -ص:13، ومجلة التاريخ الحديث والمعاصر، 1954، 202.

أما مدينة قسنطينة فمدارسها الابتدائية كثيرة خلال الفترة العثمانية، فمنذ دخول الفرنسيين مدينة قسنطينة قدر عدد المدارس الابتدائية بها بحوالي 90 مدرسة، وهذا العدد جعل الكثير من الدارسين يرى بأن كل طفل كان له مكان في المدرسة، وبها سبع مدارس للتعليم الثانوي والعالي. [11]

أما مدينة الجزائر فقد تضاربت حولها الأقوال في عدد المدارس الابتدائية والثانوية والعليا الموجودة بها خلال العهد العثماني، ويعود ذلك بصورة أساسية الى إدخال المساجد والزوايا في عداد المدارس، وكثيرا ما يتحدث البعض عن مراكز التعليم الثانوي والعالي، ولا يتحدثون عن المدارس الابتدائية، وهذا ما أشار إليه التمغروطي، وابن زاكور بوجود المدرسة القشاشية، كما تحدث ابن حمادوش عن مدرسة الجامع الكبير وهو من المنتسبين الى مدينة الجزائر، وقدر عدد المدارس بمدينة الجزائر عند دخول الفرنسيين إليها بحوالي 100 مدرسة ابتدائية وغير ابتدائية. [12]

و يذكر هنا بوراص الناصر بأن المدرسة هي التي تكون متخصصة للتعليم وحده بمعنى أنها تقوم بدراسة العلم في مستواه الثانوي والعالي، فكانت المدرسة القشاشية بالعاصمة والمدرسة المحمدية بمعسكر التي شيدها الباي محمد الكبير فاتح وهران، والتي حملت اسمه، ويصفها ابن سحنون بأنها "مدرسة كاد العلم أن ينفجر من جوانبها" [13] أما الجامع الكبير بالجزائر العاصمة ومدرسته العليا فكان يمثل نواة جامعية بها أبرز المدرسين كعلي الأنصاري، ومحمد قدورة ومحمد ابن الشاهد، سعيد قدورة وغيرهم، كما كانت للجامع الكبير أوقاف ضخمة مكنت المفتي سعيد قدورة من أن يشيد مدرسة عليا، وسكنى للطلبة تابعين للجامع، وعدد المدرسين بهذه المدرسة يقدر بتسعة عشر أستاذا وعددا من المساعدين.[14] و من المدن الجزائرية التي أعطت عناية كبيرة للمؤسسات العلمية مدينة قسنطينة التي

---

11 -المرجع نفسه.

12 - اليوليسكي(العلم المثلث)، 22.

13 - ابن سحنون (الثغر الجماني) مخطوط ورقة 10.

14 - راجع د. سعد الله ابو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر.

أنشأ بها صالح باي مدرسة الكتانية وخصص لها أوقافا ضخمة ضمت الأساتذة والطلبة، وكانت هذه المدرسة تنشر تعليما في المستوى الثانوي والعالي تميزت بانضباط نظامها حتى قورنت بالمدارس الاروبية المعاصرة، ولعبت دورا أساسيا في الحياة الثقافية بالجزائر في العصر الحديث وهي لا تزال إلى اليوم. [15]

ونظرا لتنوع المعارف والعلوم فقدت صنفت المدارس العلمية بالجزائر خلال الفترة العثمانية الى مدارس خاصة مهتمة بالعلوم الدينية وذلك لاهتمامها بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره وشرح الحديث، وتعليم الفقه، والتوحيد، وعلوم المنطق والأصول كمدرسة الخنقة ومدرسة مازونة، ومدرسة الخنقة التي تنسب إلى مؤسسها أحمد بن ناصر واشتهرت بعلوم الفقه والحديث والنحو، تخرج منها عدد من العلماء منهم أحمد التليلي، وخليفة بن حسن.

أما مدرسة مازونة فكانت لها أهمية كبيرة في الغرب الجزائري لها نظام وتقاليد استقتها من تلمسان والمغرب الأقصى والأندلس أنشئت في الفترة العثمانية، واشتهرت بالفقه والحديث وعلم الكلام ومن أشهر المتخرجين منها أبو راص الناصر الذي تحدث عنها وعن مدرسيها. [16]

وهناك مدارس خاصة بفروع العلوم الطبيعية والتجريبية كعلم الفلك والحساب والطب، وعلم صيدلة الأعشاب وغيرها ومن هذه المدارس مدرسة أبي مروان بعنابة، وسيدي بومدين بتلمسان، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، ومدارس ندرومة ومازونة، ومليانة، وسيدي لخضر والكتانية بقسنطينة. [17]

كما اهتمت مدارس أخرى في العلوم اللغة والأدب كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والقوافي، وقواعد الانشاء، وركزت على هذا النوع من العلوم لكونها تعد أداة ووسيلة أساسية لاستعاب واتقان الفهم في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه.

---

15 – أحمد توفيق المدني (محمد عثمان باشا) 153.

16 – أبو راص الناصر. (فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم:2263-2332. و المخطوط مطبوع الآن.

17 – وزارة الاعلام والثقافة، مجلة الثقافة، عدد :63- ص:1.

3 - الكتاتيب القرآنية

تمثل الكتاتيب أقل وحدة من التعليم الابتدائي وهي مأخوذة من الكتاب وجمعها كتاتيب، ووظيفتها الأساسية هي أن تحفظ القرآن الكريم للأطفال وترتيله، ودعت الضرورة الى تأسيسها منفصلة عن المسجد بغرض المحافظة على نظافته ووقاره، ولكي يتوفر على جو الخشوع المطلوب عند أداء الصلوات المفروضة [18].

والكتاتيب قد تنشأ منفردة أو في شكل مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال، وأغلبها تكون مؤسسة من طرف حفظة القرآن الكريم بغرض الحصول على لقمة العيش، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن، وفي جميع الأحياء، فبعضها كان يحمل اسم الحي الذي يقع فيه مثل مكتب سوق القندقجية، ومكتب الشماعين، ومسجد جامع السيدة ومسجد الحاج مصطفى ومسجد كوشة بوبغلة، وكلمة مسيد كان يطلق عليها في الجزائر العاصمة، وهي محرفة من تصغير كلمة مسجد[19].

أو دكان أو جناح أو جزء في مسجد أو غرفة من منزل مفتوحة على الشارع يخصصها الموقف كتابا للأطفال، وكان الأطفال يجلسون على الأرض فوق الحصير في شكل دائري ثم يقوم الشيخ بالإملاء على التلاميذ أجزاء من القرآن الكريم (آيات أو ثُمن أو رُبع من القرآن الكريم) يكتبونها على ألواح مصنوعة من الخشب مطلية بطين الصلصال، ومكتوبة بأقلام مصنوعة من القصب وصمغ (حبر) مصنوع من صوف الأغنام المحروق، وبعد الكتابة والتصحيح في فترة الصباح يتمرن الأطفال على القراءة الأولية ثم يتلونه في المساء، ويقرؤونه بأصوات جهورة إلى أن يتم حفظ الجزء المكتوب، ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي، وهكذا تتم عملية الحفظ بصورة دورية ودائمة إلى أن يتم ختم القرآن الكريم كله [20].

---

18 - المرجع نفسه، مجلة الثقافة عدد : 63 ص : 13.

19 - مرجع سابق، د.أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص : 276-277.

20- مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد : 8، صفر 1422، ماي 2001 قسنطينة - الجزائر ، ص ك 163 - 164.

وفي العادة يتم تعليم القرآن الكريم في الصباح من الساعة الخامسة إلى العاشرة، وفي المساء يكون من الساعة الواحدة إلى السابعة أو الثامنة مساء مع استراحة في الوسط قبل صلاة العصر، والى جانب تحفيظ القرآن كان الأطفال يتلقون في بعض الكتاتيب الكبيرة قواعد تلاوة القرآن وتجويده وترتيله على الروايات المختلفة مع تحفيظهم بعض المتون للعلوم الفقهية والشرعية واللغوية كابن عشير والشاطبية، وألفية ابن مالك[21].

والملاحظ هنا أن جميع الجزائريين كانوا يقبلون على إرسال أبنائهم إلى هذه الكتاتيب دون تهاون أو تردد لأن ذلك يمثل في نظرهم رمزا لإسلام الجميع[22] غير أن هذه الكتاتيب القرآنية كانت تتميز ببساطة المبنى وقلة الإمكانيات المادية ومعلميها (المشايخ، والطلبة) كانوا من الطبقة الفقيرة يقومون بمهمة تعليم القرآن الكريم قصد الحصول على لقمة العيش بالدرجة الأولى كما أن الأغلبية من الأطفال في هذه الكتاتيب يقومون بحفظ القرآن الكريم دون فهمه، وتدبر معانيه ومقاصده، ونجد العديد من هذه الكتاتيب منتشرة في الجزائر العاصمة كانت تحمل أسماء مختلفة تدل على مؤسسيها والقائمين منها بحي القصبة مثلا، مسيد سيدي بوقدور وضريحه، مسيد سيدي ابن علي وضريحه، ومسيد الحمامات، ومسجد جامع الزاوية (زاوية سيدي محمد الشريف الزهار وعلى الرغم من أن الأوضاع المزرية التي ميزت هذه الكتاتيب القرآنية، والأساليب المتخلفة والتي كانت تتبعها فإنها لعبت دورا هاما في تحفيظ القرآن الكريم الذي كان هو أساس الثقافة الإسلامية، وتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة يحفظ لسانهم ويوحد مفاهيمهم، ويساهم في بناء رصيدهم المعرفي، ورفع الأمية عند المجتمع الإسلامي بشكل أساسي، فالكتاتيب كانت تعد شعبا متعلما محصنا ومحافظا على خصوصيته العربية الإسلامية ومقاوما لسياسة التمسيح المسلطة على االشعوب الإسلامية في العصر الحديث[23].

---

21 - مرجع سابق. مجلة الثقافة - عدد : 63 - ص 14.

22 - مرجع سابق .مجلة الامير عبد القادر عدد : 8 ص 165 - 166.

23 - مجلة الثقافة : عدد : 4 - ص : 7-8 .

3 - الكتاتيب القرآنية

تمثل الكتاتيب أقل وحدة من التعليم الابتدائي وهي مأخوذة من الكتاب وجمعها كتاتيب، ووظيفتها الأساسية هي أن تحفظ القرآن الكريم للأطفال وترتيله، ودعت الضرورة الى تأسيسها منفصلة عن المسجد بغرض المحافظة على نظافته ووقاره، ولكي يتوفر على جو الخشوع المطلوب عند أداء الصلوات المفروضة [18].

والكتاتيب قد تنشأ منفردة أو في شكل مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال، وأغلبها تكون مؤسسة من طرف حفظة القرآن الكريم بغرض الحصول على لقمة العيش، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن، وفي جميع الأحياء، فبعضها كان يحمل اسم الحي الذي يقع فيه مثل مكتب سوق القندقجية، ومكتب الشماعين، ومسجد جامع السيدة ومسجد الحاج مصطفى ومسجد كوشة بوبغلة، وكلمة مسيد كان يطلق عليها في الجزائر العاصمة، وهي محرفة من تصغير كلمة مسجد[19].

أو دكان أو جناح أو جزء في مسجد أو غرفة من منزل مفتوحة على الشارع يخصصها الموقف كتابا للأطفال، وكان الأطفال يجلسون على الأرض فوق الحصير في شكل دائري ثم يقوم الشيخ بالإملاء على التلاميذ أجزاء من القرآن الكريم (آيات أو ثُمن أو رُبع من القرآن الكريم) يكتبونها على ألواح مصنوعة من الخشب مطلية بطين الصلصال، ومكتوبة بأقلام مصنوعة من القصب وصمغ (حبر) مصنوع من صوف الأغنام المحروق، وبعد الكتابة والتصحيح في فترة الصباح يتمرن الأطفال على القراءة الأولية ثم يتلونه في المساء، ويقرؤونه بأصوات جهورة إلى أن يتم حفظ الجزء المكتوب، ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي، وهكذا تتم عملية الحفظ بصورة دورية ودائمة إلى أن يتم ختم القرآن الكريم كله [20].

---

18 - المرجع نفسه، مجلة الثقافة عدد : 63 ص : 13.

19 - مرجع سابق، د.أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص : 276-277.

20- مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد : 8، صفر 1422، ماي 2001 قسنطينة - الجزائر . ص ك 163 - 164.

وفي العادة يتم تعليم القرآن الكريم في الصباح من الساعة الخامسة إلى العاشرة، وفي المساء يكون من الساعة الواحدة إلى السابعة أو الثامنة مساء مع استراحة في الوسط قبل صلاة العصر، والى جانب تحفيظ القرآن كان الأطفال يتلقون في بعض الكتاتيب الكبيرة قواعد تلاوة القرآن وتجويده وترتيله على الروايات المختلفة مع تحفيظهم بعض المتون للعلوم الفقهية والشرعية واللغوية كابن عشير والشاطبية، وألفية ابن مالك[21].

والملاحظ هنا أن جميع الجزائريين كانوا يقبلون على إرسال أبنائهم إلى هذه الكتاتيب دون تهاون أو تردد لأن ذلك يمثل في نظرهم رمزا لإسلام الجميع[22] غير أن هذه الكتاتيب القرآنية كانت تتميز ببساطة المبنى وقلة الإمكانيات المادية ومعلميها (المشايخ، والطلبة) كانوا من الطبقة الفقيرة يقومون بمهمة تعليم القرآن الكريم قصد الحصول على لقمة العيش بالدرجة الأولى كما أن الأغلبية من الأطفال في هذه الكتاتيب يقومون بحفظ القرآن الكريم دون فهمه، وتدبر معانيه ومقاصده، ونجد العديد من هذه الكتاتيب منتشرة في الجزائر العاصمة كانت تحمل أسماء مختلفة تدل على مؤسسيها والقائمين منها بحي القصبة مثلا، مسيد سيدي بوقدور وضريحه، مسيد سيدي ابن علي وضريحه، ومسيد الحمامات، ومسجد جامع الزاوية (زاوية سيدي محمد الشريف الزهار وعلى الرغم من أن الأوضاع المزرية التي ميزت هذه الكتاتيب القرآنية، والأساليب المتخلفة والتي كانت تتبعها فإنها لعبت دورا هاما في تحفيظ القرآن الكريم الذي كان هو أساس الثقافة الإسلامية، وتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة يحفظ لسانهم ويوحد مفاهيمهم، ويساهم في بناء رصيدهم المعرفي، ورفع الأمية عند المجتمع الإسلامي بشكل أساسي، فالكتاتيب كانت تعد شعبا متعلما محصنا ومحافظا على خصوصيته العربية الإسلامية ومقاوما لسياسة التمسيح المسلطة على االشعوب الإسلامية في العصر الحديث[23].

---

21 – مرجع سابق. مجلة الثقافة – عدد : 63 – ص 14.

22 – مرجع سابق .مجلة الامير عبد القادر عدد : 8 ص 165 – 166.

23 – مجلة الثقافة : عدد : 4 – ص : 7-8 .

4 - المعـــمـرات

المعمرات مؤسسات ثقافية تشبه الكتاتيب القرآنية، كانت منتشرة في الأرياف الجزائرية أو القرى الجبلية خلال الفترة العثمانية ينتقل إليها التلاميذ الدارسون بها من مختلف الجهات الوطنية، وأحيانا حتى من خارج الجزائر من اجل حفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله مع إضافة علوم أخرى دينية ولغوية ذات صلة بفهم القرآن وتفسيره.

وتسيير هذه المعمرات كان يتم من طرف التلاميذ الدارسين بها وذلك من حيث القيام بأعمال النظافة والصيانة وتحضير الطعام وجلب المياه وتنظيف المؤن الغذائية، والقيام برعي الحيوانات المحبوسة للمعمرات، وكانت كل هذه الأعمال كلها تتم دوريا، وبصفة منتظمة في إطار أدوار متداولة ومتعارف عليها بين التلاميذ الدارسين بهذه المعمرات[24].

وينقسم طلبة وتلاميذ المعمرات إلى عدة فئات ودلك حسب السن، والقدم والثقافة، وهذه الفئات مصنفة إلى فئات هي كما يلي :

1- فئة القدادشة (جمع قداش)، وتتكون هذه الفئة من التلاميذ الصغار الذين يأتون الى هذه المؤسسة لحفظ القرآن الكريم فقط في بداية التحاقهم بهذه المؤسسات.

2 – فئة الطلبة : تتكون هذه الفئة من الطلبة الذين يمثلون فئة فوق فئة القدادشة، وذلك من حيث السن، والقدم والثقافة ويتركز اهتمام فئة الطلبة في حفظ القرآن الكريم، وتعلم بعض العلوم الدينية واللغوية، والتفسير، ويتولون إلى جانب ذلك الإشراف على فئة القدادشة في تحفيظ القرآن الكريم، وتهيئة المتطلبات اليومية كتحضير الغذاء والقيام بأعمال التنظيف، والمراجعة للقرآن الكريم، والنوم والاستيقاظ إلى غير ذلك من الإشغال اليومية للحياة في المعمرة .

---

24 – مرجع سابق : مجلة الثقافة مجلة الثقافة، عدد : 63، ص : (21-22) .

3 - فئة المقدمين والوكلاء، والشيوخ الكبار، وتمثل هذه الفئة أعلى منزلة في المعمرات فهي تقوم بمهمة التوجيه ماديا وفكريا وتتمتع بكل الصلاحيات في حل المشاكل المطروحة بالمعمرات وهي معفية من كل الأعمال اليومية التي تقوم بها كل من الفئة الأولى والثانية (القدادشة، والطلبة).

رإسم ذهه الفئة له دلالة على رتبته العليا يساعده في ذلك عدد من كبار الطلبة والمقدمين والوكلاء، وتؤدى الصلوات في المعمرة بصورة جماعية يتلى فيها القرآن الكريم جماعيا عقب كل من صلاة العصر، والمغرب والصبح، ويعرف ذلك بالحزب الراتب، وذلك لكونه أن القرآن الكريم يتلى بصورة مرئية ومنظمة عقب كل أوقات الصلوات المذكورة سابقا، ورغم كون هذه المؤسسات المسماه بالمعمرات كانت تعيش في ظروف صعبة خاصة في المناطق الريفية وظروف طلبتها المزرية فقد كان لها دورا هاما في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه وتوسع قراءته في مختلف المناطق الريفية، وبين الأجيال المتعاقبة، كما كان لها دورا في تعليم العلوم الدينية واللغوية إلى جانب احتضانها للتلاميذ الفقراء، وإيواء المساكين وتقديم المساعدات المادية والثقافية مجانيا لطبقات اجتماعية محرومة الأمر الذي أدى إلى تكوين أجيال من المثقفين عملوا على نشر المعرفة العلمية، وتوسع الثقافة الإسلامية بين عامة الشعب، ورفع الجهل والأمية في مختلف جهات الوطن في المدن والأرياف، ونجد من هذه المعمرات معمرة سيدي عمر الحاج على ساحل دلس، ومعمرة سيدي أحمد بن دريس بمنطقة الغزارقة، ومعمرة الشرفة قرب العزارقة .

ومعمرة فريخة ببني ورتلان، ومعمرة سيدي بن عبد الرحمان بوقبرين إلى غير ذلك من المعمرات المنتشرة في مختلف المناطق بالجزائر .

5 - الزوايا

تمثل الزوايا في مجمعات من البيوت والمنازل المختلفة، والأحجام والأشكال تضم بيوتا للصلاة، وغرفا لتحفيظ القرآن كما تحتوي الزوايا على مساكن ومطاعم لطلباها، ومحازن للمواد الغذائية، ومأوى للحيوانات التي تستغل في الأشغال الخاصة بالزاوية.

ويقوم بتأسيس هذه الزوايا في معظم الحالات رجال الدين المتصوفون الذين يرون بأن هذه الزوايا تمثل عملا خيريا دينيا لنشر الثقافة الإسلامية والمحافظة عليها بين أبناء المجتمع الإسلامي[25].

غير أن مؤسسات الزوايا قد صنفت إلى صنفين أساسين عرف الصنف الأول بالخلواتي يدعى فيه شيوخه المعرفة بالأسرار الدينية الغيبية الخاصة، ولهم القدرة على توزيعها لإتباعهم من الإخوان والمريدين، حيث يفرضون عليهم أذكارا خاصة في صلوات معزولة ومظلمة ومحدودة تعرف بأذكار الورد، بعد صلوات العصر والمغرب والصبح، ويعرف شيوخ أصحاب هذا الصنف من الزوايا بالطرقيين بمعنى أن لهم طريقة مفروضة على الأتباع من المريدين[26].

أما الصنف الثاني من الزوايا فقد عرف بأنه غير خلواتي، وهو أعد أيضا لأتباعه وردا معينا من الأذكار تتلى عقب الصلوات وإهتمام هذا النوع من الزوايا ينصب حول تعليم القرآن الكريم وتلاوته للناشئة، وتدريس بعض العلوم الدينية واللغوية من طرف شيوخ هذه الزوايا وهذا الصنف يعتبر بمثابة كتاتيب قرآنية تنتشر بمختلف المناطق الريفية والحضرية بالجزائر[27].

وكلا الصنفين من الزوايا له فروع داخل الجزائر وخارجها وهناك تفاصيل أخرى حول الزوايا سيأتي تفصيلها لاحقا في الفصل الخاص بالزوايا.

6- المصادر المالية للمؤسسات الثقافية

كانت المؤسسات الثقافية خلال المرحلة العثمانية تعتمد في الحصول على تمويلها وتموينها على مصدرين أساسيين أولاهما الإعانات التي تقدم لهذه

---

25 - مرجع سابق، د.أبو القاسم سعد الله . ص : 266-267.

26 - إبن مريم (أبو عبد اله محمد بن محمد بن أحمد) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق وتعليق إبن أبي شنب (محمد) - المطبعة الثعالبية - الجزائر - 1908- ص 65 -(315).

27 - للمزيد أنظر : إبن زكري (محمد السعيد بن أحمد) : أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل - مطبعة فونتانة - الجزائر 1913- ص : 127-128.

المؤسسات من طرف المحسنين سواء في الحواضر وفي المناطق الريفية، وهي ترد إلى المؤسسة في شكل نقود أو بضائع، ومواد غذائية (حبوب وزيتون وتين وحيوانات، وأدوات وألبسة، ومفروشات إلى غير ذلك من المواد العينية، ويقدم ذلك إلى المؤسسات الثقافية بصورة دورية خلال السنة[28].

وتأتيها الأموال المحبوسة والأوقاف الإسلامية التي يوقفها الأشخاص أو الهبات الخيرية، وهي متنوعة كالأراضي الزراعية كتحديد قطعة من الأرض وجعلها وقفا خاصا بمؤسسة ثقافية، وأشجار مثمرة كوقف عدد من أشجار الزيتون أو التين أو أشجار الخروب ...إلخ أو وقف عدد من المحلات التجارية، والحمامات المعدنية أو رؤوسا من الحيوانات كالبقر والغنم والماعز، وقد تكون الأموال الموقفة في المناطق الريفية أو الحواضر وتقوم هذه المصادر المالية أو الأوقاف على مبدأ شرعي، يتم بصيغة قضائية تكون ملزمة لصاحبها فعادة ما يتم بصيغة محددة، وبحضور الشهود والواقف، وتحدد قيمة الوقف، وأغراضه، ونوعيته الإستفادة منه فيلزم كلا من الواقف والمستفيدين منه [29].

وبفضل هذه الأموال والأوقاف المتنوعة تقوم هذه المؤسسات بالإنفاق على طلبة العلم، وحفاظ القرآن الكريم بها، والقائمين على خدمتها. وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وكل ما تحتاجه هذه المؤسسات الثقافية سواء في صيانتها أو تسييرها.

---

28 – مرجع سابق : مجلة الثقافة عدد : 63 – ص (22-23).

29 – مرجع سابق : أبو القسم سعد الله – ص : (227-227).

2 -الحياة الثقافية والفنية في المرحلة العثمانية

حظيت الثقافة العربية الإسلامية، باهتمام الأتراك بعد اعتناقهم الإسلام واستمرت اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، كلغة ثقافية مشتركة لجميع الشعوب، التّي بقيت تحت سيطرة الدول التركية، وشقت طريقها دون أنّ يعترض طريقها أي عائق وأصبحت المؤلفات دينية كانت او غير دينية تكتب بهذه اللغة، حتى برز علماء عديدون من الأتراك تركوا بصماتهم على هذه الثقافة، وازدهرت اللغة العربية ازدهارا كبيرا في ظل الدولة العثمانية بعد أنّ اصبح لها الدور الفاعل في ولادة الدولة العثمانية . فلا غروص اذن أنّ تصبح اللغة العربية لغة التدريس في المدارس العثمانية وكان لهذا أثره الفاعل في تطور العلوم والفنون، فصنفت أعداد هائلة من الكتب في شتى المجالات وازداد الإهتمام بالعلم والكتب من قبل سلاطين الدولة العثمانية . وفي سنة 1719 أنشئت مكتبة أحمد الثالث، وهي تعتبر احدى المعالم الفنية الرائعة للطراز المعماري العثماني، في مجال بناء المكتبات [01].

1 - فن الرسم

من المظاهر الفنية للرسم في العهد العثماني بالجزائر، نجد العمل التقليدي الكلاسيكي بالمصطلح الحديث للكلمة كالزخرفة والمنمنمات، وليدة الحضارة العربية الإسلامية وهذا من خلال ما نراه من دكاكين الحرفيين والمنازل، هذا الى جانب أعمال فنية ذات قيمة، استمرت تعيش داخل المنازل تنسج خيوط الثقافة الشعبية التي يعبّر عنها المدّاح، المغني، والشاعر [02].

فالفن البربري الذّي صمد أمام كلّ الغزوات استطاع أنّ يعيش في أعالي الجبال وأنّ يتقبل أشكالا جديدة.

---

1 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)،

2 – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، الجزء الأول، ص : 282 نفسه، ص : 286.

ومن أهم الرسومات، الرسومات البربرية المتعارف عليها والتّي تزين بيوت سكان قبائل واد هياس) والرسومات الموجودة على الأواني الفخارية المنتشرة خاصّة في الأوراس والقبائل ouad hias.

وكان الطرز كشكل فني حضري أصيل منتشرا في المدن الكبرى، مثل : الجزائر، البادية، تلمسان، قسنطينة.

وقد أعطت الحضارة الإسلامية في العهد العثماني فنا معماريا ساعد على اثراء فنون الرسم اذ استمدت منه المنمنمات والزخرفة اصالتها، واستطاعت أنّ تفرض نفسها .

2 - المساجد العثمانية في منطقة الغرب الجزائري

1 - طرق وتقنية بنايات المساجد، وأخص بالذكر المحاريب، والسقوف، والقباب والمآذن (طرق بنائها وخصائص فن زخرفتها).

2- ان المساجد الغرب الجزائري في الفترة العثمانية، تميزت بالبساطة اذا ماتورت بغيرها من المساجد سواء في الوطن أو في خارجه، وهذا يعود الى الظروف الدولية التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية، ووضعية الاتراك في الغرب الجزائري [03].

3 - أكثر هذه المساجد قريبة من الحصون والربط الجهادية من حيث الهندسة وطريقة بنائها .

4 - يغلب عليها الطابع الفني المغربي الاندلسي، وخاصة في هندسة ونمط بناء المآذن.

5 - ان المساجد الجزائرية لم تتأثر كثيرا بالنمط العثماني، بل وحافظت على غط المغرب الاندلس.

---

3 – مجلة التّاريخ : مجلة الدّراسات التّاريخية، العدد الأوّل – معهد التّاريخ – جامعة الجزائر 1986، ص : 179.

3 - الفن المعماري

لقد تميز الفن المعماري في الجزائر، خلال الحكم التركي، بنقلة نوعية كبيرة ساهمت في ازدياد الحضارة العربية الاسلامية، وهذا ما تشهده خزانة المناجة ومازال باقيا الى يومنا هذا من اثار الدولة العثمانية، على تقدم الفنون المختلفة وبراعة الفنانين والصناع في شتى المجالات[04].

وابرز ما لا يزال ماثلا للعيان ما يمس بالفن المعماري، وتنحصر الاثار المعمارية في ضريح الولي ابراهيم المحمودي والجامع المحاذي له ويحمل اسم الولي الى جانب المدرسة التي اشاد المؤرخون بذكرجمالها وقد اورد يحي بن خلدون أن بناءها دام سنة ونصف السنة، وان تدشينها كان في 765 هـ وجاء وصفها في زهر البستان فقال مؤلف هذا الكتاب : « فأقيمت مدرسة مليحة البناء ،واسعة الفناء، بنيت بضروب من الصناعات ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالاصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم، غرس بازائها بسنين يكتنفها وصنع فيها ضريحا مستطيلا وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلا فيالها من بنية ما أبهجها ... ».

4 - بناء الجامع الأعظم

تشتهر كلّ حاضرة من حواضر الجزائر العثمانية بجامع أعظم يعتبر منارتها الدينية والعلمية وفي هذا الصدد بنى الباي محمد الكبير، الجامع الأعظم بحاضرة معسكر، ولعله هو المعروف بجامع عين البيضاء أو جامع الباي محمد الكبير، في الفاتح من ذي القعدة سنة 1195هـ، الموافق لنوفمبر 1718م من ماله الخاص، وعلى أرض اشتراها باغلى ثمن، وصادفت بناءه مسغبة لم تمنع الباي من مواصلة البناء، حيث أعلن أنّ كلّ من لم يجد قوت يومه يتقدم للمشاركة في عملية البناء بأجرة معلومة، يستعين بها لتوفير قوته وقوت عياله، أ ويكري دابة يملكها وكل ما يتعلق بالبناء، وبالتالي كان بناء الجامع الأعظم فرصة لذوي الحاجة لمواجهة المسغبة

4 – د. عبد الحميد حاجيات : ابو حمو موسى الزياني الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974 – الجزائر ص : 181

المعاشة وقتئذ، علما أنّ عصر الباي قد اتسم بافتقاد الأشغال المأجورة وتفشي البطالة[05] أسند بناء المسجد الأعظم الى المهندس ذي الأصل التركي : أحمد بن محمد بن الحاج الحسين بن صار مشيق التلمساني، وقد نقشت كتابة بارزة بخط كوفي خارج المحراب من الجهة اليمنى جاء فيها مايلي : " أما بعد، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان محمد باي بن عثمان " . أما من الجهة اليسرى، كتب بحروف صغيرة : " انتهى بحمد الله على يدّ المعلم أحمد بن محمد بن الحاج الحسين بن صار مشيق التلمساني - رحمه الله - في أول يوم من ذي القعدة عام خمسة وتسعين ومائة ألف " [06].

وقد ألحق الباي محمد الكبيرالجامع الأعظم ستة عشر حوضا للوضوء، تجلب لها المياه عبر السواقي والقنوات من أراضي تتوفر على ينابيع كثيرة، كان الباي قد اشتراها من أهلها لتسخيرها في خدمة أهل المدينة . وبجواره بنى بيتا خصصها لمكتبة الجامع، بها باب تؤدي الى بيت الصّلاة، كما بنى بقربه حمّاما، وصفه ابن سحنون بالرائق بناء وشكلا، واشترى له حدائق ودورا وحوانيت، وبنى له فرنا وفندقا جديدا بالسوق القديم، وكلّ هذه المرافق المذكورة بدءا من المكتبة الى الفندق حبسها على الجامع الأعظم (الكبير) لتسد عائداتها جميع نفقات وظائفه ولوازمه [07].

لقد أصبح هذا الجامع من المباني الهامّة أو من العجائب حسب تعبير ابن سحنون الراشدي، حيث كان النّاس يقصدونه للنظر والتعجب، وقد وصفه الأديب الشاعر أحمد بن محمد بن علال الرومي وصفا شعريا، مطلعه[08]:

---

5 - ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم ابو عبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، ص : 127.

6 - المصدر نفسه، ص : 127. - الزياني، محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في اخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي ابو عبدلي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1978، ص : 24

7 - تبلغ مساحة بيت الصّلاة بهذا المسجد 283.50 م^2، ومساحته من الخارج 351 م^2، له باب يؤدي الى المدرسة، وعدد نوافذه عشرون نافذة تشبه نوافذ الحصون العسكرية، تتسع من الداخل 96 سم، وتضيق من الخارج 55 سم.

8 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص : 127 - 128، وقد يوحي لنا الوصف الشعري للجامع الأعظم بتذوق الباي محمد الكبير للجمال الهندسي والفنّي للمنشآت العمرانية.

أنظـر رعـاك إلاه الخلق واعتبر لمسجـد رائـق قـد لاح للبشـر

ثمّ قال :

المحكـم التشييـد في شرفاتـه فتـراه يخطـف أعينـا للنظـر

ثمّ قال :

عجبا من مسجد في الأرض قـد حاكى السماد تطاولا في المفخر

على ضوء ما تقدم، يبدو أنّ الباي محمد الكبير، كان يخطط للجامع الأعظم، ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة، ينافس به جامع القروييني بفاس، ولكن تطور الزمن، ولم يتحقق له ذلك، فقد نقلت العاصمة الى وهران بعد فتحها الثاني، ووقعت ثورة الطريقة الدرقاوية[09].

5 - العناية بالوقف الثقافي

يعتبر الوقف، أ والحبوس من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، والقيم الأصلية، إ ذ يندرج ضمن الصدقات الجارية باجماع الفقهاء والعلماء المسلمين، فهو يعبر أساسا عن ارادة الخير، والتضامن عند الإنسان المسلم[10].

لقد انتشر الوقف بالجزائر العثمانية عبرحواضرها وارياقها وشمل الأملاك العقارية، الأراضي الزراعية، البساتين، الحدائق، الدكاكين، أ فران الخبز، الحنايا، الفنادق، العيون، السواقي، الصهاريج وغير ذلك [11].

ورغم اعفاء الأملاك الموقوفة من دفع الضريبة الا أنّ الحكّام العثمانيين، قد أيدوا انتشارها ووضع بعضهم حدّا للتهاون والتحايل على الأوقاف، وتصدرا لكل من يجرؤ على انتهابها لأنّ مداخيلها كانت تحمل عنّهم ضغوطات، ومتاعب الحياة

---

9 - Leclere, ch "Inscriptions Arabes de Mascara"In ,R.A , 1859 , p 43

10- د. سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأ بحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص : 154.

11 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص : 128.

الإجتماعية والثقافية، وتساهم بقسط كبير في خدمة العملية التعليمية والثقافية وتعمق الضمان والتضامن الإجتماعيين، خصوصا أثناء الإضطرابات التّي عرفتها أيالة الجزائر.

وعليه، ظهر للباي محمد الكبير أ ولوية العناية بالوقف في مشروعه الثقافي، لأنّ ذلك يعني استمرار دور المؤسسات التعليمية القائمة، وتفعيل نشاط الطلبة والمدرسين . انّنا لا نملك وثائق تفصل الوقف الثقافي، وكلّ ما ضبطناه هو نتف وقفية وردت عرضا في المصادر التّاريخية العربية المحلية، فقد ذكر ابن سحنون الراشدي أنّ الباي محمد الكبير أوقف اوقافا كثيرة على الجامع الأعظم بمعسكر بما في ذلك الحمام الرائق بناء وشكلا وحدائق ودورا وحوانيت وفرنا، واوقف عليه أيضا خزانة كتب بنى لها بيتا بجوار الجامع[12].

واللوحة التذكارية المنقوشة على أحد جدرانه تبين هذه الأحباس

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا بيان محبسات السلطان، ابن السلطان السيد محمد باي بن السيد عثمان باي رحمه الله على الجامع الأعظم الكائن في حومة سيدي علي بن محمد الذّي أنشأه وشيده مع مدرسة الحايطة ودار الوضوء الغربية منه مع الجبانة المحاذية له أيضا، الاول من ذلك جميع الدار المجاورة للمسجد المذكور المتلاصقة بالمطاهر وباصطبل حاجي، ثمّ جميع الحمام الكائن بقرب المسجد أيضا، المحدود بالطريق الذاهبة الى المدينة وسي علي بن محمد، ومن الجهة الغربية بزنقة سيدي علي بن عبد القادر، ومن الجهة الشرقية بالزنقة الذاهبة الى فرن الحمّام المذكور ثمّ بحيرة قريبة من الجامع أيضا المعروفة ببحيرة سيدي محمد الوهراني المجاورة لبحيرة الحبس وللجبانة المذكورة منتهية الى الطريق الصاعدة من عين البيضاء الداخلة الى المدينة ثمّ أربعة عشر حانوتا المكتنفية برحبة الزرع ثمّ حانوتين من دار بوضربة الشاوش ثمّ حانوتا مجاورة لدار مصطفى هروال ملتصقة بها ثمّ حانوتا داخل درب

12 - Leclere ,ch . op .cit ,p 43 - 45

اليهود مجاورة لدار اللحم ثمّ جميع الدار المعروفة بدار ميمون اليهودي المجاورة لدار عيوش ثمّ رحاء الماء التّي في واد بوعبيدا المجاورة لبحيرة أولاد مولاي ثمّ على جميع الدار الكائنة في مدينة الجديدة المجاورة للكوشة الملتصقة بها الشهيرة بدار الورديان...

ثمّ ثلاثة حوانيت بدار الدباغ العائدة لسيدي علي بن محمد المحدودين من جهة الغرب بالواد ومن جهة القبلة بالطريق ثمّ ماء عين رحمة المشتري على سي عدا بن الحاج أحمد بن محمود ثمّ الماء المشتري على سي عثمان بن حدو علي اولاد سيدي محمد بن علي القاضي وورثة اولاد التونسي كافة ثمّ الكوشة المجاورة لجامع البلوط الملتصقة فيه[13]".

وعليه، تمكننا هذه اللوحة المنقوشة من إحصاء ثلاثة دور، وحمام واحد، وبستان واحد، ورحاء ماء واحدة، وأحد وعشرين حانوتا، وكوشة (فرن لتحضير الخبز) واحدة، ومنبعين مائيين، كلّها هي أملاك للباي محمد الكبير، اوقفها على الجامع الأعظم وأمر بتسجيلها على الجدران حتى يطّلع عليها جميع النّاس وتصبح خالدة في التّاريخ، وتقطع الطريق على الذّين تمرسوا التحايل، أو نهب الأوقاف، ويظهر أنّ هذا الجامع قد أصبح من أغنى الجوامع في بابليك الغرب، فقد أشار ابن سحنون الى أنّ غلات أحباسه كانت تكفي جميع وظائفه ولوازمه، وتفضل منّها فضلة تدخر له، ولما اتسعت وظائف الجامع الأعظم، أردف الباي محمد الكبير فندقه الجديد بأحباسه [14].

6 - تشجيع حركة النسخ والتأليف

شاعت حركة النسخ في الجزائر قبل وأثناء العهد العثماني، فقد تميّز الناسخون قبل مجيء العثمانيين بجودة الخط، وحسن اختيارهم الورق، وإتقان صناعة الوراقة، والسرعة، والمهارة في التوثيق والدّقة في العمل والصّحة في النظر، وكان الخط

13 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص : 149.

14 - المصدر نفسه، ص : 92 -94.

الشائع هو الخط الأندلسي المعروف اليوم بالخط المغربي، وبعد استقرار العثمانيين بالجزائر، أصبحت حركة النسخ تتمّ بخطين : الأندلسي والعثماني، لكن الأول طغى على الثاني لأنّ اللّغة العثمانية كانت لغة الإدارة والمعاهدات والرسائل الدّولية بالدرجة الأولى .

وقد سهلت مهمة الناسخ نسبيا في العهد العثماني إذ أصبح يقتني كتبا صمّاء، مجلدة من سوق الوراقين، وعادة ينسخ الناسخ لنفسه لإثراء مكتبته الخاصّة، مثلما كان عليه " الشيخ محمد الزجاي " بتلمسان، وإمّا أنّ ينسخ لأستاذه، أو لأميره مثلما فعل الناسخون للباي محمد الكبير، وبشأن حركة التأليف، كانت هي الأخرى حيّة ونشيطة في العهد العثماني، ولا نكاد نجد عالما إلاّ وله قائمة من المؤلفات، عبارة عن شروح وحواشي، وتقاييد وتعاليق ورسائل وفهارس في علوم عدّة، تتصدرها العلوم الشرعية، وأيضا في التآليف ذات الأجزاء، وعادة ما يجمع المدّرس الأستاذ دروسه التّي شرحها لطلابه في كتاب[15].

وعليه، يعدّ الباي محمد الكبير من أشهر البايات الذّين شجعوا هذا العمل الثقافي الجاد إذ أمر باختصار الكتب المطولة، ونسخ المخطوطات النّادرة النفيسة، وبعث التآليف في علوم شتّى مع تكريم القائمين بذلك من الطلبة الأكفاء، وكتابه الخصوصيين وعلمائه النزهاء، إذ كان يجيز كلّ واحد منّهم بسخاء حسب عمله وجهده، وفي هذا السياق كتب ابن سحنون الراشدي : " وكم من تأليف نشأ بأمره ونال مؤلفه به وافر بره "، ثمّ كتب : " كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منّها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه[16]".

إذن، سجّل الباي محمد الكبير في تاريخه إصلاحا ثقافيا غايته الأسمى إعادة بعث الشريعة الإسلامية الصحيحة والسليمة من الخرافات والأباطيل التّي عشعشت

---

15 – ابو عبدلي المهدي : اضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي، مجلة الأصالة، العدد ٠٨ السنة الثانية، جمادى الأولى 1392 هـ / ماي – جوان 1972، ص : 273 – 274.

16 – نفسه، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، مجلة الأصالة، العدد 13، ربيع الأول 1393 هـ / مارس 1973، ص : 27.

في ظلّ تفشي الأميّة والجهل، وإعداد رجال المستقبل، يطبعهم التنوير، والخلق الإسلامي الأصيل، قادرين على مواجهة تحديات القرن الثامن عشر وبعده .

وفعلاً، أ ثمرت جهوده الثقافية، إذ أعدّ رجالا سمّتهم المصادر التّاريخية العربية بالطلبة، كانّوا وراء تحرير وهران عام 1792م، فمثّلوا عندئذ جيشا عربيا من المثقفين، قواده العلماء الأخيار، وقائدهم الأكبر محمد الكبير، وسلطانهم محمد باشا ثمّ خليفته حسن باشا، وما يمكن الإشارة إليه هو غياب الحرص على تحقيق الوحدة التعليميّة، فكلّ مدّرس يدّرس ما شاء من الدروس، وبطريقته الخاصّة، فاختلفت حينئذ الدروس من مسجد إلى آخر، وغاب أيضاً التدرج التعليميّ، وتحقيق الموازنة بين مختلف العلوم، وبالتالي لم يغيّر الباي محمد الكبير شيئاً في منهجية التعليم والتعلّم، واكتفى بالتركيز على الجانبين : الدّيني واللّغوي، والعالم يسير نحو تطور علميّ وتقنيّ، وإلى جانب ذلك لم يضع الباي محمد الكبير خطّة لبعث حركة التأليف الأدبيّ والعلميّ، فكلّ ما أتى به هو الأمر باختصار المؤلفات المطولة وجمع بعض الأبحاث المنجزة سابقا، وتدوين مسيرته العسكريّة، وما لوحظ أنّ هذا الجهد الثقافي لعلماء الباي محمد الكبير قد نضب بعد تحرير وهران عام 1792 م، ولم نعد نسمع بإنجاز مؤلف تحت إشراف الباي محمد الكبير، الأمر الذّي يدفعنا إلى التساؤل : هل توقفت فعلاً حركة التأليف عقب فتح وهران ؟ ولماذا ؟ أم أنّها استمرت وضاعت في خضم المشاكل السيّاسية العويصة التّي عرفها البابليك الغربي خاصّة، والجزائر العثمانية عامّة ؟

الفصـل الثاني

تيارات التصوف والوقف

1 - تيارات التصوف

مقدمة

يندرج هذا المشروع في إطار البحث حول تاريخ الجزائر الثقافي في العهد العثماني، وذلك أنه يكتسي أهمية بالغة نظرًا لعلاقته الوطيدة، والهامة بالتراث الحضاري الجزائري.

ولا يخفى على الباحثين، أن كتاب الدكتور أبي القاسم سعد الله حول تاريخ الجزائر الثقافي، يعتبر ذا أهمية بالغة، ومساهمة هامة في كتابة تاريخ الجزائر الحضاري.

وبالرغم من أن بعض الدراسات قد أنجزت حول بعض الأدباء، والعلماء الجزائريين[1]، إلاَّ أنها تبقى مساهمة جزئية لا تسمح بإبراز فكرة واضحة عن تطور الحياة الثقافية الجزائرية.

ويلاحظ أن الفراغ في البحث العلمي، حول هذا المجال سيسمح لكثير من مؤرخي الإستعمار، منذ بداية الاحتلال الأوروبي لأقطار الشمال الإفريقي بعض التيارات والأفكار المسبقة في هذا الشأن، أقل ما يقال أنها عبارة عن تطورات لا تعتمد على بحث علمي، ولم تفرزها إلاَّ نظرة سطحية متسرعة، لا يمكن الأخذ بها، وقبولها بدون دراسة علمية معمقة.[2]

والإشكالية المطروحة تخص المظاهر الحضارية لهذه الفترة الطويلة (1518-1830)[3]، وهل أن هناك مشروع ثقافي اهتم به العثمانيون في الجزائر؟ وكيف تعاملوا مع ما وجدوه من الإرث الثقافي؟ وكيف نظم العثمانيون الأوقاف الإسلامية؟

---

1 - أبو القاسم سعد الله: إجازة ابن عمار الجزائري للمرادي الشامي،مجلة الثقافة - العدد 45، ص: 19.

2 - عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، مخطوط.1 رقم: 26، ورقة: 12.

3 - عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، ص:119.

كل هذه الأسئلة أو الإشكاليات التاريخية تندرج في مدى أهمية المستوى الحضاري الذي عرفته ثقافة المجمع الجزائري، وذلك أن تعرف على أن هذا التطور يتطلب العثور على مقدار كافٍ من الإنتاج الثقافي لهذه الفترة.[4]

والظاهر أن نظرية الكثير من المؤرخين الأجانب، لم تعتمد على دراسة هذا الإنتاج الثقافي. ويبدو أن معالجة هذه الإشكاليات تقتضي تجنب قياس تطور الحياة الثقافية بالغرب العربي[5] على ما هو معروف من التطور في المشرق العربي، وهذا الاختلاف الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية بين المنطقتين.

وباختصار ينبغي رسم الضوابط العلمية التي تمكن من التمييز بين مراحل التطور الثقافي بالجزائر، وأهمها اعتبار الإنتاج العلمي الأدبي عبر العصور، وعدد العلماء والأدباء، ووفرة المؤسسات التعليمية أو قلتها[6].

واعتماداً على هذه الضوابط والمعطيات، فإن الغرض من إختيار موضوع الأوقاف الإسلامية في الجزائر، ودور العثمانيين في تنظيمها وإبرازها إلى الوجود، هو الدافع الذي يمكنني من القول بأنها تمثل عهد الإزدهار الثقافي العربي الإسلامي بالجزائر.

كانت الأوقاف الإسلامية في الجزائر في فترة العهد العثماني تبلغ نحو 66٪ من مجموع الأملاك العقارية والزراعية[7] والسبب في ذلك راجع إلى شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد وأضرحة الأولياء، أندية العلم عامة، والحرمين الشريفين خاصة[8].

وكانوا يديرون هذه الأموال بمهارة وكفاءة بواسطة إدارة أهلية ولم يكن أحد يشكو يومئذ فقراً لأن جميع الفقراء كانوا يأخذون حصتهم من خيراتها.

---

4 – المفتي الجزائري ابن العنابي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1977 ص: 76.

5 – أبو القاسم سعد الله: نفسه، ص: 96.

6 – أبو القاسم الحفناوي: (تعريف الخلف، برجال السلف، ص: 145.

7 – حسين خوجة: (بشائر أصل الإيمان) الطبعة الأولى،الجزائر 1985، ص: 113.

8 – الجبرتي: (عجائب الآثار) الجزء الأول، الجزائر، ص: 166.

وهكذا استمرت الجزائر سعادة من العيش أيام عزّها ومحبها حتى استولت فرنسا على هذه البلاد يوم 05 جويلية 1830، وعندئذ تطلعت إلى تلك الخيرات فحاولت انتزاعها من أيدي أصحابها ولكنها وجدت شروط الواقفين حائلة بين الفرنسيين[9] وبين ما يشتهون، فخلقوا مسألة التداخل في أمورها بحجة التنظيم والإصلاح [10].

وعلى كل فإن الفترة الأولى من الحكم العثماني للجزائر، إمتازت بشيوع العمران[11]، وتطور الزراعة، وكان ذلك نتيجة للظروف الملائمة المتمثلة في أرباح الجهاد البحري، التي مكنت كثيرًا من الحضر والأتراك حيازة الضياع خارج مدن الجزائر والإنتقال إليها.

ومنذ أواخر القرن 18، وذلك نتيجة سوء تصرف الحكام وانعدام الأمن، وشيوع الاضطراب، والذي إرتبط بظهور الأمراض الفتاكة الآفات الطبيعية[12] المدمرة.

وبعد تناقص سكانه، وبقيت مساحات كبيرة منه بدون استغلال، حيث تحول جزء هام من ملكياته إلى مؤسسة الأوقاف.

كانت الأوقاف موجودة في الجزائر، كما كانت في بقية البلاد الإسلامية[13] وهي كما نعلم، حبس مال أو أراضي ونحو ذلك، تصرف منفعة على الفقراء، وخدمة الدين والعلم.

وقد لعبت دورًا معتبرًا في الفترة العثمانية [14]، وخاصة في مجال التعليم ونشر الثقافة، وهي نوعان: الأوقاف الخاصة أو العائلية والعامة[15]. ويحسبها أهل الخير لأغراض خيرية دينية مثل التي تخصص للتعليم، والعناية بالحج وإصلاح المساجد ومساعدة الأيتام.

---

9 - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 145

10 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي- الجزء 2، ش و ن ت 1981، ص: 119.

11 - محمد بن أبي شنب: وصول صحيح البخاري إلى أهل الجزائر، 1905، ص: 119.

12 - جليس الزائر وأنيس السائر: منسوب لأحد أفراد عائلة تدورة مخطوط.

13 - العياشي: الرحلة ،ع: 02، ص: 128.

14 - الدرعي: الرحلة: مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم: 1957، ورقة: 99 - 104.

15 - جاك بيرك: دراسة عن النوازل، ص: 23.

كانت الأوقاف العامة كثيرة، خاصة بمدينة الجزائر، حيث قدر عددها عشية الإحتلال بـ 2600 ملكية[16]، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران، ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي:

أ - أوقاف مكة والمدينة (وهي أهم الأوقاف على الإطلاق ،لأن دخلها يساوي 3/4 كل مؤسسات الحبس حيث بلغ دخلها سنة 1830 (41364ف) وكان يقسم غلي جزءين، جزء يبعث على فقراء مكة والمدينة، وجزء آخر يوزع على شكل صدقات لفقراء مدينة الجزائر كل خميس)[17].

ب - سبل الخيرات (تأسست سنة 1584، وهي عبارة عن هيئة دينية، تشرف على 08 مساجد بمدينة الجزائر[18]، تابعة للمذهب الحنفي).أخرى

جـ - الجامع الكبير (يشرف على أوقافه المفتي المالكي ويساعده في وظيفته ثلاثة ركلاء).

د - الزوايا (وهي كثيرة جداً في مدينة الجزائر، وكل زاوية تحتضن ضريح صالح، يأتيها الزوار من كل جهة ليشركوا بدفنها، ويقدموا لها الهبات المختلفة، وعددها 19 زاوية لكل منها ملكيات مختلفة.) [19]

هـ - أوقاف الأندلس[20] (تأسست هذه الأوقاف سنة 1601 لفائدة النازحين من الأندلس، أيام ظهور حركة الإسترداد المسيحي بإسبانيا، وقد ساهم في تكوينها الأغنياء من المهاجرين لإغاثة مسلمين الأندلس[21].

و - الإنكشارية (كانت تملك سبع ثكنات، وكل ثكنة مقسمة إلى 100 حجرة وكل حجرة تكون هيئة دينية بيدها ممتلكات يشرف عليها وكيل الحجرة).

---

16 - الوزير السراج: الملل السداسية في الأخبار التونسية، الجزء ص 284.

17 - أحمد بابا التمبكتي: الابتهاج بتطوير الديباج، ص: 197.

18 - المنهاج: مجلة، ص 12.

19 - محمد الطاهر التليلي: إتحاف القاري، مخطوط، رقم: 1607، ورقة: 36.

20 - المجلة التاريخية المغربية، عدد: 7، تونس 1977، دار الكتب المصرية.

21 - محمد داود: تاريخ تطوان: القسم الأول، المجلد 3، ص 157 الدار المصرية 1962.

ن – المياه (إن فتح العيون، كانت من الأعمال الخيرية ولها إدارة خاصة يسيرها أمين العيون)[22].

ز – الطرق (كانت للطرق ملكيات، يعود دخلها لإصلاح الطرق)[23].

المصادر المالية لهذه المؤسسات الدينية:

تعتمد هذه المؤسسات الدينية من الناحية الإقتصادية على مصدرين هامين ورئيسيين:

المصدر الأول

الإعانات التي يقدمها لها المحسنون من الأثرياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية (حبوب وزيوت) وحيوانات، وأدوات وألبسة ومفروشات وغيرها، وذلك بصفة دورية [24].

المصدر الثاني

أموال الحبس[25] والأوقاف الإسلامية التي يوقفها عليها الأشخاص بالهيئات الخيرية والجماعات،وبعض الولاة والأمراء، وتتنوع إلى أراضي زراعية، وحقول الأشجار المثمرة والغلال كالزيتون والتين والخروب والحيوانات الحلوية، والمحلات التجارية، والحمامات المعدنية بالأرياف وغير المعدنية في المدن، تدر عليها الأموال اللازمة للصرف على إحتياجاتها المختلفة، كالتغذية، والإنارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة، والإنفاق على طلبة العلم والعلماء، والفقراء وإجراء الإصلاحات المطلوبة للمؤسسة[26].

---

22 – مارسيل بودان: مجلة جمعية وهران، 1933، ص: 237.

23 – لوسياني: السلم، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، 1971، رقم 662، ورقة 37.

24 – محمود بن حوا: زهر الآداب، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 893، ورقة 56.

25 – الورتتي: الرحلة، ص: 119.

26 – أحمد بن عمار: نحلة اللبيب، ص: 50.

وتتفرد الزوايا بمصدر ثالث يتمثل في أموال الزيارات والوعادي [27] التي يقدمها إليها زوارها من الأخوان[28] والإتباع والمريدين، على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة تختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب إختلاف أهمية الزائرين ومصادر أموالهم وثرواتهم، ومدى حبهم وتقدرهم للزاوية وشيخها.

وبفضل هذه الأموال والصدقات المتنوعة، تتولى هذه المؤسسات وخاصة الزوايا والمعمرات الإنفاق على طلبة العلم وحفاظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها، وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ويمكن إبراد نموذج لأملاك هذه الزوايا والمعمرات [29] بأملاك زاوية الحداد في صدوق، وزاوية كرزاز في الجنوب الوهراني.

أملاك زاوية الحداد بصدوق

كانت زاوية الحداد تنفق على ما بين 200 و500 طالبًا بصفة دائمة ويعد زوارها بالآلاف كل سنة، وتبلغ مساحة أملاكها العقارية 502 هكتار و52 آرا، وتحتوي على الأملاك التالية:

- 62 ضيعة فلاحية للحبوب، والغلال البعلية[30] خاصة التين والزيتون.
- 06 بساتين مسقية (الخضر، والفواكه.)
- 14528 شجرة مثمرة أغلبها زيتون والباقي تين وبرتقال وتفاح وأجاص.
- 06 أحواش تحتوي على 41 غرفة وبيتًا.
- 15 دكانا ومخزنا للتجار.
- 03 إصطبلات.

---

27 - إجازة ابن عمار المرادي، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد 45، الجزائر 1978.

28 - أبو القاسم سعد الله: أشعار ومقاربات ابن حمادوش الجزائري، مجلة الثقافة، عدد 49، ص: 63.

29 - أبو القاسم سعد الله: نفسه.

30 - فيرو: المجلة الإفريقية، 1828، ص: 245.

- 03 رحاوات.
- 01 معصرة زيتون
- 01 مسجد

أملاك زاوية كرزاز

- 2270 رأس غنم
- 393 معزة
- 340 جمـلاً
- 73 حمارًا
- 19 حصانا
- 396 عبدًا زنجيًا[31](عبيد الخدمة)
- 10 نخلة (أشجار مثمرة)
- 08 بنادق (أسلحة للدفاع).

وبالرغم من أن الأتراك، كانت متابعتهم العلمية تنقص تفوقهم العسكري[32] فإن الجزائريين بقي إرتباطهم بالدين الإسلامي، والثقافة الدينية وثيقا ظلوا على مرّ العصور يبنون المساجد، ويتنافسون في إلحاق المدارس القرآنية بها ويتفاخرون في ترسيم العلماء الأفذاذ فيها.

وكان طلبة العلم في فترة العهد العثماني، لا يتقدمون إلى حلقة الدرس إلاّ بعد حفظهم للقرآن، وكان من نتيجة ذلك أن الروح الدينية تسود الجميع وتستولي على مشاعرهم. فيتربون على البطولة والرجولة ودماثة الأخلاق مع التزود بنصب وافر من علوم الدين [33] والعلوم التي تتطلبها الحياة في ذلك العصر.

---

31 – فيرو: نفسه.

32 – فرج محمود فرج: قوات في القرنين 18 و19: قسم التاريخ، خاصة الجزائر.

33 – أبو القاسم سعد الله: مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 12، الجزائر 1974.

ومن هؤلاء الأمير عبد القادر الجزائري [34] (رحمه الله) فهو صورة طبق الأصل لعلماء وقته فنحن عندما نطالع كتابه "المواقف" نجده صوفيا يذكرنا بإبن العربي وغيره، وإذا طالعنا كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"[35] نجده عالمًا مجددًا يساير متطلبات عصره ويبحث في العلوم.

وعليه فقد كانت الجزائر قبل الإحتلال الفرنسي تتمتع بما يتمتع به العالم العربي والإسلامي في ذلك الحين من معارف وعلوم وثقافة وهذه عينات أو شهادات لبعض الفرنسيين حول الحياة الثقافية قبل الإحتلال.

-ذكر بعضهم أن الأمية كانت منعدمة تقريبًا في الجزائر وذكر غيره أن سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا وذكر آخر أن نسبة الأمية في الجزائر كانت في عام 1830 أقل منها في فرنسا[36].

ولقد ثبت أن المدارس كانت منتشرة بكثرة في المدن، وكانت تعيش من موارد الأوقاف، وفي الأرياف كانت الزوايا تقوم مقام المدارس حيث كانت تضمن للطلبة نظامًا داخليا يعفيهم من تكاليف ونفقات المأوى والملبس والمسكن والمأكل، وقد لعبت هذه الزوايا في ذلك الحين دورًا أساسيًا في نشر الثقافة، فأوجدت نوعًا من التوازن بين المدن والأرياف[37].

ولقد كانت الثقافة في ذلك العصر متأثرة إلى حدّ بعيد بما كانت عليه في كل البلاد العربية الأخرى من تقلص وانطواء رغم أن بعض المؤرخين الفرنسيين ذكروا أن المعاهد العلمية العليا[38] في الجزائر كانت تدرس إلى جانب العلوم الفقهية واللغوية وأصول الشريعة وعلم الكلام، علوم الرياضيات والهندسة والفلك والفيزياء، واشتهر كثير من هذه المعاهد في مدن الجزائر وتلمسان وبجاية وقسنطينة، وسيدي عقبة وميزاب وجرجرة والمسيلة والبرج وبوسعادة [39].

34 - أبو القاسم سعد الله: نفسه.

35 - نفسه: ص: 36.

36 - نفسه: ص 40.

37 - أحمد الهواري : دليل الحج والسياحة، مجلة، ص: 293.

38 - ديفوكس: المؤسسات الدينية، ص: 220.

39 - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ن. محمد العربي الزبيري، الجزائر 1975، ص: 87.

ولقد جاء في صفوة الاعتبار للشيخ بيرم عند ذكر الجزائر وعلمائها قال "ومن الأخبار الذين اجتمعت بهم ومنحوني فضائل أخقهم التحرير العالم الشيخ علي بن الحفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر، وهو من تلاميذ علامة القطر الإفريقي الشيخ إبراهيم الرياحي كما أخبرني بذلك عن نفسه وله فضائل كاملة وتقوى وسكينة وإطلاع وسمعة في الفقه والحديث وذاكرني في الهجرة فذكرته بأن مثله قليل الوجود في ذلك القطر، وأن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع للعامة، وله عند الله من خروجه برأسه وأن بقاء تلك الأمة المسلمة خالية من مثله بل ربما حمل خروجه غيره ضمن هو على شاكلته على الخروج، فتبق العامة بلا تعلم لديانتهم، وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئًا بخلاف ما إذا بقي هو وأمثاله فإنه تنتشر تعاليم الإسلام والفقه وتبقي الديانة محفوظة في الأهالي، وذلك المنصوص عليه في كتب فقهنا[40].

ومن خلال هذا العرض البسيط، فقد ازدانت الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر إبان الحكم العثماني بظهور تيارات صوفية منها ما هو نابع من السلوكات اليومية كل حسب زهده وقناعته في التصرف، ومنها ما هو عبارة عن تيارات فكرية اشتقت أفكارها من نظريات صوفية فلسفية مشرقية، وهذه التيارات تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

تيار التصوف السني [41] وتيار التصوف السني الفلسفي، وتيار التصوف الفلسفي وكل تيار يضم عددًا من الاتجاهات نبرزها كالتالي:

1 - تيار التصوف السني

تميز هذا التيار بالتزامه بالقرآن والسنة وأخلاق السلف الصالح، والابتعاد عن الخوض في القضايا السلفية كالحلول والاتحاد والوحدة والإشراف.

---

40 - نفسه: ص 113.

41 - نفسه: ص 115.

2 - تيار التصوف السني الفلسفي [42]

هو تيار إلتزم صوفيته تعاليم القرآن والسنة، ونزعوا إلى كشف حجاب الحسن لإدراك الحقائق الإلهية، واكتساب العلوم الدينية.

3 - تيار التصوف الفلسفي [43]

هو تيار يخضع إلى المجاهدات كالتقشف في المأكل والملبس والصيام والتهجد أن كل الاتجاهات الصوفية في الجزائر، كانت تقف موقفا عدائيا إزاء واهر الشعوذة والخزانات.[44]

أما دورهم الديني فقد تجلى في نوعية العامة بأمور دينها في المساجد والروابط والزوايا، فضلاً عن كونهم يعملون على تعريف الدين الإسلامي في البوادي والأرياف، وإلى جانب هذا أدوا دورًا في تسهيل مأمورية الحج، ومساعدة الفقراء الذين عجزوا عن أداء فريضتهم الدينية[45] ودون أن ننسى أثرهم في حركة الجهاد ضد الغزو الفرنسي، من خلال الإنتفاضات الشعبية،[46] أو ما يعرف بالمفاوضات الشعبية التي خاضها رجال التصوف، والزوايا، دفاعًا عن الإسلام والوطن.

وبعد هذه الجولة في دور الأوقات الإسلامية بالجزائر، في عهد العثماني نستطيع أن ننتهي إلى بعض النتائج البارزة:

1 - أول ما ألاحظه حيوية فكر الجزائري، فبالرغم من الركود الذي أصاب العالم الإسلامي قبل احتلال فرنسا للجزائر، فإن بعض الجزائريين كانوا يتفاعلون مع أحوال عصرهم ويهتمون بأحوال مجتمعهم، وأحيانا كانوا يسبقون ذلك العصر

---

42 - نفسه: ص 211.

43 - فيرو: المجلة الإفريقية 1868، عدد 36، ص: 421.

44 - عبد الحميد حاجيات: مجلة الثقافة، العدد 119 وزارة الاتصال والثقافة الجزائر، ص: 136.

45 - نفسه.

46 - نفسه.

ببعض الأفكار اللامعة سواء في ميدان العلوم أو الآداب[47].

2 - مما يلفت النظر حقا هو أن معظم المفكرين الجزائريين كانوا في الواقع مجاهدين مدافعين عن أرضى الإسلام الممثلة بالدرجة الأولى في بلادهم الأصلية [48] مثل الشيخ أباراس الناصري، والأمير عبد القادر، والشيخ الحداد، وحمدان خوجة.

3 - إن الإحتلال قد زاد الفكر توترًا، غير أنه في النهاية استطاع أن يضرب على أيدي ممثلية بالنفي والتعريب وإضعاف الثقافة ،وبذلك تشتق الجهود وأوقف تيار الإنتاج في الجزائر فترة من الزمن، حتى ظهرت طبقة جديدة من المفكرين عن فاتح القرن الحالي اتخذت أسلوبًا جديدًا في معالجة القضايا العربية الإسلامية.

وبعد فإن إنجازنا المشروع بحث في هذا المجال، يندرج في إطار عملية تجديد كتابة التاريخ الجزائري، إعتمادًا على منهجية علمية سليمة، وعلى معطيات جديدة، وعلى نظرة جزائرية مستقلة لا تخضع لتأويلات الأجانب المفرضة وذلك حلمنا الذي نأمل أن يتحقق في مستقبل غير بعيد[49].

---

47 - نفسه.

48 - المجلة التاريخية المغربية، عدد 08، تونس 1977، دار الكتب المصرية.

49- محمد بن أبي شنب: وصول صحيح البخاري أهل مدينة الجزائر، ص:161 الجزائر 1905.

2 - الوقــف

تعريف الوقف

هو عقد لعمل خيري ذي صبغة دينية، يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرع بما يملك من ذات أو منفعة، على وجود الموقوف وهو المنفعة التي تصرف عل سبيل الحبس، فضلاً على توفر الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف تلك الذات أو المنفعة، ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية وغيرها، هذا مع اشتراط صيغة الوقف، ولو كانت الصيغة تتعلق بمسجد أو مؤسسة خيرية. [1]

وبما أن مؤسسة الأوقاف تعتبر مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية،للفترة العثمانية الممتدة من 1518 إلى 1830 في الجزائر،فإن دراستها تستلزم طرح عدة تساؤلات من أهمها

أ - كيف تعامل العثمانيون مع هذا الإرث وما هي النظم القانونية التي قدمها العثمانيون بخدمة وتوسيع، وإثراء الأوقاف الإسلامية بالجزائر في الفترة العثمانية الحديثة.

قبل الإجابة على هذه الإشكاليات التاريخية ،لا بد لنا من إلمامة تاريخية في موضوع الوقف في الجزائر، ودوره في الحياة الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية والتأثير الديني على مجريات الأحداث والتقلبات السياسية التي عرفتها الجزائر منذ دخول العثمانيين إليها.

إن أهمية التعرف على مؤسسة الأوقاف في الجزائر، تعود إلى المكانة المرموقة التي إكتسبتها مؤسسة الأوقاف في العهد العثماني، وإلى التأثير الذي كان لها على مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والإجتماعية والثقافية.

فقد كانت مؤسسة الأوقاف تتكفل بسد حاجات المشتغلين بالتعليم من فقهاء ومعلمين وطلبة، وتغطي نفقات القائمين على المساجد والمدارس والأضرحة والزوايا وتمديد المساعدة للمحتاجين والغرباء وأبناء السبيل، وتخفف من شقاء

المعوزين والفقراء، وتتعهد أماكن العبادة والتعليم بالصيانة والإصلاح، هذا بالإضافة إلى أنها كانت أداة فعالة في تماسك الأسرة وفي المحافظة على حقوق الورثة والقصر والعجزة، وعاملاً للحدّ من المظالم والأحكام التعسّفية المترتبة على قرارات العزل والمصادر والتغريم،والتي كثرًا ما كانت تستهدف الاستحواذ على أملاك وإلغاء حق ملكية أصحابها في حالة عدم وقفها وقفًا خيريًا على إحدى المؤسسات الوقفية[2].

وتعتبر الفترة العثمانية في الجزائر (1518–1830) ذات مدلول تاريخي هام حيث أن الأوقاف عرفت إنتشارًا واسعًا بفعل الوازع الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي، كما عبرّ عنها الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني من خلال المشروع التاريخي الطموح حول كتابة، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر في الفترة العثمانية.

وقد ظلت الأوقاف أو الأحباس كما تعرف في أقطار المغرب العربي،بإعتبارها تقليدًا إسلاميًا، تشكل إحدى مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، التي تميز بها العهد العثماني بالجزائر، وتأثرت بها أوضاع البلاد الجزائرية.

وضعية الأراضي بالمغرب العربي أثناء العهد العثماني

لم تطرأ أي تغيرات جذرية أو تحولات عميقة على وضعية الأراضي ببلاد المغرب طيلة العهد العثماني، فقد دأب حكام إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب من الأتراك، وكذلك السلاطين السعديون والعلويون بالمغرب مع إختلاف أوضاعهم وتباين سياستهم على إبقاء وضعية الأرض كما كانت عليها في القرن 10هـ/16 م، فلم يقوموا بسّن تشريعات خاصة ولم تستحدثوا إصلاحات ذات شأن فيما يخص الملكيات الزراعية، وبرغم التأثيرات العثمانية في مجال الإدارة والحكم، بل عملوا جاهدين على الاحتفاظ بالأوضاع السائدة، فأبقوا في غالب الأحيان

1 – ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، ط.2001، الجزائر، ص: 230.

2 – ناصر الدين سعيدوني: نفسه، ص: 206.

ملاك الأراضي، وأقروا العشائر المتعاملة معهم على الأراضي التي إستحوذوا عليها بغية الحصول على تأييد شيوخ القبائل، ومسائد رؤساء الزوايا لهم، ولم يهتموا بصفة خاصة إلاّ بما تدره الأرض من إنتاج وما توفره من جبايات.

وبالتالي فإن التطور الذي إنتهت إليه وضعية الأرض من إنتاج مطلع القرن 19 لم يكن نتيجة لسياسة معنية من طرف الحكام، وإنما كان نتيجة تحول بطيئ فرضته الأحوال الإقتصادية وساهمت فيه الأوضاع الإجتماعية، وتسببت فيه حاجة الحكام إلى موارد البلاد إثر تزايد الضغط الأوروبي على السواحل وانفتاح البلاد المغربية على التجارة الأوروبية.

والجدير بالملاحظة أن بعد تفحصنا لجملة من وثائق الأرشيف الجزائري، تبين لنا أن وضعية الأراضي الموقوفة مثل، فحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني أنها كانت تتوزع على ثلاث مجموعات:

-الأولى تشمل على وثائق المحاكم الشرعية.

-الثانية تتضمن سجلات البابليك.

-الثالثة تتمثل في دفاتر بيت المال.

ولأهمية هذه الوثائق في البحث، رأينا من المفيد التعريف بها، وتوضيح أهميتها مع الإشارة إلى ما تم من دراسات فرنسية حديثة حول الأراضي الموقوفة وما يتصل بها من قضايا.

بعد هذا يمكننا القول أن تحديد طبيعة الأراضي الموقوفة سواء كانت وقفًا أهليًا أو وقفًا خيريًا يعود إلى المصلحة العامة، مع ذكر ما يتميز به كل نوع.

أما ما يخص الأراضي الموقوفة وقفًا خيريًا فإنها نمثل اللجنة الأساسية لأهم المؤسسات الخيرية التي تعود إلى تلك الأراضي الموقوفة كالحرمين الشريفين (مكة المكرمة - والمدينة المنورة). وسبل الخيرات، والجامع الكبير وباقي مساجد المذهب المالكي، مؤسسة بيت المال.

الوقف الأهلي بفحص الجزائر

ساعدت على إنتشاره عدة عوامل منها إجماع العلماء على الإفتاء حسب المذهب الحنفي الذي يقر الوقف الأهلي تشجيعًا للوقف وترغيبًا في الأجر، وهذا ما أشار إليه حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة بقوله: "أن الفقهاء قد اجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي يجوز جمع الهبات المشروطة ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء[3].

أوقاف مؤسسة بيت المال

تعتبر مؤسسة بيت المال من التقاليد العريقة للإدارة الإسلامية بالجزائر، التي تدعمت في العهد العثماني، وأصبحت تتولى إعانة أبناء السبيل واليتامى والفقراء والأسرى، وتتصرف في الغنائم التي تعود للدولة، كما تهتم بشؤون الخراج وتحرص على شراء العتاد، وتشرف على إقامة المرافق العامة من طرق وجسور.

وتشييد أماكن العبادة من مساجد وزوايا، كما كانت تهتم بالأملاك الشاغرة التي ليس لها ورثة فتضعها تحت تصرف الخزينة العامة، بإعتبارها إملاكا للجماعة الإسلامية، وكذلك تتولى تصفية التركات وتحافظ ثروات الغائبين وأملاكهم كما كانت تقوم ببعض الأعمال الخيرية مثل دفن الأموات من الفقراء وأبناء السبيل ومنح بعض الصدقات للمحتاجين، وهذه المهام الأخيرة هي التي أصبحت تشتهر بها وتختص بها أواخر العهد العثماني.

ويمكننا القول أن طبيعة الأراضي الموقوفة بفحص مدينة الجزائر، من حيث كونها ظاهرة اجتماعية إسلامية عريقة، عرفت توسعًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا بالجزائر في فترة الحكم العثماني، لاسيما ما يندرج منها ضمن الوقف الأهلي الذي يقره المذهب الحنفي، ولا يأخذ به المذهب المالكي، وذلك يكون هذا الصنف من الوقت كان يلبي الحاجات الاجتماعية والمتطلبات الاقتصادية، وليتماشى

---

3 - حمدان خوجة:المرآة، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، 1976، ص:237.

والضرورات الظرفية مما أوجد حلولاً ملائمة لتسيير المصالح الإدارية والثقافية والدينية ولسد حاجة المعوزين والفقراء والمحرومين.

ومما يلاحظ أن الأوقاف بفحص مدينة الجزائر تميزت بصفة خاصة وذلك لكونها باعدت إلى حد كبير على تدعيم سيطرة سكان الجزائر على أهالي الفحص، من الفلاحين، وأدت كذلك إلى اختفاء الملكيات المشاعة أو التابعة للبابليك.

والجدير بالملاحظة أن طبيعة المعلومات التي توفرها وثائق الوقف، والتي تتحكم بصفة مباشرة في مجال الدراسة ومواصفات البحث، ففي هذا الصدد نجد أن جل المعلومات التي تتوفر عليها أحكام الوقف تخص مسائل التالية:

أمانات وودائع بيت المال وشؤون سبل الخيرات وضبط الأملاك العقارية والأراضي الزراعية الموقوفة على مختلف الهيئات الدينية والمؤسسات الخيرية مثل مؤسسة الحرمين الشريفين والمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة والثكنات والمرافق العامة بالإضافة إلى بعض الطوائف مع المجتمع مثل أهل الأندلس والمرابطين والشرفاء والانكشاريين وأبناء السبـيل.[4]

وهكذا يتضح لنا من طبيعة هذه المعلومات أن وثائق رغم ما تتصف به من توزيع جغرافي غير متكامل وتغطية زمنية غير كافية، فإنها تظل الوسيلة المثلى والمصدر الحيوي للتعرف على واقع الحياة الثقافية بالجزائر أثناء العهد العثماني، فمن خلالها نتعرف على القدرة الإقتصادية لقطاع كبير من الأملاك العقارية والأراضي الزراعية وبواسطتها يمكن أن نحدد الفئة الإجتماعية، والهيئة الإدارية التي كانت تمارس نفوذها في المجتمع الجزائري، وعن طريقها نلمس مدى التغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية والنشاط الإقتصادي، والحالة الصحية والديمقراطية.

ولهذا لا نبالغ إذا اعتبرنا أية دراسة للتاريخ الجزائري بجوانبه المختلفة الثقافية منها أو القضائية أو الإدارية أو الاقتصادية أو الاجتماعية تغفل هذه الوثائق أو تتجاوزها لصعوبة الانتفاع بها. أو للوقت الطويل والجهد الكبير الذي تتطلبه.

---

4 - د. ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص: 73.

والجدير بالذكر، أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله، قد أثرى عن مؤسسة الوقف في كتابة تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول من خلال تعريفه للوقف بأنه يعتبر من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسًا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، وهو بهذا المعنى شرعة إتبعها المسلمون منذ أوائل الإسلام.

ويقوم الوقف على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة

وللوقف نظام داخلي دقيق (فالناظر) هو المشرف الرئيسي عليه، وهو الذي يسهر على تطبيق ما جاء في الوقفه من شروط، وهو المسؤول على تنمية الوقف واستعماله في الأوجه المعنية له.

بينما الحاكم التركي أو الباي في الإقليم، هو الذي كان يعين الناظر بناء عل4 مواصفات معنية كالأخلاق والنزاهة والعلم.

ونلاحظ من خلال الوثائق المدرجة في مرحلة الحكم العثماني بالجزائر، ما نراه في تدخل السلطة، وما فعله صالح باي في قسنطينة من خلال تنظيم وضبط مؤسسة الوقف، وذلك بوضع سجلات يشرف عليها القضاة والمفتيون، كما قرّر محاسبة النظار في كل ستة أشهر.

وقد اتبع الباي محمد الكبير في معسكر نفس الطريقة، فقد جاء في إحدى الوثائق أنه تتبع أوقاف مدرستي تلمسان التي استولت عليها الأيدي ونسي الناس أنها أوقاف وأعاد للمدرستين الأراضي التابعة لها[5].

أنواع الوقف

تتفرع وتتعدد، وليس من السهل حصرها، فهناك من يوقف عقارًا من أراضي أو دكان أو دار، أو نحو ذلك ،وبعضهم كان يوقف عينًا أو بئرًا لأبناء السبيل، ومن يوقف غلة حقل من الحقول أو غلة مجموعة من الأشجار.

---

5 - ابن سحنون (الثغر الجماني) مخطوط، ورقة 12.

طرق إستعماله:

يستعمل في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل.

أغراضـه:

من أهم أغراضه العناية بالمساجد والمدارس والزوايا، والأضرحة، كما أن من أغراضه العناية بالفقراء.

ويظهر من ذلك أهمية الوقف في الحياة الدينية والعلمية والإجتماعية[6] فهو مصدر العيش للزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية، كما أنه مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب، ومعيشة العلماء والطلبة.

كما لعب الوقف دورًا بارزا في الحياة الاجتماعية بتضامن المجتمع وترابطه وتوزيع ثرواته على فقرائه، وكان الوقف بالإضافة إلى ذلك، يلعب دورًا في التأثير الديني والسياسي خارج الحدود كإرسال النقود سنويًا إلى فقراء مكة، والمدينة مع ركب الحجيج[7].

أما الجزائريين في هذه المؤسسة، نرى بأن الواقفون في الجزائر لا حصر لهم، ولذلك وجدنا فيهم الرجل والمرأة، والعثمانيين والحضر، والاحفاف والمالكية.

دور العثمانيين وعنايتهم بمؤسسة الوقف

كاد الوقف ينحصر على كرسي الحكم، ومنهم الكراغلة الذين كانوا يتولون الشؤون الإدارية والإجتماعية والإقتصادية، ومنهم الحصر الذين كانوا يمارسون التجارة والصناعة والوازع وراء الوقف عند هؤلاء جميعًا هو وازع الخير والحماس للدين والعلم وإصلاح المجتمع.

---

6 – عن الأوقاف كمصدر إقتصادي في الدولة خلال العهد العثماني، أطروحة ناصر السعيدوني، (النام المالي للإيالة الجزائرية، كلية الأداب، جامعة الجزائر 1947 مخطوط.

7 – كان أمين بيت المال هو الذي يعين على (الصرّة) التي تحتوي على الذهب المرسل– كصدقة– إلى فقراء الحرمين، وقيمة هذه (الصرّة) تختلف من سنة إلى أخرى، أنظر: شريف الزهار (مذكرات)، ص: 144.

وبالرغم من أن الحكم العثماني بالجزائر، ساهم هو أيضًا في ترتيب وإنعاش المؤسسة الخيرية (الوقف) وهذا من خلال حاكم أو باشا ظل في الحكم لمدة طويلة نسبيًا، إلاّ وقد بنى جامعًا أو كتابا أو زاوية أو وقف الأوقاف على ما بناه.

ولعل هذا يخالف ما قيل من إن العثمانيين في الجزائر لم يكونوا مهتمين بشؤون الدين غير أن الآثار تدل على أن الحكام العثمانيين كانوا يشعرون ببعض الواجب الديني والإجتماعي نحو المجتمع الذي كانوا يحكمونه.

حقًا إن منشآتهم العلمية لم تتطور فتصبح جامعات ومعاهد راسخة القدم، ولكن الحدّ الأدنى من العناية بهذه المنشآت يدل على نوايا بعضهم الحسنة والخيرة.

ويبدو أن قصر المدة التي كان يبقاها كثير منهم في الحكم والعنف الدموي الذي كان يتسم به نفسه، والإنقلابات المتوالية هي التي كانت السبب في عدم تطور هذه المنشآت ومنع الكثير منهم من وقف أوقاف جديدة عليها وتعهدها بالعناية والتنمية.

ومن الغريب أن بعض أوقاف المساجد ونحوها قد أوقفها عثمانيون كانوا في السابق على الدين المسيحي ولكنهم رضوا بالإسلام دينا، أمثال الحاج حسين ميزمورطو[8] وعلي بتشي، بل أن هناك مساجد وأوقافا قد أمر بها الوجق كله مثل الجامع الجديد الذي وضعت أوقافه تحت مؤسسة (سبل الخيرات) العثمانية الحنفية.

ومن سوء حظ هذه المؤسسات أن الحاكم أو الباشا الجديد كان في أغلب الأحيان خصمًا لسلفه فلا يحرص على استمرار سياسة خصمه الدينية أو العلمية أو الخيرية فالمنشآت إذن ظلت فردية، كما أن الوقف في كذلك، ولم تقم مؤسسة عامة تتعمدها الدولة والمجتمع بقطع النظر عن أشخاص الحكام وتطور المجتمع.

والوقف في الحقيقة كان بالنسبة للدولة، هو وزارة الثقافة والتعليم والدين والشؤون الإجتماعية.

---

8 -كان له دور هام في سياسة الجزائر العامة. فقد تولى الباشوية (تمثيل السلطان) والدايليك (الحكم الحقيقي) وقد تولى ميزومورطو فيما بعد قبطان الأسطول العثماني، ومات في جزيرة شيكو .انظر: بيشر (حقائق) ص: 122 . وقد تحدث عنه أيضا ابن حمادوش وابن المفتي، ويقال أن الحاج حسين كان مريضا وضعيف البنية، ولذلك كان الأوربيون يسمونه ميزومورطو، أي نصف الميت، أما المسلمون فيسمونه الحاج حسين.

ومن أقدم الواقفين العثمانيين في الجزائر، خير الدين بربروس وخادمه الذي أعتقه وهو عبد الله صفر، بني هذا الأخير الجامع المعروف بجامع سفير (أو صفر). سنة 940هـ/1534م واوقف عليه وقفا بلغ عشر زويجات، وهي تقدر بحوالي 100 هكتار من الأرض.

وكذلك أوقف عليه خير الدين نفسه قطعة أرض هامة [9].

إضافة إلى خير الدين، فقد أسس الباشا الحاج حسين ميزومورطو جامعًا أوقف عليه أراضي ودكاكين وسوقا وأوكل عليه مجلس إدارة أملاك مكة والمدينة. وقد وزع الوقف على إصلاح الجامع وتنظيفه وآداء الصلوات فيه، وقراءة الذكر والحديث. فخصَّص ستين دينارًا للخطيب وأربعين للإمام، وخمسة وثلاثين للمدرس المالكي والمحدث، وثمانية للمسمع، وأربعة لقراء كتاب (تنبيه الأنام)[10]، وخمسة وثلاثين لإدارة الوقف بالإضافة إلى حصص للمؤذنين والحزابين وقارئي (المحمدية) والمنظفين.

كما نص على أن يستعمل باقي دخل الوقف في شراء حاجات الجامع، أما الفائض منه فيعود إلى أملاك مكة المكرمة، والمدينة المنورة[11].

وقد قام عبدي باشا ببناء مسجد جامع، واوقف عليه أوقافا جعلها تحت إدارة أملاك مكة والمدينة،كما نص في وقفيته على أن الفائض من وقف الجامع يؤول إلى هذه الأملاك.

ومن الباشوات الذين إشتهروا بالوقف على المساجد والمدارس ونحوها: محمد بن بكير والحاج محمد بن محمود، ومحمد بكداش، الذي بنى زاوية للإشراف واوقف عليها، ومحمد باشا الذي جدّد جامع السيدة، وخضر باشا الذي بنى مسجداً يحمل إسمه وكذلك حسين باشا الأخير الذي بنى جامع خطبة خاصًا به.

---

9 - ديفوكس : المجلة الإفريقية، 1870، ص: 185.

10 - كتاب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ألفه عبد الجليل بن محمد بن أحمد ابن عظوم القيرواني المتوفي سنة 971هـ. أنر بروكلمان: الجزء 2، ص: 691.

11 - ديفوكس: المجلة الإفريقية، 1869، ص:31.

بالإضافة إلى الباشوات واقف البايات والوزراء والخوجات، كبار الضباط عدة أوقاف على مجموعة المنشآت، وقد إشتهر بالعناية بالوقف وتنظيمه وبالقضايا الدينية والعلمية في قسنطينة صالح باي، كما إشتهر في معسكر الباي محمد الكبير،فكلاهما في أواخر القرن 18، وكلاهما حاول أن يمثل "عصر التنوير" في الجزائر العثمانية.

كما أشهر الباي حسن (المعروف بوحنك) باي قسنطينة الذي أنشأ سنة 1156هـ/1679م، الجامع الأخضر واوقف عليه عدة أوقاف.

وكذلك هناك رضوان خوجة قائد الدار، الذي قيل أنه اشتهر بالورع وأسس زواية له في قسنطينة واوقف عليها، وقد توفي سنة 1220هـ/1843م.

كما أوقف الحاج محمد خوجة أحد كتاب قصر الباشا، أوقافا ضخمة سنة 1190هـ/1813م على مدرسة عليا، ومسجد وزاوية، أخرى بنى مصطفى بن مصطفى آغا الصباحية زاوية لسكنى الطلبة واوقف عليها، وكذلك فعل ساري مصطفى بن الحاج محمد، بيت الماجي [12] فقد بنى أيضًا مدرسة لتعليم الأطفال على أن معظم الأوقاف الرسمية وشبهها كانت تذهب إلى الزوايا والجوامع القائمة مثل الجامع الكبير بالعاصمة، وضريح عبد الرحمن الثعالبي.

وهناك وثائق عديدة تثبت أن النساء كن يشتركن في الوقف أيضا، فأخت خضر باشا وهي السيدة قمر بنت القائد محمد باي، فقد أوقفت على جامع أخيها الباشا بعد وفاته [13].

كما أن السيدة مريم وهي من عائلة ابن نيكرو الأندلسية قد أوقفت أوقافا على الجامع المعروف بإسمها (جامع السيدة مريم)، وتتمثل الوقفة في ثلاثة منازل وأربعة عشر دكانا[14].

---

12 - من وظيفته حمل صدقة مكة والمدينة سنويًا مع ركب الحج بإسم "أمين الصرة".

13 - ديفوكس : المجلة الإفريقية، 1869، ص: 25.

14 - نفسه، ص: 31. وأيضا الشريف الزهار (مذكرات)، ص:31.

وخصصت السيدة حنيفة بنت مصطفى خوجة، وهي زوج الحاج محمد خوجة أوقافا على الزاوية التي بناها زوجها.

أما السيدة دومة بنت محمد فقد أوقفت أواني طبخها النحاسية لفائدة ضريح عبد الرحمن الثعالبي على أن يكون إصلاح هذه الأواني من مدخول آخر تملكه.

ويواصل الدكتور أبو القاسم سعد الله، حديثه عن مؤسسة الأوقاف، حيث يتعرض في حديثه إلى الوقف الجماعي أو ما يسمى بسبل الخيرات، وكانت مؤسسة شبه رسمية، فهي التي كانت تشرف على جميع الأوقاف المتعلقة بخدمة المذهب الحنفي. من زوايا ومدارس، ومساجد وموظفين وفقراء، وكانت تديرها جماعة يعينها الباشا نفسه، وقد كان على رأسها حوالي 1108، الحاج حسن آغا بن محمد التركي والحاج إبراهيم بن الحاج حميدة الأندلسي.

ومن بين المشرفين عليها سنة 1209هـ/1832م الحاج خليل معزول آغا.

وكانت مؤسسة سبل الخيرات تقبل الأوقات الموجهة لخدمة الفقراء والعلماء والطلبة والعجزة، كما كانت تقوم بإنشاء المؤسسات الجديدة لنفس الغرض وتشرف عليها وتوجهها وتنميها، وذلك أن كثيرًا من الواقفين كانوا يعهدون بوقفهم إلى إدارة سبل الخيرات.

ومن أبرز ما قامت به، إنشاؤها للجامع الجديد المسمى أحيانا بجامع الصيد البحري وهو الذي ما يزال قائما إلى يومنا هذا.

وكان جامع كجاوة من أهم المساجد التابعة لإدارة سبل الخيرات، وكذلك جامع بتشين وجامع باب الجزيرة وزاوية شيخ البلاد.

وكانت مؤسسة سبل الخيرات ذات نفوذ كبير في المجتمع والدولة، وذلك لأهمية الأوقاف التي كانت تتلقاها والمنشآت التي كانت تشرف عليها، وهي التي كانت أيضا مكلفة بدفع مرتبات حوالي 88 طالبا ملحقين بالمساجد التي تحت إدارتها.

كما كانت تقدم الصدقات للفقراء وترعى حاجات المساجد التسعة التابعة لها.

أما مؤسسة مكة والمدينة، فقد كانت لها أهمية سياسية، فقد كانت وجه الجزائر في العالم الإسلامي، وكان ركب الحج الجزائري يحمل كل سنة كمية هائلة من النقود والذهب والفضة والألبسة إلى فقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين الشريفين.

وكان لعواصم والأقاليم أيضا أوقاف خاصة بأملاك مكة والمدينة على غرار ما كان في مدينة الجزائر، وكان ركب حجيج كل إقليم يحاول أن يتفوق على نظرائه في الثروة والجاه.

ومن أشهر من حمل صدقة مكة والمدينة من قسنطينة، عبد الكريم الفكون، والقاضي أحمد العباس، وقد اشتهر الباي محمد الكبير بحبه للجاه والسمعة، فكان يهادي علماء المشرق، ولاسيما علماء مكة والمدينة عن طريق ركب الحج الذي كان ينطلق من عاصمته معسكر ثم وهران[15].

ومن مؤسسات الأوقاف أيضا في العهد العثماني، مؤسسة (بيت المال) التي كان يشرف عليها أمين يسمى أحيانا "بيت المال" وأمانة بيت المال وظيفة رسمية إذا قيست بوظيفة الوكلاء السابقين، ولذلك كان الباشا يعين أحد القضاة أيضا لساعد أمين بيت المال في إدارة المؤسسة، ذلك أن هذه المؤسسة كانت من جهة سياسية ومن جهة أخرى خيرية، فقد كانت تشرف وترعى جميع أموال اليتامى والغائبين والأملاك التي تصادرها الدولة وكذلك التركات.

وكانت أيضًا تقوم بأعمال خيرة وإنسانية وإجماعية، كدفن فقراء المسلمين وتوزيع الصدقات كل يوم خميس على حوالي 200 فقير، وتقديم الهدايا في كل عيد إلى الباشا وحاشيته وخدمه، وبالإضافة إلى ذلك كانت تصوف الأملاك الواقعة تحت طائلتها، كما كانت تدفع شهريًا مبالغ مالية معينة إلى خزانة الدولة[16].

ويمكننا القول من خلال هذا العرض عن مؤسسة الوقف في العهد العثماني، أن نستنبط النقاط التالية:

---

15 – عن أوقاف الأقاليم ومدخولها ووكلائها، انظر الأرشيف دفتر M.J.228 32-181.

16 – ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، الجزائر 1979، ص: 103.

1 - أن الوقف ظاهرة ثقافية إجتماعية إسلامية عرفتها الجزائر في الفترة الإسلامية التي سبقت الأتراك بالبلاد واستحواذهم على مقاليد الأمور، وذلك رغم ندرة الوثائق التي تتعرض للوقف قبل مجيء العثمانيين، إذ أن أقدم الوثائق حول قضايا الوقف بالبلاد الجزائرية لا تتجاوز حسب علمنا أواخر العهد الحفصي والزياني، وأحسن مثال لهذا وثيقة أوقاف سيدي أبي مدين بتلمسان المؤرخة في سنة 966هـ/1500م، والتي تنص على أن عدد الأملاك الموقوفة على مسجد ومدرسة أبي مدين كانت تناهز 23 ملكًا عقاريًا داخل وخارج تلمسان[17].

2 - لم تعرف الأوقاف توسعًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا بالجزائر إلا أثناء العهد العثماني وسيما منذ أواخر القرن 18 وأوائل القرن 19، وقد ساعدها على ذلك إنتشار الروح الدينية وسياسية الحكام، وتأثير رجال الدين والمرابطين.

3 - أغلب وثائق الوقف،تندرج ضمن الوقف الأهلي الذي يصرف الحبس على مذهب أبي حنيفة.

4 - بفعل عوائد الأوقاف تمكن حكام الجزائر من الأتراك أن يجدوا حلولاً ملائمة لتسيير بعض المصالح التي يكن لها دخل محدّد ينفق عليها مثل الشؤون الثقافية التي ما كان لها أن تتم لولا مداخيل الأحباس التي كانت تساهم بنفقات الدراسة وسد حاجة طلاب العلم، وتتكفل بأجور المدارس والقائمين عل الشؤون العبادة بالمساجد والزوايا والمدارس.

وتوفر وسائل الصيانة الضرورية المراكز العبادة والدرس مع كثرتها بمدينة الجزائر، حيث قدّر عددها أواخر العهد العثماني 106 أماكن للعبادة.

5 - عملت الأوقاف على تماسك الأسرة الجزائرية بعد أن حفظت لها مصدر رزقها وأبقتها بعيدًا عن أطماع الحكام وتدخلات ذوي النفوذ وسوء تصرف الورثة.

6 - إستطاعت مؤسسة الأوقاف بما تتميز به من صبغة دينية وما توفره من خدمات ثقافية واجتماعية أن تحافظ على الانسجام الثقافي لشرائح واسعة من

17- Brosselard ch.Les insceriptons arabes de Tlemeen in revue Africaine 1859 PP.413 416.

المجتمع وأن تقوي تلاحمها الجماعي في نطاق المجتمع الحضري لمدينة الجزائر وهذا ما جعل تأثير العناصر التركية والمنتسبين لها من الكراغلة محدوداً لا يتجاوز نطاق مجموعة الأرجاف، ومجلس الديوان والثكنات العسكرية الأمر الذي لم يساعد على إستعمال اللغة التركية وانتشار المذهب الحنفي خارج أوساط الفئات الاجتماعية المحظوظة التي كانت على إتصال بالأقلية التركية في مجال الخدمات الإدارية والوظائف العسكرية

7 - بفعل عوائد الأوقاف تمكن حكام الجزائر في العهد العثماني، أن يجدوا حلولاً ملائمة لتسيير بعض المصالح التي يكن لها دخل محدّد ينفق عليها مثل الشؤون الثقافية التي ما كان لها أن تتم لولا مداخيل الأوقاف التي كانت تساهم بنفقات الدراسة وسد حاجة طلاب العلم، وتتكفل بأجور المدارس والقائمين على شؤون العبادة بالمساجد والزوايا والمدارس، وتوفر وسائل الصيانة الضرورية لمراكز العبادة والدرس مع كثرتها بالجزائر

ويمكننا القول أن مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها خدمة الدين والتعليم، كما كانت عنوانا على التضامن الاجتماعي، وكانت تمثل بالنسبة لأوقاف مكة والمدينة الوجه السياسي للجزائر أيضًا.

ومن خلال هذا العرض البسيط، يمكن الجزم أن العثمانيين لم يهملوا تمامًا وسائل نشر التعليم الديني ورعاية المجتمع الخيرية.

غير أن هناك عوامل أخرى تدخلت فجعلت الأوقاف غير فعالة في خدمة التعليم والنهوض بالمجتمع، كما ساعدت على نشر الغموض والتصوف والشعوذة ومظاهر التخلف الاجتماعي الأخرى.

ومهما كان الأمر، فإن الأوقاف هي التي كانت وراء بناء المساجد للعبادة والتدريس.

بعد هذا العرض البسيط حول ظاهرة الوقف، ربما لا تكتمل الفائدة من هذه

الدراسة إلاّ باللجوء إلى الحديث عن مصادر الدخل للجزائر العثمانية وهذا بإبراز مميزاتها ومناقشة تأثيراتها الإيجابية والسلبية على نظام الوقف وذلك بتناول أصول هذه المميزات وأسسها العامة وعلاقتها الشاملة بالنشاط الإقتصادي.

الأسس التي ترتكز عليها مصادر الدخل

تخضع تنظيمات مصادر الدخل في جوهرة الأحكام الشريعة الإسلامية فهي تقر حق العشور والزكاة والجزية والخراج، كما أنها تأخذ بالتنظيمات العثمانية وتتأقلم مع ظروف البلاد ووضعيتها.

فالتنظيمات العثمانية المتأثرة أساسًا بالتنظيم البيزنطية وبأوضاع البلقان والبحر المتوسط كان لها تأثير قوي في قوانين غنائم البحر والأناوات والهدايا الإلزامية وحقوق الديوانة واحتكار بعض المواد الأولية، كما أن قوة العرف القبلي وشيوع الحياة البدوية وطبيعة الحياة في الريف والمدن تساعد على الإلتجاء إلى أنظمة وقفية كان العمل جاريًا بها في الفترة التي سبقته مجيء العثمانيين، كالمعونة واللزمة ورسوم الحرف ومكس الأسواق[18].

ولهذا لا نطمئن إلى التقسيمات التي ترجع موارد الدخل إلى ضرائب شرعية، قرآنية، لأننا نرى أن هذا التقسيم يعتمد على نظرة سطحية تتجاهل الأحكام الشرعية ومرونتها[19].

تعدد مصادر الدخل وتأثيرها على النشاطات الاقتصادية المنتجة:

يختار نظام ضرائب الجزائر العثمانية بتعدد مصادره وتأثيره على النشاطات الاقتصادية المنتجة، فلم يفلت من هذا النظام الجبائي أي فرع من الإنتاج الفلاحي والصناعي والتجاري ولا أي مادة قابلة للدفع[20].

18 – أنيس محمد: الدولة العثمانية والمشرف العربي، 1514–1914، القاهرة بدون تاريخ، ص: 95–97.

19 – عبد الرسول علي:المبادئ الاقتصادية في الإسلام والبناء الاقتصادي في الدولة الإسلامية دار الفكر العربي، القاهرة 1968، ص:241–262.

20 - GRAMMONT.H.d?Alger, 4106

وقد أدى هذا التوسع في جلب الضرائب إلى جعل الدولة أداة إستهلاك تعيش على موارد البلاد دون أن تسعى إلى تنميتها أو تطويرها، فكل ما تنتجه البلاد يستهلك في دفع رواتب الموظفين والجند[21] أو يودع في خزائن الدولة دون التفكير في تطور وسائل الإنتاج التي عرفت آنذاك نموًا ملحوظا بالبلاد الأوروبية.

كما كان من نتائج هذا التوسع في استخلاص الأموال والثروات عن كل نشاط اقتصادي بالبلاد أن أصبحت أغلب أنواع الضرائب والرسوم تمس المهن والوظائف التي يباشرها الشخص ضمن النقابة المهنية أو المجموعة العرقية، أو تطبق على الملكيات العقارية والجماعات الريفية لا على الأشخاص أنفسهم، وربما هذا هو السبب في حكم بعض الكتاب على ضرائب غير مباشرة في مجملها باستثناء ضريبة الرأس المفروضة على أفراد الطائفة اليهودية وبعض النصارى والحضر بالمدن يتصف نظام ضرائب الجزائر العثمانية بالنظرة الواقعية[22]، فهو رغم النتائج المتواضعة التي انتهى إليها، يأخذ بعين الإعتبار واقع البلاد ونفسه الأهالي، وربما كان هذا هو السبب في عدم تعرض أجهزة نظام الوقف للتغيرات والتعديلات الجذرية كما أن هذه النظرة الواقعية لأوضاع البلاد هي التي ساعدت على نمو المصالح المتبادلة بين البابليك والفلاحين.

ولعل أهم مظاهر النظرة الواقعية لنظام الوقف يتمثل في سعي الحكام إلى استمالة المرابطين لإستخدام نفوذهم الروحي في الأوساط الشعبية.

الحملات العسكرية كوسيلة للحصول على موارد الدخل

لم تكن جباية الضرائب في الأرياف تجرى بصورة اعتيادية بل كانت تتم تحت الضغط والإكراه في كثير من النواحي، ولهذا يلتجئ الحكام إلى إرسال الحملات التأديبية لإرغام الأهالي في حالة العصيان والتمرد على دفع ضرائب المتوجبة عليهم مثل الغرامة أو الخطية أو المعونة.

21- ROY.141

22 - تتمثل النظرة الواقعية لنظام الوقف، في أنها تأخذ بعين الإعتبار واقع البلاد الإقتصادي والإجتماعي.

وتعتمد هذه الحملات العسكرية على قبائل المخزن ذات الامتيازات الاقتصادية[23] فبفضل هذه القبائل الحليفة تتدعم الفرقة التركية (محلة البولداش)، التي لا يتجاوز عدد أفرادها في أغلب الأحيان 270 جنديًا، بأعداد وفيرة من الفرسان، وقد أدى ذلك إلى تكوين قوة ضاربة يتراوح عدد رجالها بين 500 و1000رجل على رأسهم الباي وآغا المحلة، ومقسمة حسب تنظيماتها الداخلية إلى مجموعة خيام كل خيمة منها تضم فصيلة يشرف عليها شاوش.

ويمكن استنتاج حظ سير حملات، محلات جميع الضرائب، الموجهة لشرف البلاد وغربها في أوقات الحصاد،من استقصاء المعلومات التي يوفرها الشواف [24].

العارف بمضارب خيام القبائل ومن تتبع حظ سير المحلة وتنقلها بين الدوائر والمداشر فهذه الحملات تعتبر وسيلة عملية في تحصيل الضرائب من المناطق يسهل معه إستعمال تكتيك الخيالة في تتبع العصاة والممتنعين.

فهذه الحملات تعتبر وسيلة عملية في تحصيل الضرائب من المناطق المستعصية عل الحكام كأراضي الجنوب حيث يسود إقتصاد رعوي يسهل معه إستعمال تكييف الخيالة في تتبع العصاة والممتنعين.

ومن ذلك أن مصطفى بومزراق باي التطري قام بحملة ضد قبيلة الأربعاء سنة 1825 حجز أثناءها 120 من أعيانها واستولى على 10700 جمل بيعت في مكانها لقبائل القوم [25] كما قام نفس الباي في السنة التالية بحملة ضد أولاد مختار الشراقة عادت عليه بغنائم تقدر بـ 500 جمل و4000 خروف [26].

وفي هذا السياق تندرج غزوة محمد الكبير باي معسكر المكونة من: 15000 رجل منهم 2000 تركي، جرت وقائعها جنوب معسكر على بعد 20كلم وقد تم فيها معاقبة 14 أو 15 دوارًا، وكانت نتائجها كما يلي:

---

23 - نظرًا للمهام التي تكلف بها قبائل المخزن يمكن وصفها بانها قبائل إدارية لها صبغة فلاحية وعسكرية هناك دراسات عن قبائل المخزن نجدها في:

-H.KHODJA. 117 – 118.

-CARETTE et WARNIER, Descriptios

-ESTEKHAZY,Notice historique sur le Magheu d'oran, 1849.

24 - ESTERHAZY, De la dominatiow, 251.

25 - FERDEMANN et AVCAPITAINE.P 301.

26 – نفس المصدر.

الحصول على غنائم تقدر بـ 67.000 رأس من الأغنام والماعز و5000 جمل و633 بغلاً 720 بقرة وثورًا، ووقوع 60 شخصًا في الأسر أغلبهم من النساء. وقد تم بيع هذه الغنائم وتوزيعها على قبائل المخزن وفرق اليولداش [27].

والجدير بالذكر،أن مصادر دخل الجزائر العثمانية عن طريق ما إستعرض من خلال تفاصيل الأحداث والمجريات، يجدر بنا أن ندرس وجوه الأنفاق التي كانت تتحملها خزينة الدولة بإعتبارها الجانب من المعاملات.

ويصطلح في تسمية هذه النفقات المالية من حيث الأغراض التي تتفق فيها والأبواب التي تخصص لها، فهي عبارة عن جرايات للجند أو رواتب للموظفين أو هدايا تقدم للمحرمين الشريفين، أو قد تكون في شكل مساهمات في الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية أو مساهمات في المنشآت العمرانية.

أ-جرايات الجند:

تؤلف المبالغ التي تنفق على الجند جانبا هامًا من الأموال التي تتطلبها نفقات الدولة وهي إما أجور شهرية أو منح ومكافآت طارئة، فالأجور الشهرية تنفق على الجند كل شهرين، وهذه تعرف بالجرايات الصغرى لأنها تخص قسمًا من الجند فقط، بينما بقية الجيش الموزع على الحاميات في أنحاء الجزائر العثمانية يعين له موعد سنوي يقبض فيه جرايته وهذه المناسبة السنوية تعرف بالجرايات الكبرى.

وقد جاء في مخطوط لمحمد الصالح العنتري فقرة تتعلق بالراتب السنوي للجندي حيث نصت على "أن الرجل العسكري في ذلك الزمان له راتب سنوي يأخذه من دار باشة الجزائر كل سنة اغني من خزينتها، قدره مائة ريال جزائري سكة ذلك الوقت فيعول عيلته وأولاده منها"[28].

---

(27)- EMERIT "Thedchat p.40

28 – العنتري، محمد الصالح: تاريخ قسنطينة من دخول الأتراك إلى الفتح الفرنسي، مخطوط رقم 2320، بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 09.

ب - رواتب الموظفين والعمال

إن نظام الإلتزام والتفويض الذي يسمح للموظفين بأخذ مرتبة من عائدات مهنته أو نيل الهدايا والتشجيعات مقابل خدماته،الأمر الذي أدى إلى حصر المرتبات التي تتكفل بها خزينة الدولة في جزء ضئيل من الأشخاص أغلبهم كانوا جماعة من الموظفين القائمين على الخدمات الثقافية والقضائية، والعمال المشتغلين في الورشات البحرية والأعمال العمرانية والخدم الملحقين بقصر الذي ردواودين الحكومة.

فموظفو الخدمات القضائية والدينية تصرف لهم جرايات شهرية ومكافآت موسمية حسب درجات السلم الإداري المعمول به آنذاك.

باعتبار أن الجراية السلم الشهرية هي في الواقع مقياس عملي لترتيب هؤلاء الموظفين، من حيث النفوذ والمكانة الأدبية وسعة العيش.

ففي إحدى الفقرات الواردة في دفتر التشريعات نجد أن المفتي الحنفي كان يتقاضى شهريًا ثمانين صائمة، والمفتي والقاضي المالكيين يتسلم كل واحد منها خمسين صائمة بينما رئيس الشرفاء لا ينال سوى ثلاثين صائمة[29]، وهو مع ذلك أحسن حظا من العدول الأثنى عشر الذين كانوا يعملون في تحرير الوثائق وتقديمها للقاضيين المالكي والحنفي لختمها والمصادقة عليها، فهؤلاء العدول لا نتعدى أجرة كل واحد منهم سكة جزائرية واحدة [30].

كما أننا نستنتج من تقايد سجلات البابليك أن المرتبات الشهرية بالخدمات الدينية كانت متفاوتة.

أما في ميدان الثقافة فإن حالة المدرسين والمعلمين كانت لا تختلف كثيرًا عن زملائهم السابقين، فهم يتقاضون تشجيعات وهدايا بمناسبة الأعياد[31]، منحًا من

---

29 - Tachriffat .p.51

30- V.De Paradis.P.122-163.

31 - مثل تقديم باي قسنطينة بمناسبة حلول عيد الأضحى، ملابس وهدايا الموظفي الخدمات الثقافية.

----------:.Tablean en 1840, p,385

أولياء الطلبة تكفل لهم عيشا محترمًا لا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء المدرسين غالبا ما كانوا يشتغلون في أعمال ثقافية أخرى في المساجد والزوايا، فحسب تقديرات السيد أميري التي تعود إلى أوائل عهد الاحتلال، أن كل معلم كان يأخذ على طفل سنويًا أربعة عشر فرنكا وينال في الأعياد والمواسم البالغة إحد عشر عيدا خمسة وخمسين فرنكا، ويحظى بأحد عشر فرنكا على كل مرحلة تعليمية يجتازها التلميذ، مما يوفر له دخلاً يوميًا يفوق فرنكين[32].

ولهذا نجد أن جرايات القائمين بالأعمال القضائية والدينية والثقافية كانت لا تكلف خزينة الدولة إلا مصاريف وأعباء مالية متواضعة وضئيلة بالنسبة لأجور الجند غير أنها على ذلك كانت تؤلف أحد وجوه الأنفاق الأساسية التي يتحملها جهاز الدولة المالي وذلك لكثيرة المساجد وتعدد الزوايا والمدارس.

ففي قسنطينة وحدها نجد 86 مدرسة إبتدائية، و35 مسجداً و07 مدارس عالية و16 زاوية وفي مدينة تلمسان يصل عدد المدارس الابتدائية إلى 50 مدرسة [33]، وفي مدينة الجزائر يبلغ عدد المساجد وحدها 106 مساجد.

أما الطائفة الثانية، من الموظفين ذوي الأجور القارة، فهي تتكون من عمال الورشات البحرية والمساهمين في المنشآت العمرانية وبعض الخدم الملحقين بقصر الداي.

ويتسلم جل هؤلاء الموظفين أجوراً من الخزينة مقابل أداء أعمال مقارن عليها.

جـ-نفقات بيت المال

بيت المال مؤسسة خيرية، تعود أصولها إلى التنظيمات المالية الإسلامية التي أقرها الخليفة عمر بن الخطاب وأعمالها صلاحيات واسعة[34]، ثم ظلت تتدعم وتنمو طيلة الفترة الإسلامية بالمغرب الأوسط،حتى وضع الاحتلال الفرنسي حداً

---

(32)-V.De PARADIS, P.162 - 163

33 - EMERIT (M) "L'Etat intellectuel et maral de l'Algerie eu 1830 R.H.M.C., T.1 (1954), P.202.

34 - عبد الرسول علي،المبادئ الاقتصادية في الاسلام، والبناء الاقتصادي في الدولة الاسلامية دار الفكر العربي، القاهرة 1968، ص: 268.

لها، بإلحاق ممتلكات بإدارة الأملاك العمومية بقرار رسمي صادر بتاريخ 7 ديسمبر 1830[35].

ويحضر نشاط بيت المال في الاعتناء بتسيير الأملاك العائدة إلى اليتامى والغائبين، وضمان حصة الدولة من التركات حسب الأحكام الشرعية، ومن هنا اكتسبت بيت المال نوعًا من الإستقلال عن مؤسسة الأوقاف التي ترمي تشريعاتها إلى الحيلولة دون استيلاء الدولة عن طريق بيت المال على أملاك الأوقاف والأحباس.

ومن هذا الجانب أصبحت بيت المال ذات صبغة حكومية[36].أهلتها لأن تشارك في مصادر الدخل بما تمده من عون للخزينة، وأن تساهم في وجوه الأنفاق بما تتكفل به نيابة عن خزينة الدولة من نفقات ومصروفات تتوزع على الشكل التالي:

- تقديم هدايا في المواسم والأعياد إلى الداي وكبار الضباط وخدم القصر.
- إخراج الصدقات وتوزيعها على الفقراء، بحيث يستفيد منها كل يوم خميس حوالي مائتي فقير،مما يكلف صندوق بيت المال أسبوعًا ما بين 15و20 بوجو[37].
- التكفل بنفقات دفن الفقراء، فكل ميت يكلف بيت المال ما بين 6 إلى 8 بوجو.
- المساهمة في النفقات المتعلقة بالتركات كإعطاء 7٪ من التركة للموقف والكاتب، وتحمل مصاريف البيع بالمزايدة العلنية.
- تخصيص جزء من أموال صندوق بيت المال لعتق بعض المسلمين الأسرى بالبلاد المسيحية.

كل هذه النفقات المتعددة الوجوه عملت على إلحاق بيت المال بوجوه الأنفاق المختلفة للجزائر العثمانية، وإن كانت الخزينة في الحقيقة تتحمل نفقاتها بطريقة غير مباشرة.

---

35 - Tableau 1830, p.224.

36 - DELVOVLX, Notice, p.78.

37 - AUMERAT, P.7

د-مساهمة الأوقاف في نفقات الأعمال الخيرية

دفع وازع التقوى وطلب الآخرة بعض الحكام والأثرياء للتقرب إلى الله تعالى عن طريق وضع جزء من أملاكهم وثرواتهم وقفا على الأعمال الخيرية، لا سيما بعد تشجيع بعض السلاطين على ذلك، مثل السلطان با يزيد المعروف بالتقي فهو الذي أقر حق الأوقاف في الدولة العثمانية[38]. وأسبغ عليها مناعة وحصانة أبعدت عنها أنظار الطامعين وجعلتها في مأمن من الضرائب والمصادرات الأمر الذي أكسب الأملاك العقارية والأراضي الفلاحية والمراعي والغابات التابعة للأوقاف شكل مؤسسة رعاية اجتماعية، ومركز تعليمي وديني كان له اليد الطولى في رعاية الأعمال الخيرية والمحافظة على الحياة الدينية والثقافية[39].

ومن هذه الوظائف الخيرية والإنسانية استمدت مؤسسة الأوقاف شرعيتها وتدعم كيانها ويمكن أن نميز عدة أنواع من الهيئات الإسلامية المنبثقة عن مؤسسة الأوقاف[40] منها:

- مؤسسة سبل الخيرات، وهي التي كان يشرف عليها موظف يعرف بالشيخ النظار ويسهر على رعاية أملاكها الوكلاء.

وتنفق أموالها في بناء المساجد والزوايا أو ترميمها، أو في إقامة بعض العيون وتعهد الثكنات ومساعدة إشراف المدينة، كما تتكفل بدفع أجور الطلبة المكلفين بتلاوة القرآن الكريم بالمساجد، وتوزيع بعض الصدقات[41].

---

38 - Lu Teil (o.) eu Probemes Foucirs dans l'empire Othman" A.H.S., T.X (1939).P.235.

39 - أنظر حول صلاحيات الأوقاف، راجع:

-MERCIER (E) ce Hobos ou Oukaf ses regles et ses juris-

-prudeues R.A.M.T.L.J.N?11 (1895),P.219-222.

-GALLISSET, "Essai de difinitiou" p.391-392.

40 - أوجهها السيد إيفير إلى ستة فروع من جملتها أوقاف الحرمين وبيت المال. أنظر:

-YVER (G) "Memoire de Sauderbah" R,A 57 (1919), P.240 ? 241.

41 - ورد في سجلات البايليك بأن مصاريف جامع بابا عبدي المنصور سنة 1143هـ بلغت 208 دنانير ذهبية منها 96 ديناراً مخصصة للصدقة. أنظر: محفوظات دار ولاية الجزائر، سجلات البايليك، دفتر 231، ص:4.

وينسب بعض الكتاب إنشاء مؤسسة سبل الخيرات إلى شعبان خوجة التركي سنة 999هـ/1584م [42]. ولهذا اهتمت في غالب الأحيان بالمساجد الحنفية مثل الجامع الجديد وجامع سفير وجامع دار القاضي وجامع القصبة وجامع كتشاوة وجامع الشباولية [43].

وبالإضافة إلى أوقاف سبل الخيرات، هناك أوقاف الأولياء والمرابطين ويتولى الإشراف عليها وكيل المرابطين وتخصص مداخلها لرعاية وصيانة أضرحة هؤلاء الأولياء الذين تكاثر عددهم وتضخمت عائدات أوقاتهم لا سيما في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أصبحت مدينة الجزائر وحدها تضم أملاكًا موقوفة على تسعة عشر وليا [44]، يأتي في طليعتهم سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي اقدر مداخيل أوقاته بستة آلاف فرنك توزع على فقراء المدينة بنسبة تتراوح بين فرنك واحد وثلاث فرنكات للفقير.

وكان هذا النمو والتكاثر في أوقاف الأولياء ناتجا عن تشجيع الحكام ورعايتهم بدافع الورع والتقوى والتقرب إلى الله، أو سعيًا للحصول على تأييد ومعاضدة السكان المحليين حتى لا تؤثر عليهم دعاية الطريقة التجانية والدرتاوية المعادية، أو وفاء بنذر يضربها الحكام على أنفسهم حتى يرفعوا من معنويات الجنود والفرسان المشاركين في المحلات العسكرية، كالنذر الذي تعهد به حسين بن صالح باي قسنطينة سنة 1222هـ/1807م.

وقد جاء في نص الوثيقة المتعلقة بهذا النذر: "ليعلم من يقف على أمرنا هذا أننا شهدنا أنفسنا.. وهو أن قدمنا تونس ومحالنا وعسكرنا وسهل الله أمرها علينا وأخذناها،فالشيخ سيدي العريان والسيد محمد بن سي السعيد ما يحتاجوه منا من بناء دار تكون بقربه وإصلاح مسجده، وتجعلوا له أوقافا معلومة يستعينون بها على الطلبة وضيافة الغرباء والواردين عليهم من أبناء السبيل [45].

---

42 - YVEK, P.240 - Tablean 1830 - 37 ,p.223.

43 - DEVOULX, Notice, p.68.

44 – تقع أضرحة هؤلاء الأولياء داخل مدينة الجزائر باستثناء واحد يقع ضريحة ببلاد القبائل الكبرى، وهو سيدي بن علال أقمون انظر: AUMERAT, P.11.

45 -FERAVD (L .ch)."Un Voeu d'Hussein Rey de Constantine 1807" R.A.(1863), p, 92.

ويتصل بأوقاف الأولياء والمرابطين نوع آخر من الأملاك الدينية خاص بأهل الأندلس ظهر بعد بناء جامع الأندلسيين بالعاصمة عام 1033هـ/1633 [46]، وأتخذ بمرور الزمن شكل مؤسسة خيرية ما فتئت تنمو حتى أصبحت تؤلف مردوداً ماليًا محترمًا يقدر حسب إحصائيات أجريت عشية الإحتلال بخمسة آلاف فرنك سنويًا توزع على بعض العائلات المنتسبة إلى أهل الأندلس [47].

كل هذه المؤسسات الخيرية من سبل الخيرات وأوقاف الأولياء وأملاك الأندلسيين كانت تشترك في نفقات مالية تعطى لها مكانة مرموقة ضمن وجوه الأنفاق غير المباشرة وتكسبها تأثيرًا ملموسًا على المعاملات المالية للبلاد، شأنها في ذلك شأن بيت المال، لأن الأحوال التي تنفقها هذه المؤسسات لتغطية الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها تكون على حساب القدرة المالية للبلاد، التي تحد منها الثروات المخصصة للوفاء بالنذر أو التشييد أضرحة الأولياء والصالحين أو مساعدة المعوزين أو تقديم العون لأبناء السبيل [48].

وربما يقدم لنا الجدول التالي[49] الذي ضمناه بعض المعلومات المتعلقة بأملاك الحرمين الشريفين نظرًا لارتباطها بالمؤسسات الخيرية الأخرى، فكرة توضح مدى

46- IVER, P, 241 .

47 – عشية الاحتلال كان عدد الحضر المنتسبين إلى الطائفة الأندلسية يقدر بواحد وسبعين رجلاً أنظر:

EMERIT "L'Etat intelleetuel" :p.22

48 – ورد في الترجمانة الكبرى على لسان مؤلفها ابن القاسم الزياني: "ولأقمت الجزائر أربعة وعشرين يومًا إلى أن تهيأنا للسفر فجاء الكاتب والحاجب والصهر والقاضي لوداعنا معهم صلة من حسن باشا (88 - 1791) وقالوا أن مولانا الباشا يقرئك السلام ويطلب منك الدعاء في الحرمين الشريفين فاستعن عن سفرك بهذا الزاد القليل الذي هو ستمائة سلطاني"

عن الزياني (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفلاني، فضالة المحمدية 1967، ص: 131.

49 – المصادر المعتمدة في هذا الجدول هي:

EMERIT "L'Etat intelleetuel" :p.22

DEVOULX, Notice, p.68, 69 .

Tableau 1830.37, p 225 .

الدور الحيوي الذي لعبته هذه الأملاك الخيرية في النظام العام تحت الرعاية المادية الأدبية للخزينة العامة، رغم اختصاره وتركيزه على مدينة الجزائر دون سواها من أقاليم الجزائر العثمانية.

جدول المؤسسات الخيرية

المؤسسات الخيرية	عدد الأملاك الموقوفة عليها	عدد المساجد والزوايا والأضرحة التابعة لها	مدخولها السنوي	نفقاتها السنوية
سبل الخيرات	119 بناية		16000 ن	14583 ن
أوقاف الأولياء والمرابطين		19 ضريحًا		
أوقاف أهل الأندلس	40 بناية	61 مكانا دينيا	5000 ن	
أملاك الحرمين الشريفين			703,05 ف	

هـ-هدايا الحرمين الشريفين

تعتبر هدايا الحرمين الشريفين تقليدًا أملته الروابط الروحية والتقاليد الإسلامية التي تربط بلاد الإسلام ومن ضمنها الجزائر بالبقاع المقدسة. ذلك أن الحكام العثمانيين في الجزائر كانوا ينظرون إلى هذه الهدايا بكل تقدير واحترام كسبا للشعور الديني وإرضاء للأهالي ولهدايا الحرمين الشريفين أنظمة تطبق بمقتضى أحكامها، مما يبرزها في شكل جمعيات دينية كما هو الشأن في تنظيمات الأحباس، موزعة على المدن التي توجد فيها أملاك الحرمين، ويشرف عليها وكلاء مكلفون باستلام وتسجيل الأموال العائدة للمحرمين وإن كان بعض هؤلاء الوكلاء يرجعون في أمورهم إلى وكيل الحرمين بالجزائر.

فوكيل الحرمين بالجزائر هو الذي كان يوجه هذه الهدايا بإسم داي الجزائر إلى حكام البقاع المقدسة، وحتى يتأكد من بلوغ الهدايا سالمة كان يرفقها بقوائم تحتوي على كل أنواع الهدايا بالتفصيل ليعود بها الحجاج بعد توقيعات من طرف هؤلاء

الحكام، ومرد هذا الحرص أن هذه الهدايا الدينية لا يؤمن عليها لتعرضها لمخاطر الطريق، رغم تجهيز القوافل وكراء السفن لحملها[50]، ومصاحبة وفود الحجيج لها.

وتشترك في توفير هذه الهدايا الدينية كل أقاليم الجزائر العثمانية ومرفها الرئيسية كالبليدة التي ساهمت سنة 1240هـ/1824م بـ 866 ريال، ووهران التي قدمت سنة 1245هـ/1829م، 1500 ريال، وقسنطينة التي قدمت سنة 1239 هـ/1823م هدايا قيمتها 355 ريال [51]. كما أن وكيل الحرمين بمدينة الجزائر كان يبعث كل سنة إلى البقاع المقدسة بألفي محبوب [52].

وترجع ضخامة هدايا وكيل الجزائر[53] إلى الأموال التي يحصل عليها من وكلاء المدن المجاورة كالبليدة والقليعة والمدية وملیانة، إلى كثرة الأملاك الموقوفة على الحرمين داخل مدينة الجزائر والمكونة في أغلبها من بناءات سكنية وأراضي زراعية وبساتين وضيعات ودكاكين تجارية ومقاهي وفنادق ومطاحن ومخازن كما تشمل أيضا الأملاك المحبوسة على بعض دور العبادة.

وقد قدرت سلطات الاحتلال عدد هذه الأملاك التابعة للحرمين سنة 1830 بـ1558 مصدر دخل ذات مردود سنوي يناهز 43222,70 فرنكا[54] كانت تنفق على هدايا الحرمين ونحن لا نرى في هذا الرقم مبالغة كبيرة إذا عرفنا أن الأحباس المسجلة في الجزائر بإسم الحرمين الشريفين تبلغ ثلاثة أرباع الأحباس حسب ما يستنتجه السيد جانسانس JANSSENS في دراسته المتعلقة بالأحباس الجزائرية .[55]

---

50 – أغلب هذه السفن أوربية، ونادراً ما تكون ملكا للجزائريين أو تابعة للدولة العثمانية، أنظر:

DEVOULX, Notice, p.38 - 40

51- IBid : p, 22 – 23.

52 - IBid : p, 86.

53 – قد تصل قيمة بعض الهدايا إلى 24000 محبوب مثل الهدية المبعوثة إلى مكة من طرف سيرازلي محمد شاوش بتاريخ 25 جمادى الثانية 1230هـ الموافق لـ 4 جوان 1815. أنظر.

- TEMIMI,Recherches d?apres A.O.M.15 M 114, Vol.13, P.44

54 - DEVOULX, Notice, p.15.

55- JANSSENS Gerard Russou de), Contrilsution a l'etude des Habaus alsirieu,p.27 in A.O.M.8x80 Treuiaul dactylogrephiee

نقلاً عن التميمي، عبد الجليل: فهرس موجز للوثائق العربية والتركية، عمل على الآلة الكاتبة.

لكن هذه الأموال المخصصة لهدايا الحرمين تتحكم في كميتها وتنقص من قيمتها نفقات الصيانة وأجور العاملين بها مثل الخطباء والأئمة وقارئي القرآن الملحقين بالمساجد التابعة للحرمين الشريفين[56] فجل هؤلاء الموظفين يعتقدون في معاشهم على مردود أملاك الحرمين.

لقد تطلب من الحكام العثمانين إلى تكشيف النشاط الفكري والروحي، من خلال النفقات العامة، والمتمثلة في المنشآت الثقافية والدينية التي نالت اهتمامهم، لأسباب روحية وثقافية، ولما كان لها من الأثر الحسن في توطيد نفوذ الدولة وكسب التأييد والمساندة لها في أوساط الأهالي وقد تطلب إنشاء هذه المرافق الثقافية والدينية من مساجد وزوايا ومدارس أموالاً ومصاريف، نفترض بأن الخزينة شاركت فيها ولو بقسط ضئيل بجانب عائدات الأحباس وثروات بعض الحكام[57] والأثرياء، معتمدين في افترضنا هذا عل سياسة الدولة الإقتصادية والمالية التي تدفعها للقيام بواجبها في هذا المضمار، فضلاً عن دور العلم وأماكن العبادة الكثيرة والمنتشرة عبر أنحاء الجزائر العثمانية[58] لم تكن كلها وليدة نشاط المؤسسات الخيرية أو المبادلات الفردية وحدها لأن إمكانياتها المالية تعجز عن الانفراد بتشيد مثل هذه المنشآت الدينية والثقافية المرتفعة التكاليف دون معاضدة الخزينة لها ماديًا ومعنويًا.

أما الفرع الآخر من المرافق العامة فيشمل في المنشآت العمرانية التي كانت وليدة الامتيازات الإقتصادية والاجتماعية للطائفة التركية القابضة على ناصية الحكم والمتمتعة بحيـاة أفضـل.

---

56 – ورد في محفوظات دار ولاية الجزائر أن أملاك الحرمين التابعة لجامع باب عزون تصرف للخطيب 15 ريالاً وللإمام8،5 ريالات راجع سجلات البايليك، ملف رقم، ص:22، كما قارئ القران الكريم "الحزّاب" بالجامع الأعظم أو جامع كتشاوة غالبا له ما جراية سنوية تساوي 52 ريالاً سنويًا راجع: سجلات البايليك، ملف رقم 240، ص: 17.

57 – من الأمثلة على ذلك الأعمال الخيرية التي قام بها محمد بن عثمان الفاتح باي معسكر مثل إصلاحه مساجد الجمعة وبناء مشاهد الأولياء كمشهد الولي محمد بن عودة ومشهد الولي أحمد بن يوسف، وزيادته في أحباس الجامع الأكبر وترتيب المدرسين في الجوامع، راجع ابن سحنون الراشدي، ص: 127 -132 – 135.

58 – كان يوجد في مدينة قسنطينة وحدها حوالي 100 مسجد وزاوية، راجع: Tableau .p, 358 كما أن مدينة الجزائر كانت تضم 106 مكانا للعبادة، منها 14 مسجداً صنفيا، و92 مسجداً مالكيا راجع: Tableau .p, 1830, p.223.

ورغم كثرة هذه المنشآت الثقافية والدينية فإننا نفتقر إلى إحصاءات للنفقات المتعلقة بها وذلك لندرة المعلومات ،لاسيما لما أنشئ في الفترة المتأخرة، أو لتبعثر المعلومات في سجلات الدولة واستحالة استخلاص نتائج ملموسة منها.

يتضح لنا مما سبق أن المصروفات التي تتحملها الخزينة أعلبها مخصص لتسديد مرتبات الجند وإرضاء موظفي الدولة وتجهيز المرافق الدفاعية والمحافظة على تبعية وخضوع الأهالي بتقديم الترضيات للأعيان والإشراف والمرابطين ذوي المكلمة المسموعة لدى موظفيهم.

فكل هذه النفقات تتطلبها في الحقيقة ضرورة المحافظة على الاستقرار الداخلي وضمان مصالح الفئة الحاكمة المهددة بالعصيان[59] والثورة في حالة عجز الخزينة أو تقاعسها عن تسديد الأجور[60]، ففرق الجيش لا تقيم وزنا لأي إعتبار إذا كان الأمر يتعلق بجراياتها على حدّ تعبير الأب دان.

وما دامت متطلبات أمن الجزائر العثمانية تستوجب هذه النفقات فليس من المستغرب أن تترك المشاريع العمرانية وشؤون الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية، التي لا تمس الجند ولا تخدم مصالح الطائفة التركية للمبادرات الفردية أو الرعاية المؤسسات الخيرية أو توكل إلى أعمال السخرة، وحتى في الحالات الملحة لا تساهم الخزينة إلا بجزء ضئيل من النفقات المالية.

وقد انعكس هذا الوضع في قلة الأعمال والمنشآت الإقتصادية التي حققتها الجزائر العثمانية بالنظر إلى مداخل البلاد وقدرتها المالية، مما يحمل الباحث على القول بأن فكرة استعمال مداخيل الضرائب في خدمة المصالح العامة ظلت غريبة كليًا عن تصرفات حكام الجزائر.

---

59 - GEAMMONT.H.d?Alger, p.414.

60 - كالنهب الذي قامت به فوق اليولداش بالعاصمة عندما لم تدفع لها الأجور الشهرية أثناء مقتل الداي أحمد 1808 وتولية الداي علي العنسال (1808-1809). أنظر: -GEAMMONT.H.d'Alger, p.369

لكن قدرة السجلات الرسمية المتعلقة بمصاريف الخزينة وتعتبر المعلومات الواردة ضمن الوثائق القليلة المتبقية[61]، تجعل من الصعب على الباحث إجراء إحصاء شامل ودقيق لأي نوع من أنواع المصاريف.

كما أن المعلومات المستخلصة من الكتب الأوروبية التي تعرضت للموضوع،مع حرصها كل الحرص على إيراد ذكر المداخيل دون المصروفات تتصف بالتناقص والتضارب، إذ بعضها يشير إلى أن هناك عجزًا ماليًا تعانيه الخزينة من جراء نفقاتها الكثيرة،فشالير مثلا يشير إلى أن هذا العجز بلغ 424200 دولار إسباني. ويفهم من كلام حمدان خوجة أن الخزينة تلجأ إلى تغطية عجزها المالي بأخذ أموال صندوق بيت المال، بينما بعض الكتاب كالسيد باناتي يرى أن أجور الجند وهي أهم مصاريف الخزينة لا تضر بموارد الدخل، بل ذهب إلى القول بأن في استطاعة الجزائر تجنيد قوة عسكرية يصل عدد أفرادها إلى مائتي ألف رجل.

وهذا التناقص بالذات هو الذي دفع بعض المؤرخين المحدثين إلى التساؤل عن هذا العجز المنافي لوجود خزينة تضم عشرات الملايين وتتوفر على مداخيل عديدة وغنية، وإن كنا نعتبر أن هذا التناقض في الروايات والاختلاف في الآراء سطحي لا يعتمد على أدلة منطقية وإحصائيات دقيقة بل هو في أساسه ناتج عن التأثير بسياسة الجزائر العثمانية التقشفية التي اعتبرت كل إنفاق من الخزينة هو نوع من الإسراف وإضعاف لقدرة البلاد . الأمر الذي حمّل بعض الكتاب على القول بأنه: "لا توجد في الدنيا دولة تقتصد في الإنفاق من خزينتها كدولة الجزائر.

عرفت الجزائر العثمانية منذ مستهل القرن التاسع عشر، اختلالاً في التوازن المال، والإقتصادي.وقد بدأت بوادر هذا الاختلال تظهر منذ مجيء الباشوات إلى الحكم (1585–1659).

---

61 – أهم دفاتر سجلات البايليك بمحفوظات دار ولاية الجزائر، (سابق)، وقصر الحكومة (حاليا). التي تعرضت لمصاريف الخزينة.

فقد عرف الباشوات بتهالكهم على جمع الأموال وإخفائها والتظاهر بنفاذها عند دفع رواتب الجند، وقد كان سلوكهم هذا سببًا في انتفاضات القرن السابع عشر العديدة (1600-1656). [62]

ثم أعقب فترة الباشوات فترة الأغوات المملوء بالفوضى والاغتيالات والتنافس على حكم، ولم تعد الأوضاع المالية إلى التحسن إلا بمجيء الدايات إلى الحكم في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وقد ساعد على هذا الإنتماش، توفر مصادر مالية كافية عن طريق الأتاوات والغنائم وتحسن مردود الضرائب والتدخل في شؤون الايالة التونسية[63].

لكن كل هذه الوسائل لم يكن لها على ما يظهر، تأثير إيجابي على الأوضاع المالية، وإن زاوت في تدعيم مركز الجزائر الدولي إزاء السلطة العثمانية والدول الأوروبية، وأعطت صلاحيات أكثر للدايات على حساب السلطات المخولة للديوان وضباط الجيش الإنكشاري.

وعلى كل فإن اختلال التوازن المالي قد أنجز عنه ضغط مالي على الأرياف، وساهم في نشوب ثورات عديدة وجدت في الطرقية وسيلة للتعبير عن عدائها وكراهيتها للسلطات الحاكمة.

كما أن الإنهيار المالي كان عاملاً مباشرًا في إنعزال الحكومة الجزائرية وعدم تجاوب السكان معها، مما جعلها تنهار في أول صدام حقيقي لها مع قوة أجنبية غازية.

إن الوضع الحالي لوثائق الوقف بالجزائر، في الفترة العثمانية، يتطلب عملاً جماعيًا ويأخذ بمنهجية التوثيق، ويكون منصبًا على فحص هذه الوثائق، وذلك قصد

---

62 -Boyer, "les Pachas Irienausc" P.102 - 104 .

63 - كان الهدف الأساسي من التدخل في شؤون الإمالة التونسية، هو الحصول على مكاسب مالية كانت الخزينة في حاجة ماسة لها، وبالفعل فرض الجزائريون أتاوة سنوية على تونس قدرت سنة 1728 بـ 10,000 سكة ذهبية، واستخلاص غرامة مالية من الحكومة التونسية تقدر بـ 50,000 قرش، ثم الإستلاء على الخزينة التونسية برمتها سنة 1756 بما فيها من أموال وردائع. أنظر: -NOUSCHI, EN quite p, 102 .

تحليل مضمونها وتسجيل مادتها أو استخراج المعلومات التاريخية منها ورصدها في جداول وإحصائيات ولوحات بيانية وبطاقات فنية، تتضمن معلومات عن مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للجزائر قبل الاحتلال.

إن أهمية وثائق الوقف الحقيقة تكمن في نوعية المعلومات التي تتضمنها أو التي يمكن أن نستنتج منها بالإستقراء والمقارنة، فهي كفيلة في حالة حسن استغلالها إن تجدد معلوماتنا فيها يتصل بالأوجه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للحياة الداخلية للجزائر العثمانية. وخاصة ما يتعلق منها بشؤون الإدارة والقضاء والتعليم والعبادة.

ومن خلال إطلاعنا المتواضع على بعض الوثائق الخاصة بالوقف، فيمكننا القول:

-إن هناك وثائق تتعلق بأسماء الملكيات والدكاكين والفنادق، والمقاهي وأفران الخبز، وأفران الجير، التي تعود إلى مؤسسات الوقف،كما تسمح لنا بأخذ فكرة عن إنتشار الملكيات الموقوفة ومقارنتها بالملكيات الخاصة والعامة[64]

مع تلمس ما ينجز عن ذلك من وضع اقتصادي خاص من حيث نوعية الملكية وطرق الاستغلال والقضايا المتعلقة بمبادلة الوقف وتولي العناء (الكراء المؤبد)، وكيفية انتقال الثروات من فئة إلى أخرى بفعل إنتقال الإشراف على الوقف بين الأفراد والعائلات، الأفراد الذي يمكننا الحكم على مكانة العائلات صاحبة الوقف ومستوى معيشتها.

تجديد الإجراءات المتعلقة بتسيير شؤون الأوقاف مثل توزيع عوائد الوقف بين المنتفعين والمستغلين له، وتعدد مصادر دخله ومردوده السنوي، وبذلك يمكن ملاحة ما قد يطرأ على عوائد الأوقاف من تغيير ناتج أساسا عن طبيعة طرق الإستقلال والرسائل المستعملة في ذلك [65].

---

64 - شهاب الدين يلس: الفهرس التحليلي للوثائق التاريخية الجزائرية الرصيد العثماني (1648-1862) مجلة الوثائق الوطنية الجزائرية - الجزائر- عدد 08، 1980.

65 - د. ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية. الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، 1001. ص182 - 184.

وبالجدير بالذكر، أننا لا يمكننا أن نغفل الجانب النفسي للمجتمع الجزائري من خلال شيوع الوقف الأهالي وانتشار الوقف الخيري، والتي لا يمكن لأن يفسر إلا بعامل التقوى والرغبة في الإعتزال والأعراض عن الدنيا، بل يجب أن تفهم أيضاً إنطلاقا من واقع العلاقة بين الحاكم والمحكوم، هذه العلاقة التي دفعت بالكثير من أصحاب الثروات والأملاك إلى وقف ما يملكون وقفًا أهليًا رغبة في الحد من أطماع الحكام وجورهم، ولكن الوقف يجعل ثرواتهم في منأى عن المصادر ووضع اليد وانتزاع الملكية لأي سبب من الأسباب.

وهذا ما يجعلنا التركيز على عدم إهمال الخليفة السياسية والاجتماعية لظاهرة الوقف رغم عدم الإشارة إليها. وكذلك قيام أفراد المجتمع إلى تحبيس أملاكهم بواقع الحياة اليومية وطبيعة العلاقات والتقاليد السائدة في المجتمع الجزائري. والمتمثلة في طبيعة العلاقات بين الأفراد واحتياجاتهم المعيشية ومستواهم الثقافي ودرو المرآة ومكانتها في المجتمع الحضري والريفي على السواء [66].

المؤسسات الوقفية وأثرها في الحياة الثقافية والروحية:

إذا رجعنا إلى بعض وثائق يتضح لنا أهم المعالم التي كانت تفرضها مؤسسة في المجالات الدينية والقضائية ولا سيما ما يتعلق بـ:

- وضع قوائم للسلك الديني والتعليمي للجزائر، وذلك من خلال الإمضاءات والأحكام المثبتة في آخر العقود .التي تشمل عليها وثائق الوقف.

- تحديد ومنح ونفقات الهيئات التعليمية والدينية للجزائر في العهد العثماني والتي كانت تشتمل على العديد من الفقهاء والمدرسين والنظار والوكلاء وغيرهم وأن أغلب وثائق الوقف، تشير إلى ما كان يتقاضاه رجال السلك الديني والتعليمي.

- تسجيل أحكام المجلس العلمي المتصلة بقضايا الوقف والتعرف على تطبيق الأحكام الشرعية فيما يخص الإجراءات المتخذة في شأن الوقف [67].

66- د. ناصر الدين سعيدوني دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، 2000. ص21.

67 - د. ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية. دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، 2000. ص 186 - 187.

ذلك لأن تلك الأحكام الشرعية في حد ذاتها تعكس المستوى الثقافي والتعليمي لهيئة الموظفين في سلك القضاء.

- ضبط قواسم بأسماء المساجد والمدارس والزوايا والربط والمصليات والأضرحة كل هذه المعالم والمظاهر الوقفية، تؤكد لنا بأن الوقف بإعتباره ظاهرة حضارية وأداة إقتصادية ووسيلة إجتماعية ودافعًا ثقافيًا وروحيًا توضحه لنا من خلال معرفة الحياة الداخلية بالجزائر مثل الاحتلال الفرنسي.

فهو تعاملاً شرعيًا وإجراء قانونيًا، عاملاً مؤثرًا في الإدارة والحياة الثقافية والروحية وظاهرة اجتماعية وأداة اقتصادية.

موقف الإحتلال الفرنسي من الوقف في الجزائر

إعتبرت السلطات الفرنسية بالجزائر بأن مؤسسة الوقف تعتبر أحد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التي تحد من سياسة الإستعمار، وتتأنى مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها، وذلك لكون الوقف في حد ذاته جهازًا إداريًا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون مساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين.

وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها والاستلاء على الأحباس التابعة لها، باعتبارها أحد العوائق التي كانت تقف دون تطور الإستعمار الفرنسي.

وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول "بأن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافس مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر[68].

ولهذا السبب بالذات سعت الإدارة الفرنسية جاهدة لإصدار قرارات ومراسيم تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الأملاك المحبسة، هذه الحصانة التي

---

68 -zeys, cite par terras, essai sur les habaus eu Algerie et eu tunisie.Lyou 1899, p68.

لم يتردد أحد الكتاب الفرنسيين في وصفها، بأنها تشكل أحد العوائق التي لا يمكن التغلب عليها والتي تحول دون الإصلاحات الكبرى التي هي وحدها القادرة على تطوير الأقاليم التي أخضعتها أسلحتنا وتحويلها إلى مستعمرة حقيقية[69].

كان الهدف من تلك القرارات والمراسيم إدخال الأوقاف في نطاق التعامل التجاري والتبادل العقاري حتى يسهل على الأوروبيين إمتلاكها بعد أن وضع الجيش الفرنسي بالجزائر العاصمة في السنوات الخمس الأولى للاحتلال يده على27 مسجداً و11 زاوية ومصلى[70].

وكان أول قرار فرنسي يتعلق بالأوقاف قد صدر في 08 سبتمبر 1830 وتضمن بنوداً تنص على أن السلطات العسكرية الفرنسية الحق في الاستحواذ على أملاك موظفي الإدارة التركية السابقة وبعض الأعيان من الكراغلة والحضر بالإضافة إلى بعض الأوقاف التابعة المؤسسة الحرمين، وهذا ما أثار مخطط وإستنكار رجال الدين والعلماء وأعيان مدينة الجزائر الذين رأوا في هذا القرار إنتهاكا صريحًا للبند الخامس من معاهدة تسليم الجزائر(4 جويلية 1830) وكان في طليعة المحتجين المفتي الحنفي ابن العنابي والمفتي المالكي ابن الكبابطي مما حال دون مصادرة أوقاف الحرمين.

وبذلك أمكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الأوقاف وتشكيل لجنة لتسييرها تتألف من الوكلاء المسلمين برئاسة المقتصد المدني الفرنسي الذي أصبح يتصرف بكل حرية في ألفي وقف (2000) موزعة على مائتي (200) مؤسسة ومصلحة خيرية حسبما جاء في تقرير العام عن الأوقاف بتاريخ 10 ديسمبر 1835 [71].

---

69 -Blanqui: L'Algerie, Rapport sur la situatiau ecouomique, paris, 1840, p.288.

70 - د. ناصر الدين سعيدوني: نفسه. ص: 250.

71- A.O.M.F.80 1632, 2-30 seplembu 1842 .

الفصل الثالث

التصوف والرباطات

1- الطرق الصوفية والرباطات

المقدمة

يندرج هذا العمل المعنون بالطرق الصوفية والزوايا وأثرهما على البنية الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني في الجزائر، ضمن فرقة البحث المعتمدة من قبل المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة التحرير، والتي حاول أفرادها معالجة إشكالية هامة لا تزال قائمة في تاريخ الجزائر الثقافي، رغم إسهامات بعض المؤرخين في إثراء هذا الموضوع أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله.

ويرغم ذلك فإننا لا نزال حتى الساعة في أمس الحاجة الى الحبكة التاريخية والموضوعية لمعالجة مثل هذه القضايا الشائكة من تاريخنا الحديث وخصوصا الثقافي منه. ولهذا ارتأينا كمجموعة من الباحثين الوقوف عند هذه الإشكالية ودراستها بنوع من الموضوعية خصوصا إذا جمعنا ما يمكن جمعه من المادة الوثائقية، والمصادر الكافية التي تبعد الذاتية على كتابة التاريخ الوطني.

ولعل المراد من هذه الدراسة إضافة لبنة جديد للتاريخ الثقافي خلال العهد العثماني، وللوصول إلى ذلك حاول أعضاء الفرقة تقسيم الأعمال لتغطية جل الجوانب الثقافية، ولكن من نصيب معالجة الطرق الصوفية والزوايا وأثرهما على الحياة الثقافية في الجزائر خلال الفترة المدروسة، برغم شح المصادر والمراجع.

ولإنجاز هذه العمل العلمي، فإنني حاولت يقدر الإمكان أن أعتمد على المنهج البنائي حتى أقف عند حيثيات الموضوع الذي قسمته إلى مقدمة وتمهيد وفصلين أولها بعنوان : الطرق الصوفية والرباطات، وعالجت من خلاله مفهوم الصوفية والربط، والوقوف عند أهم الطرق الصوفية التي ساهمت في قضايا الدين

والمجتمع وحتى قضايا السياسة، وامتد تأثيرها إلى تزعم الانتفاضات والثورات الشعبية ضد حكم الأتراك بسبب تغلغلها في الأوساط الشعبية، وتمكنها من استمالة العامة وأحيانا الطبقة الفاعلة في المجتمع. وقد انعكس ذلك إيجابا على بنية المجتمع من الوجهة الدينية والثقافية، وأمكنه من الحصانة والذاتية التي من خلالها قاوم الفساد في السلطة، وظل على ما هو عليه حتى الوجود الاستعماري، ولاتزال هذه المرجعية حتى يومنا هذا.

أما في الفصل الثاني فقد اخترت له عنوان الزوايا والكتاتيب القرآنية والتي تعد هي الأخرى من القلاع الفاعلة في تاريخ الجزائر الثقافي، وكانت الزاوية لا تزال الحصن المنيع أمام سياسة الإلحاق والتغريب والذوبان، وما تم نزعت مفهوم الزاوية ومن الوقوف عند خصوصياتها وعلاقتها بالوقف الذي يعد مصدرا هاما في الحفاظ على استمراريتها وتمويلها المادي، وتقديم الخدمة الكافية للمريدين والطلبة وعابري السبيل، والخدمات الاجتماعية ونحوها كما عرجت أيضا على أهم الزوايا التي أخذت السمعة الطيبة ووقتها والتي ساهمت بالقسط الوفير في قضايا التعليم والثقافة والبناء الوطني وخدمة العقلية الجزائرية. ولذلك كانت حصنا منسقا أمام الدخلاء، بل تزعمت الزوايا المقاومة الشقية والمقاومة السلمية وأكبر دليل عمل ذلك تصدي زوايا بلاد القبائل السياسية الاستبيان والتنصير والذوبان خلال العهد الاستعماري.

وقد أنهيت العمل بخاتمة تمثلت في جملة من الاستنتاجات التي توصلت إليها خلال هذه الجهد المتواضع.

تمهيد

تمثل المنظومة الثقافية أحد الوجوه البارزة في حضارة الشعوب، باعتبارها النشاط الثقافي المتعدد الأوجه يعبر بصد عن البنية الحضارية التطور المجتمعات. ولعل التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر يزخر يمثل هذه المظاهر الحضارية، وخاصة في جانبها الثقافي والذي لا يزال في أمس الحاجة إلى الدراسة والتحليل والبناء.

ولعل مابين الحلقات التي تزال ناقصة في مراحل تاريخ الجزائر في اليوم، مرحلة الوجود العثماني في الجزائر، أو ما اصطلح عليه بالفترة الحديثة، وإذا كانت هناك العديد من الدراسات التي انصبت حول هذه الفترة، وبالخصوص من جوانبها العسكرية باعتبار أن الدولة العثمانية نشأت في البحر وقوية في البحر وماتت في البحر، فان الجوانب الثقافية تبقى غير كافية وحتى غير واضحة، فهناك من أيد الوجود العثماني وأعتبره خادما للقضية الجزائرية، ودحر الاسبان والبرتغال ونصر الإسلام على المسيحية، وهناك من أعتبر الفترة ضالة، وشكك في سياسة العثمانيين، واعتبر التواجد العثماني عقبة أمام تطور البناء الوطني، ومن تم حمل العثمانيين الضآلة وخصوصا العقم الثقافي.

والظاهر أن التاريخ لا يقف مع طرف دون الآخر، بل إذا كان للعثمانيين في الجزائر مزايا، فإن لهم أيضا نقائص، وهذا لا يحط من قيمتهم في شيء، وإذا كانوا دولة عسكرية، بهذا الجانب، فهذا لا يعني أنهم أهملوا تماما ميادين الثقافة التي تعددت جوانبها ومظاهرها، سواء في المساجد والكتاتيب، أو عن طريق رجال التصوف والزوايا والربط، وحتى المدارس وما ساهمت به الأوقاف الآسلامية في تثمين ذلك الزخم الثقافي، وقد اعتبر. البعض بنقمة كما أعتبر. البعض الآخر نقمة[1] وتبقى التساؤلات مطروحة دائما، حول هل كان للعثمانيين في الجزائر مشروعا ثقافيا ؟ وإذا كان كذلك فما هي المؤسسات الثقافية العثمانية التي أنجزوها وما هي برامجها ومضامينها ؟ وكيف تعامل العثمانيون مع الإرث الثقافي الذي وجدوه، ثم كيف كان موقفهم من الطرف الصوفية وكيف تعاملوا معها من حيث الآخر ؟ وهل نظم العثمانيون الأوقاف لخدمة الدين وصالح المجتمع، وهل كانت لهم منظومة تعليمية هادفة في برامجها وإطاراتها؟

ومما سبق ذكر، نجد أنفسنا أمام سلسلة من التساؤلات التي سوف يجبب عنها البحث، ويقف عند العديد من حيثياتها بغية المساهمة في كتابة التاريخ الوطني،

---

1 - لمعالجة هذه الإشكالية التاريخية والوقوف عند الكثير من حيثياتها مراجع الدكتور أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج1-2ط I. دار الغرب الإسلامي بيروت 1998.

واستكمال بعض الحلقات الناقصة في مراحل تاريخنا . ورصد الطريق أمام المشككين في تراثنا . وابعاد ثقافة النسيان وفتح الآفاق أمام تثمين الملكة التاريخية عند أجيالنا .

1 - مفهوم الطرق الصوفية

المرابطون والطرق الصوفية تعد من الجماعات الدينية الكبرى التي لعبت دورا بارزا وحساسا في حياة المجتمع الجزائري على مدى قرون عديدة ولاتزال أثارها بادية للعيان إلى يومنا هذه. الفئة النابعة أساسا من منبع ديني ومنتسبة إلى عقيدة الإسلام، وفيها المعتدلون ومنها المتعصبون، بل هناك من الغلاة في الدين، ومنهم المتشددون، بل هناك الزهاد في الدنيا والخادمون للآخرة.

وهكذا تعددت مشارب هذه الجماعة المتصوفة والمرابطية ومع ذلك عزف عن دراستها الباحثون والمهتمون، ويعود ذلك أساسا إلى تخوفهم من الحساسيات وأثارت غضب بعض الشيوخ والمريدين وحتى الأتباع والآعراش التي لا تزال متمسكة بهذه الطرق الصوفية حتى عصرنا هذا . ومع ذلك فإن هذه الشريعة من رجال الدين لا أحد منا ينكر مساهمتها الإيجابية في حقل التعليم والإرشاد والحصانة الدينية والفكرية، كما أن أطرافا منها ومن اشياخها من انتسب إليها بالولاية المزعومة قد أضل ضلالا وروج للبدع والخرافات باسم الكرامات وذلك لدوافع منفعية قد يكون لها ما يبررها في مجتمع ساذج لا يتعامل مع المنطق.[1] في غياب مشروع مجتمع مثلما عانت منه الجزائر عشية سقوط الدولة الموحدية وانقسام المغرب العربي إلى دويلات متناحرة وبروز التحرش الاسباني على سواحلها حتى بالاستنجاد بالتواجد العثماني وبروز رياس البحر وتطهير المراحل الجزائرية[2].

---

1 - العيد مسعود، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، عدد 10 أفريل 1988، ص4.

2 - Mouloud Gaid, L'Algerie sous les turcs, 2e édition (édition Mimouni .Alger 1991)P.33

أما الدكتور أبو القاسم سعد الله وهو من أبرز الذين بحثوا في التاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني، فقد خلص إلى تعريفه التصوف بقوله " وبناء على كل التعاريف المقبولة والمعقولة، فإن التصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط أساسية منها معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة والعلم بهما، والجمع بين العلم والعمل والسعي إلى المعرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته بالآضافة إلى التقي والورع والتجرد عن هوى النفس وحب الدين والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة وعدم التعاون مع الظلمة والمتجبرين "

ويشير سعد الله إلى أن توفر هذه الصفات ليست بالسهلة لدى الكثيرين من رجال الدين، لكنها كانت موجودة عند البعض في صيرورة تاريخ الجزائر الثقافي إلى أن يقول : ورغم أن هذه الشروط قد تبدو خيالية أو صعبة المنال، فإن الشواهد كثيرة على وجود من توفرت فيه أو كادت ولعل سيرة عبد الرحمان الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمان إلأخضري وعمر الوزان وأمثالهم خير شاهد على ذلك فهم قد أضافوا إلى العلم الزهد والتصوف والتجرد عن الهوى.[1]

والحقيقة أن تناول الطرق الصوفية لا يكون بمبعد عن معالجة موضوع المرابطية، وهي طائفة دينية أكتسب أصحابها السلطة الروحية بين الناس لأنهم اشتهروا بالكرامات أو انهم ينتسبون إلى ما اشتهر بها من أسلافهم، وهم في الغالب يمارسون وظيفة الشعائر الدينية أو خلق التعليم وإرشاد والتوجيه في المؤسسات دينية تحمل أسماؤهم أو أسم أحد أسلافهم[2].

وكان مصطلح المرابط يطلق على الشخص التقي الذي يلازم الرباط في الثغور لمراقبة العدو من جهة والدود على المنطقة، وللعبادة من جهة أخرى، ومع تطور الزمني أضحى اسم المرابط يثير إعجاب الناس لنسكه وورعة وهده في قضايا

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر الأول 1500-1830ط I (دار الغرب الإسلامي بيروت 1998 ص481.

2- RinnMarabouts et Khouan (Alger 1884) p.2

الدنيا حتى أصبح من المقديس، بل أصبح باسم المرابط يطلق على القبور وحتى على خلفائه فيما بعد.

وقد كان لانتشار الطرق الصوفية والمرابطية خلال العهد العثماني في الجزائر أثره الواضح على حياة العامة من الجزائريين، حتى كثرت المباني المتخصصة لهم، وخاصة خلال القرن 15م، وحسب دراسة للدكتور العيد مسعود، فان تلك الظاهرة مردها إلى المعتقدات القديمة التي بقيت حية في ظل الدين الآسلامي الحنيف، والى موجة التصوف التي عمت المغرب خلال القرن 15م كما يعود ذلك أيضا إلى فكرة المرابط تتجاوب مع العقلية البسيطة للقبائل الذين يكيلون إلى تمجيد المتصوفة لانه في اعتقادهم أن قدرتهم مردها إلى القوة الإلهية[1].

وقد انتشرت ظاهرة المرابطين في القرى والجبال أكثر من انتشارها في المدينة، ووجدت من يرحب بها بين القبائل والأعراش أكثر من فيها من أهل المدن، ولعل ذلك ما أشار إليه حمدان بن عثمان خوجة الذي عاصر الفترة الثقافة في أواخر العهد العثماني وبدية الاحتلال وتعد كتاباته من المصادر الهامة في تاريخ الجزائر المعاصر، وذلك يقوله. أن سطوتهم المرابطين الخارقة للعادة قد أثرت في أفكار البرابرة الضيقة إذ يدور لهم أن الله هو بذاته يسوق هؤلاء المرابطين ويأمرهم. وهكذا فعلى سخط أو على بركة المرابط تتوقف سعادة الشخص.[2]

2- أهم الطرق الصوفية

إذا كان اسم المرابط قد اقتصر على نطاق معين في الريف فإن حركة الطرق الصوفية قد شملت بلاد المغرب كما شملت أيضا بلاد المشرق الإسلامي، وقد أزدهر التصوف في المغرب بين أيام الدولة الموحدية، وخلفت الجزائر في عهود مختلفة بعدد من شيوخ المدارس الصوفية جاءوا إليها من الأندلس ومنهم من استقر فيه نهائيا كأبي مدين شعيب، ومنهم من عبرها في طريقة إلى المشرق إسلامي

---

1 – العيد مسعود، المرجع السابق، نقلا عن :

Depond (O) Les Confreries Religieuses Musulmanes, Alger, 1891. P. 131.

2 - حمدان بن عثمان خوجة،المرآة، ترجمة العربي الزبيري، ط2، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982) ص52

كابن سبعين وابن العرب ونحوهم[1] ومن ثم عقد كان لمدرسة أبي مدين الصرفية أثر بعيد المدى فمن حركة التصرف في الجزائر خاصة وفي المغرب بوجه خاص.[2]

وفي هذا العدد يذكر الدكتور سعد الله أن حركة التصوف في العهد العثماني تعتبر امتدادا للحركة التي بدأت قبلها بعدة قرون، وأن معظم كبار المتصوفين ومؤسسي الطرق الصوفية في التاريخ الإسلامي قد ظهر قبل القرن السادس عشر الميلادي. وقد أشار إلى ذلك يقوله: فالأسماء اللاحقة في عالم التصوف مثل الغزالي والحلاج وابن العربي وابن الفارض وجلال الدين الرومي والحاج بكداش وعبد القادر الجيلاني وغيرهم من ظهروا جميعا قبل هذا التاريخ[3].

والظاهر أن المغرب الإسلامي لم يكن هو بدوره بعيدا عن ظاهرة التصوف وظهرت فيه حركة دينية لا معة خدمت هذا الاتجاه، وظهر متصوفون لامعون قبل هذا التاريخ، وقد أشار سعد الله إلى بعض منهم أمثال الحسن الشاذلي وابن مشيش وأبا مدين وأحمد زروق وغيرهم، وقد تبعهم في ذلك عبد الرحمان الثعالبي، ومحمد الهوا ري وإبراهيم التازي وأحمد بن عبد الله ومحمد بن يوسف السنوسي[4] وغيرهم من المهتمين بالحركة الصوفية، وكانت منتشرة بل ومزدهرة على المستوى العالم الإسلامي مشرفة ومقربة قبل قدوم العثمانيين إلى الجزائر.

ولعل الدارس لمراحل التحول والاضطرابات التي أصابت العالم الإسلامي خلال القرنين 14 و15 يجدها مرتبطة أساسا بالجانب الديني، وأن قوة الدولة أو ضعفها مرتبط أساسا بمدى تطبيقها للشريعة الإسلامية. ولعل خير مثال على ذلك أن الوجود العثماني في المشرق أو المغرب الاسلاميين كان مبرر الدين الإسلامي، كما أن نشاط الطرقية ورجال الطرق في بلاد المغرب الإسلامي.

---

1 - حول هؤلاء الأعلام المتصوفة ومكانتهم الدينة مراجع، ابن مريم البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 108-156.

2 - Rinn OP cit P 211.

3 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، ص460.

4 – جمال الدين بوقلي حسن، الأيام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ط ة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985، ص5. وسعد الله المرجع السابق.

أزدهر كثيرا بعد ملامح زوال الدولة الموحدية وانتشر شكل أسرع خلال الضعف السياسي الذي أصاب كيان الدولتين الزيانية والحفصية في كل من الجزائر وتونس، وأصبحت المسؤولة كبيرة على رجال الدين والدود على حرمة الأراضي الإسلامية وحمايتها من الخطر الأجنبي والصليبي وخصوصا بعد ظهور التحرش الاسباني على سواحل الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط[1]. وقد لازم الضعف السياسي الذي اعترى المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة اهتمامات رجال الثقافي أيضا، ورصدوه في كتبهم ورحلاتهم وانشغالاتهم، ومن أمثلة ذلك ما احتوت عليه رحلة الشيخ البجائي إلى الحجاز خلال القرن 15م فقد عاصر العصر الخفي وساند إلى الشرق وظل يراسل أحد الفكر الثقافي وبعض الأعلام من وطنه الأصلي مثل مراسلة الفضل المشدالي المعنونة " برسالة الغريب إلى الحبيب " ومما تضمنته أنه لا يزال مرتبطا ببلاد المغرب العربي وخصوصا إقليم بجاية [2].

كما تعد أيضا رسالة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي[3] في الجهاد، خير مثال على ذلك، فالثعالبي عرف عصره بالاضطراب السياسي والاجتماعي، وكانت الجزائر

---

1 – في أواخر القرن الخامس عشر كانت سواحل المغرب الإسلامي مرتعا الفتن وموطنا للتحرش الصليبي وخصوصا الإسباني منه وبلغت الشيخوخة بالدول الإسلامية الثلاثة مبلغا أوصلها إلى درجة الفتن والموت، فدولة الحفصين بتونس قد ضعفت، ودولة عبد الواد في الجزائر انحطت إلى الدرك الأسفل، ودولة بني يومدين في فاس أكلتها الفتن وخلال هذه الفترة ظهرت القوة العثمانية الإسلامية أيام السلطان سليم الأول، وقدمت النجدة في المغرب الإسلامي، وتمكن الأخوين عروج وخير الدين من استرجاع سواحل كل من تونس والجزائر.

للمزيد أنظر أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1761 (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986) ص21.

2 – عن فحوى هذه المراسلة ومضمونها راجع، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع ط.I (دار الغرب الإسلامي 1998) ص2.

3 -كتب الحفناوي حول الشيخ الثعالبي يقول : الشيخ الإمام الحجة العالم الزاهد الورع ولي الله الصالح العارف بالله أبو زيد شهر بالثعالبي، صاحب التصانيف المفيدة لكن من أولياء الله المعرضين في الدنيا وأهلها ومن خيار عباد الله الصالحين " والثعالبي من مواليد 1384 م بمنطقة يسر شرق مدينة الجزائر العاصمة، وهو ينتمي إلى قبيلة الثعالبة العربية التي كانت لها فروع في سواحل الجزائر، درس في بجاية ثم في تونس وحج إلى بيت الله الحرام ثم عاد إلى تونس ومنها إلى الجزائر ومن تلاميذه محمد بن مرزوق والإمام السنوسي ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، وتوفى عن عمر يناهز 90 سنة أي في صدور سنة 1471 م.

للمزيد أنظر : أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط.I (مؤسسة الرسالة بيروت 1982) ص68

وقتها مقسمة بين بني حفص في الشرق وبني زيان في الغرب، ومما زاد في الاضطراب تهديد الأسبان والبرتغاليين والإيطاليين لسواحل المغرب الإسلامي.

وتعد رسالة الثعالبي إلى أحد طلابه بنواحي بجاية بحث فيها على ضرورة التعبئة للجهاد ضد الغزاة الصليبيين الطامعين في الأراضي الجزائرية وسواحلها كتابة وجيل والجزائر ووهران ونحوها، باعتبار أن بجاية تعد قلعة لذكريات الثعالبي، لذلك لا تستغرب أن يحرص على الدفاع عنها ويحث على الجهاد في سبيلها وبنفس الحماس الذي أظهره في الدفاع عن مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية الجزائرية[1].

ويتضح جليًا أن حركة التصوف خلال العهد العثماني قد انتشرت كثيرا ما بين القرنيين 16-19/، وقد شملت مختلف القطاعات ولم تكن مقصورة على طبقة المتنورين والقارئين ونخبة المجتمع، بل تعدته إلى جذب العامة من الناس، حتى كثر هذا الجو المفعم بالروحانية المدعون للتصوف والمتكسبون بالدين والولاية واختلط الحابل بالنابل، حتى أصبح المرء لا يفرق بين الاسلام الحقيقي والمتدع.

ولعل الدارس لتاريخ الجزائر الثقافي خلال هذه الفترة، وبالخصوص لقضايا الدين ورجاله، يمكن له أن يميز ثلاثة أنواع بحسب سعد الله[2] صنف العلماء الموظفين، والفقهاء المستقلين الذين غلب عليهم طابع التصوف وهم في الغالب لا يميلون إلى طلب الوظيفة أو التقرب من البلاط إلا إذا أجبروا على ذلك وأدمجوا في هرم السلطة، أما الصنف الثالث فيضم المتصوفة الذين كانوا يدّعون العلم والمنتسبين إلى الولاية لغرض من الإغراض، بحكم ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية دفعت بهم إلى الزعامة والظهور، أو بسبب المال والسلطة والجاه.

ومما سبق ذكر يمكن أن نميز بين المرابطين والطرق الصوفية وأن هناك أوجه الشبه بينهما كما توجد بينهما أوجه الاختلاف أيضا، بحسب الدراسة التي توصل إليها الدكتور العيد مسعود، فأما عن أوجه الشبه فهي كما يلي :

---

1 - عن مضمون هذه الرسالة راجع : أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981) ص201.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج I، ص481.

1- يدين أتباع كلتا الجماعتين بالولاء التام والإيمان الكامل والانقياد المطلق للمرابط وشيخ الطريقة.

2- المرابط وشيخ الطريقة يعدان من الأولياء الصالحين في نظر المؤمنين بهما.

3- المرابط وشيخ الطريقة يستمد كل منهما نفوذه على اتباعه من القدرة الخارقة للطبيعة والإتيان بما يعجز عنه البشر عادة.

4- الرابط وشيخ الطريقة يرتكز كل منها إلى العلم الديني، فالأول عن طريق البركة الموروثة أو المكتسبة، والثاني عن طريق الاتصال الذي يحصل له بالتنسك والمجاهدة، فالمنبع والمضمون يكاد يكون واحدا، الفيض الإلهي والطريق إلى الله، على أن المرابط حينما تحول إلى مرابط وشيخ طريقة أصبح يجمع بين المزايا الروحية للمرابط وشيخ الطريقة.

5- الزاوية المريطية والزاوية الصوفية يجتمعان في نقطة واحدة وهي وظيفة التعليم ونشر المعرفة.

أما عن أوجه الاختلاف فهي كثيرة أيضا رتبها العيد مسعود بدوره في النقاط التالية:

1 - أن المرابط في الريف كانت له دائرة نفوذ لا تتجاوز نطاق القبيلة، بينما لا ينحصر نشاط الطريقة في منطقة معينة تتعدى القبيلة إلى العرش إلى الإقليم فالدولة.

2 - ليست للمرابط ورد أو أذكار بخلاف طريقة الصوفية التي تربط المريد بالورد الخاص بالطريقة وكذا الأذكار المحددة الواضحة.

3 - إن المرابط في الغالب ينتمي إلى القبيلة انتماءا حقيقا أو عن طريق الولاء، في حين أن شيخ الطريقة لا تربطه بالقبيلة إلا الرابطة الروحية.

4 - إن أتباع المرابط يقدمون له الأموال والهدايا بمحض إرادتهم بينما تفرض الطريقة الصوفية على اتباعها المعونة العينية أو النقدية بعدما تحددها بنفسها.

5- أن الطرق الصوفية تقوم بالدعوة بين القبائل، ولهم دعاة بينما لايقوم المرابطون بأي نشاط من هذا القبيل ونشاطهم ذاتي محدود.

6 - تنتقل الرياسة عادة لدى المرابطين إلى ذريتهم من بعدهم بحكم انتقال البركة إليهم أبا عن جد، بينما يتولى رياسة الطريقة الصوفية أصلح المريدين من تلاميذ الشيخ ومعاونيه، ولاسيما ممن يكونون قد تولوا في حياته منصبا في الطريقة.

7- الطرق الصوفية لها نظام إداري يشبه بالأنظمة الإدارية للحكومات ولا سيما فيما يتصل بالمناصب وجباته المـال وتسخير الاتباع في استثمار العقار والأراضي والاحباس على زاوية الطريقة، كما أن الطرق أسرار كأسرار الدولة. بينما لا يوجد من سبق ذكره عنده المرابطين.[1]

ولعل لهذا الاختلاف الواضح أحيانا وللتداخل المدير أحيانا أخرى لدى كل من الصوفية والمرابطية ما جعلهم محل انتقاد لاذع، من الطرف العديد من رجال الدين المشهورين أمثال عبد الكريم الفقون ومحمود ابن العنابي وقد حكما على هؤلاء المتصوفة بالزنادقة والمشعوذين لأنهم ساهموا في إبقاء التخلف العقلي والاجتماعي عند المسلمين، فبرغم انتساب بن الفقون إلى الطريقة الشاذلية إلا أنه لم ينكر التصوف، ولكنه يرى أن أهل عصره اتخذوا به إلى الدرك الأسفل وبذلك أساؤا فهمه وحولوه إلى الحضرة والزردة إذ تقرع فيه الطبول ويقام فيها الرقي على أنغام الصخب والموسيقى والإنشاد التي تصب في البدع والخرافات، كما اتهم كذلك بن الفقون هذه الجماعة بسلب العامة أموالها وتخدير عقولها وتعطيل الأعمال التي أمر الله بها.[2] وبذلك كان عملها باسم الاسلام السطحي.

وبرغم ذلك فقد انتشرت عائلات المرابطين خلال العهد العثماني وظلت سارية المفعول حتى بعد الاحتلال الفرنسي، فبعد نصف قرن من الاحتلال نشرت دراسة

---

1 - العيد مسعود، المرابطون والطرق الصوفية، المرجع السابق، ص19.

2 - ابو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون واعية السلفية، ط قدار الغرب الإسلامي بيروت 1986) ص113.

حول الموضوع المرابطين والزوايا من طرف أحد الباحثين الفرنسيين والمدعو لويس رين مفادها زنه في اعتقاد العديد ن الجزائرين أن حركة الجهاد مرتبطة أساسا بالمرابط، وقد أشارت الدراسة إلى أن الجزائر وقتها كانت بها 115 عائلة مرابطية منها 20 في إقليم وهران و55 في إقليم الوسط، و40 في إقليم قسنطينة دون ذكر الجنوب الذي لم يخضع بعد للاحتلال، ولاحظ رين أن المرابط كانت له سلطة عظيمة ونفوذا قويا فاق سلطة السلطة الزمنية في الكثير من الأحيان.[1]

أما الدكتور سعد الله، فقد ذكر هو الآخر أن عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر بلغ أكثر من 26 طريقة منها حوالي أربعة نشأت في العهد الاستعماري كالسنوسية والعليوية والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني[2] ونحن هنا لا يمكننا أن نقف عند دراسة حيثيات جل هذه الطرق نظرا لكثرتها وتفوق فروعها ولكننا نسعى من خلال هذا المسح الثقافي إلى تبيان أهمها مع توضيح آثارها ونتائجها على المجتمع الجزائري من الوجهة الروحية والدينية، ومن الوجهة السياسية في بعض الأحيان.

ولعل الدارس للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني يجد بعض هذه الطرق تأسس خارج الوطن، ولكن معالم هذه الطرق وروحانياها دخل إلى الجزائر وأكسبت إليها العديد من المريدين والإتباع وطل كذلك في خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي ولا يزال إلى اليوم.

ولعل من بين الطرق الرئيسية المؤسسة في الجزائر نذكر الطريقة الرحمانية والتجانية أما الطيبية والدرقاوية والعيساوية فقد تأسست في المغرب الأقصى، وهناك ما هو مؤسس في بلاد الشرق الإسلامي كالطريقة القادرية أما الطريقة الشاذلية فمكان مقر ميلادها بتونس، أما الطريقة الشابية والمدنية فقد نشأت في طرابلس بليبيا.[3]

---

1 - Rinn OP cit ,P 14.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع 1830-1954. ط1 (دار الغرب الإسلامي بيروت 1997) ص28.

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 28.

وإذا كانت الكثير من الطرق الصوفية قد تأسست ببلاد المغرب الأقصى أو من خارج الجزائر، فإن تأثير هذه الطريقة وصل إلى الجزائر وانتشر في العديد من مناطقها وذلك عن طريق طلب العلم والمعرفة وحتى من خلال الرحلات التي كانوا يقومون بها الجزائريين إلى الأماكن المقدسة وإلى الكثير من المدن الثقافية التي ازدهرت بها العديد من دور العلم والفكر والتقوى سواء كان ذلك في المغرب الأقصى أو بلاد تونس أو القاهرة أو الحجاز أو بلاد الشام وحتى إلى تركيا باعتبارها مقر الخلافة الإسلامية.

وكان الجزائريون يقصدون هذه البقاع لشح بلدهم من الثقافة والعلم والمعاهد العليا والجامعات، ومن تم فقد اقترن تعلمهم بالآخذ من تاريخ هذه المؤسسات الثقافية والتزود بالفكر الديني والصوفي، والتأثير بالمبادئ الصوفية والطرق الدينية التي كانت سائدة هناك، بل ونقلوها إلى بلادهم ذلك التصور والثقافة التي احتكوا بها، وأدخلوها إلى بلدهم خلال عودتهم إليها، بل ونشروا الكثير من مبادئها.

فعلى سبيل المثال كان المغرب الأقصى أنه كانت حدوده مفتوحة على الجزائر يعد مركزا هاما لنمو الطرق الصوفية منذ سقوط الأندلس وما أحدثه من حزن عميق لدى المسلمين وظهور الضغط الصليبي منذ بطش المسيحيين الذي تمثل في احتلال الاسبان لثغور الجزائر[1]، وبالتالي ظهرت به مدارس صوفية عديدة أثرت بالقسط الكبير عل إقليم الغرب الجزائري، كما عرف الشرق الجزائري أيضا تأثيراث جاء من تونس بعدة طرق ولا سيما الشابية منها التي هزت الشرق الجزائري سواء أكان دلك بالحروب أو الدروشة أو الصوفية.[2]

ويذكر الدكتور سعد الله أن الجزائر قد حل بها خلال العهد العثماني العديد من المدرسين والعلماء والدراويش من بلاد المشرق العربي أمثال الملأ علي الذين أقاموا في قسنطينة ثم في الجزائر، والشيخ فتح الله، ومحمد تاج الدين ونحوهم، وكانت العديد من الأفكار والمذاهب تتسرب وتنتقل مع هؤلاء وتنتشر بين طبقات المجتمع الجزائري. كما أسهمت قوافل وحجاج بلاد المغرب التي كانت تزور البقاع

1- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، عدد 3، ماي سنة 1980، ص 58.

٢- سعد الله، تاريخ العدواني، ط1، (دار الغرب الإسلامي 2005) ص105.

المقدسة خلال كل سنة في نقل العوائد والتقاليد والتيارات الدينية والصوفية التي كانت منتشرة ببلاد المشرق العربي والإسلامي، سواء في بلاد الحجاز أو في مصر أو في بلاد الشام. وكان الحجاج الجزائريون كثيرا ما يستقرون لشهور عديدة في تلك البقاع، ومن تلك الأمثلة ما أخذه محمد بن عبد الله خلال تواجده في مصر عن طريقة الخلوتية التي كانت منتشرة بشكل كبير في بلاد المشرق الإسلامي[1].

وكذلك ما أخذه الأمير عبد القادر مع والده خلال زيارتهما للحج سنة 1825، فبعد أداء فريضة الحج توجه مع الركب الشامي ومكث في دمشق عدة شهور وجلس إلى حلق العلم والتدريس في الجامع الأموي، وهناك تعرف على مشاهير العلماء والأعلام ومنهم الإمام المحدث عبد الرحمان الكزبري (1771–1746) الدمشقي الشافعي[2] كما أخذ الأمير عبد القادر خلال إقامته بدمشق عن الطريقة النقشبندية التي خدمها العارف بالله الشيخ خالد النقشبندي الشهروردي (1779–1827)،وكان الأمير وقتها يتردد كثيرا عليه، وأخذ عنه علوم التصوف والتوحيد والعلوم الدينية.[3] ثم سافر الأمير إلى بغداد وزار ضريح العالم الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني الذي ذاع صيته في بلاد الشام، بل في بلاد الإسلام قاطبة.

وتذكر المصادر التاريخية أن الأمير عبد القادر أخذ الإجازة بالطريقة القادرية كما لبس خرقة التصوف من يد الشيخ محمود القادري الكيلاني نقيب الأشراف وخليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني.[4] وبعد عودة الأمير إلى أرض الوطن أدخل معه الطريقة القادرية، كما لازم الخلوة في القيطنة، ولم تفارقه كتبه إلا إذا خرج للصلاة، وكان شغوفا

---

1 – للمزيد عن ذلك أنظر :الطريقة الرحمانية لاحقا.

2 – هو أبو المحاسن وجيه الدين عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان الكزبري الدمشقي الشافعي،عالم محدث من مواليد دمشق وتوفي خلال أداء فريضة الحج في مكة المكرمة للمزيد أنظر: كحالة، معجم المؤلفين، ج5،ص177.

3 – أبو البهاء ضياء الدين مولانا الشيخ خالد بن أحمد بن الحسين الشهروردي الكردي الشافعي عالم بارع في الحديث والفقه والأصول والتصوف توفي في دمشق، ومن آثاره : الرسالة الخالدة في آداب الطريقة النقشبندية للمزيد أنظر : الزركلي، الأعلام، ج2، ص334.

4 – فؤاد صالح السيد،الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ط1(المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985)، ص42.

بمطالعة كتب العلوم والفلسفة كرسائل إخوان الصفا، وغيرها من كتب المتصوفة، ورجال الدين الذين تأثر بهم خلال رحلته لبلاد الشرق الذين اهتموا بفكر التصوف[1].

ولهذا فقد عرفت الجزائر خلال الفترة العثمانية انتشارا للعديد من الطرق الصوفية التي تناولتها الكثير من المصادر، ولعل أهمها ما قام به السيد لويس رين الذي كانت له دراية واسعة بأحوال الجزائريين، إذ كان خبيرا بالشؤون الأهلية، كما عامل مستشار مع الحكومة العامة وقد ألف سنة1884 كتابة بعنوان: مرابطون وإخوان أعطى من خلاله مسحا قيما عن الطرق الصوفية كما قدم من خلاله إحصائيات حول عدد الزوايا والإخوان والمريدين وبعض الأوقاف[2]. وبرغم أن التأليف صدر بعيدا من حيث الزمن المراد دراسته، إلا أنه أعطى معلومات دقيقة ومفيدة عن الحالة الثقافية والدينية في الجزائر خلال العهد العثماني ولذلك اعتبره الكثير من الباحثين أنه من بين أهم المصادر التي سلطت الأضواء على الفترة العثمانية.كما أورد رين جدولا هاما يوضح من خلاله الحياة الدينية والصوفية كما هو مبين أدناه.

النوع	العدد	الملاحظة
عدد سكان الجزائر	2.842.000	العدد غير صحيح إذ يذكر جان ميرانث مدير الشؤون الأهلية أن عدد السكان الإجمالي وصل سنة 1886 إلى 2.3.264.879
الطرق الصوفية	16	العدد قليل مقارنة بما ذكره ديبون وكوب ولاني أن العديد بلغ 23طريقة.
الزوايا	355	أهم الزوايا من دون ذكر العديد منها كان بالمداشر والقرى وخصوصا في الصحراء.
الأخوان	169.000	/[3]

1 - يحي بوعزيز.الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري. ط2. (مطابع دار الفكر دمشق 1964) ص8.

2 - Jean Mirante La France et Les œuvres Indigènes en Algérie (Publicationsdu comite National Métropolitaine du centenaire de LAlgerie), p20.

3- Rinn OP Cit.p54M

ودائما حسب الدراسات الفرنسية فإن الطرق الصوفية التي ظهرت خلال القرن 16 ظلت على انتشارها الأوسع خلال النصف الثاني من القرن 18وبداية في القرن 19 وأهمها هي الطريقة القادرية والرحمانية والتجانية والدرقاوية والشاذلية، وقد تعايشت هذه الطرق الصوفية منذ بداية نشأتها مع المرابطين لكن ما لبث أن وقع الطلاق مع بعضها خلال القرن 18بسبب اهتمام أبناء المرابطين بالإرث المادي المكتسب والعيش للغد، والانغماس في الثرى والحريم وإهمال الدعوة والإرشاد إلى الله وترك حياة الزهد والتقشف، وإتباع الدنيا على حساب الآخرة.[1]

وكما أشرنا سابقا فإنه لا يمكن دراسته جل الطريقة الصوفية التي ظهرت في الجزائر بل نحاول أن نقف عند أهمها والتي كان لها انتشرا واسعا ولعبت الدور المنوط في الحياة العامة بين الجزائريين ومن بين هذه الطرق نذكر:

1/ الطريقة القادرية

تأسست في بغداد في القرن الثاني عشر،ومؤسسها هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسني أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني (1078-1166) وهو من كبار الزهاد للمتصوفة، ولد سي الجيلاني بضواحي طبرستان، فعد من علوم التصوف وبرز في أساليب الوعظ وإرشاد وخدم طريقة حتى خرج صداها إلى بلاد آسيا، توفي في بغداد وترك مصنفات هامة في قضايا الدين والتصوف منها جلاء المخاطر في الظاهر والباطن، والفتح الرباني والفيض الرحماني، وآداب السلوك والتوصل إلى منا زل السلوك وغيرهم من المصنفات العديدة.[2]

الظاهر أن الطريقة القادرية قد وصلت إلى الجزائر خلال القرن 15 وتولى نشر مبادئها قطب الصوفية الشيخ سيدي شعيب بومدين من مدينة بجاية خلال زيارته للمشرق الإسلامي،فأخذ من أعلام علمائها واستفاد من زهادها وأوليائها وتعرف

---

1 - Mirante .Op..Cit..P70

2 – عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين،ج 5.(مطبعة الترقي دمشق ص:207. وكذلك خير الدين الزر كلي، قاموس تراجم الإعلام، ج 4، (دار العلم للملايين بيروت1981) ص171.

في رحلته بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه في الحرم كثيرا من علوم الحديث وألبسه الخرقة وأودعه كُثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعد أفضل مشايخه الأكابر.[1]

ثم توسعت الطريقة إلى الكثير من مناطق الوطن وكثر إتباعها، ووصلت مبادئ الطريقة إلى زاوية كنتا بأدرار بالجنوب الغربي من الجزائر.[2] وسوف نخصص للمنطقة دراسة خاصة لاحقً.

وكانت الزاوية الأم ببغداد لها العديد من الفروع في الجزائر وحسب ما ذكره سعد الله فإنه أول من أسس فرعا للقادرية في الجزائر هو الشيخ مصطفي بن مختار الغريسي سنة 1785م.

وللقادرية بالجزائر زوايا عديدة وأضرحة وقباب ومساجد في الجزائر وبجاية وتلمسان وقسنطينة ولها أوقاف كثيرة كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد وبقي الحال كذلك حتى العهد الفرنسي.[3]

ومما لا شك فيه أن مبادئ القادرية انتشرت إلى حد كبير بين الجزائريين، وأصبح ذكر سيدي عبد القادر الجيلاني على أشده بين الجزائرين وكانت لها أربعة فروع في الجزائر، وهي منتشرة على مستوى القطر الجزائري ولها 33زاوية، و521 طالبا وأربعة شيوخ و301 مقدما و056 21أخوانيا و695 2 خونية.[4]

والذكر عند القادرية هو ذكر الله وحده، وقد ذكر محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية أن أهل القادرية أثناء الحضرة يقرؤون أيضا الفاتحة بعد الصلوات الخمس ويصلون على النبي (ص) عدد121 مرة في شكل جماعي ويذكرون عبارة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر 121 مرة ويقرؤون سورة

---

1 - الحفناوي، تعريف الخلق،ص 182.

2 - بلغ صدى الطريقة إلى موريتانيا ومنها إلى قبائل الولوف بالسنغال وقبائل النيجر ومالي ونيجيريا والكاميرون والطوقو وغينيا ويعد عثمان بن فودي مؤسس دولة نيجيريا من أهم أتباعها .للمزيد أنظر صالح بن القبي، الدبلوماسية الجزائرية بيت الأمس واليوم (مطبعة (Aneb2000) ص119.

3 - سعد الله، ت.ج.ث.ج1، ص42.

4 - نفسه تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص294.

ياسين، وحسب ما ذكره رين فإن دعاة الطريقة القادرية يفسرون طريقتهم بكونها هي العلم والأخلاق والصبر والإتقان وغايتها هي ذكر الله والصدق والابتعاد عن شؤون الدنيا وأن تعاليم القادرية وفلسفتها مشتركة لينها وبين الطرق الصوفية الأخرى، ومن ثم اعتبروها بمثابة قاعة لمختلف الطرق التي جاءت من بعدها.[1]

وقد أشرنا في السابق إلى أن القادرية انتشرت في العديد من مناطق الوطن فقد كانت لها علاقة وطيدة بزاوية الكاف بتونس وزاوية كنته القادرية الأصل في الجنوب الغربي.[2] ومن أبرز رجال المختار الكنتي المتوفى سنة 1826 م وقد امتدت منطقة تمبكتو تحت بناية الشيخ أحمد البكري وقد لبثت الطريقة القادرية دور المنوط بها في الجهة الجنوبية لقرية من الصحراء خصوصا خلال القرن 15 بزعامة الشيخ عبد الكريم المغيلي مؤسس الزاوية القادرية بتوات.[3] وكان منهجه في الدعوة على العلم والمستنير بالقرآن والسنة وحارب الابتداع في الدين والله وقاله في أرجوزته المشهورة:

صفة الجهل في هـذا الزمـــان الترك للحق وقلة الأمان

الأمر بالمعروف عندهم غريب واتباع السنة عندهم معيب[4]

ويقول سعد الله أن الطريقة القادرية حدث لها ما حدث للكثير من الطرق الصوفية، بعد أن اخترق صفوفها رجال المخابرات الفرنسية، وبذلك استطاعت توظيفها لمصالحها سواء في التوسع نحو الصحراء أو إخماد الانتفاضات ونحوها وبذلك انتقلت الطريقة الروحية إلى طريقة سياسية تعاونت في العديد من المرات مع الحركة الاستعمارية.

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج ، ص44.

2 – محمد حوتية، رسالة ماجستير حول الطرق الصوفية، جامعة الجزائر.

3 – فرج محمود فرج، أعلم توات خلال القرن 18و19م (ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984)، ص109.

4 – عبد الرحمان شيبان، مآثر محمد عبد الكريم المغيلي من أجل الوحدة الإفريقية والوحدة الإسلامية مجلة الثقافة، عدد 88، جويلية وأوت 1985 ص69.

2/الطريقة الرحمانية

تأسست خلال القرن 18م نسبة إلى محمد بن عبد الرحمان الأزهري الجرجري الملقب ببوقبرين[1] من قرية أيت إسماعيل ببلاد القبائل، بدأ دراسته بزاوية الشيخ الصديق بن أعراب بأيت ايراثن ثم عمق دراسته في الجزائر العاصمة سنة 1739م ثم حج إلى البقاع المقدسة ثم مكث في الأزهر الشريف ومن أساتذته سالم الغفراوي وعامر الفحلاوي وحسن الجدي والشيخ العمروسي، وقد رجع إلى الجزائر سنة 1770ونشر تعالم طريقته (الخلوتية)التي أخدها من مصر والهند والسودان، وبعد أكثر من ثلاثين سنة من بعده وغيابه عن الجزائر التي عاد إليها سنة 1770، وأخذ في نشر الطريقة الخلوتية في بلاد القبائل وما جاورها، وامتدت شهرته ومبادئ طريقته إلى الجزائر العاصمة التي انتقل إليها شيخ الطريقة الرحمانية وألقى دروسا في منطقة الحامة، لكن نشاطه أقلق الإدارة العثمانية وأعوانها، وبذلك أمرت رجال الدين الموظفين بمراقبة الشيخ محمد بن عبد الله، بل أمرت أيضا بتأسيس مجلس خاص لإبطال دروس الطريقة الرحمانية، وقد تحقق لها ذلك الهدف بعد أن أصدر المجلس برئاسة الحاج علي عبد القادر ابن الأمين المفتي المالكي فتوى مفادها أن دروس محمد بن عبد الله مخالفة للسنة النبوية الشريفة. هي بدعةجديدة عن الدين الاسلامي الحنيف.

والظاهر أن هذه الفتوى لم تجد صداها عند أتباع ومريدي الطريقة الرحمانية.

---

1 - حينما توفي محمد بن عبد الله سنة 1793م فكرت الإدارة العثمانية في نقل جثمانه بعيدا عن أتباعه ببلاد القبائل، ويدفن في العاصمة كي لا يصبح قبره قبلة للزائرين، ويحكى أنها دبرت لذلك خطة لسرقة جثة الشيخ، وأرسلت لذلك بعض الإخوان إذ تظاهر بعضهم بتقديم التعزية في حين تسلل الفريق الآخر لنبش القبر غير أن حيطة سكان المنطقة أفشلوا الخطة، غير أن عبد الرحمان الجيلالي يذكر الأسماء التي سافرت لسرقة جثمان الشيخ وهي مكونة من أتباعه منهم الشيخ سيدي محمد العمالي ومحمد بن عبد الرحمان والحاج موسى بن شايب، ونقل هؤلاء الجثمان ودفنوه بالحامة في حين يرى حمدان خوجة أن الشيخ محمد بن عبد الله دفن أولا في الحامة ثم سرقت جثته ودفن في قرية كرومة قرب قليسة ببلاد القبائل. وبذلك يعتقد البعض أن جثة الشيخ سرقت من بلاد القبائل ودفن في الحامة بذلك أصبح يلقب ببو قبرين قبر في بلاد القبائل وقبر في الحامة بالعاصمة.

بل أكثر من ذلك عرفت بلاد القبائل من جراء المناورة على نشاط محمد بن عبد الله مظاهرات عارمة دفعت بالسلطة العثمانية إلى المطالبة مجددا من المجلس المشكل آنفا إلى إصدار فتوى أخرى تلغي مفعول الفتوى الأولى.

وبرغم ذلك، ونظرا لكثرة الدسائس تجاه الطريقة الرحمانية بالعاصمة وتعفن الأجواء كل ذلك دفع بشيخ الطريقة الرحمانية إلى العودة من جديد إلى منطقة أيت سماعيل ببلاد القبائل حيث تابع دعوته هناك، وتذكر المصادر التاريخية أن شيخ الطريقة ترك قبل وفاته سنة 1793 وصية مكتوبة تنص على من سيخلفه وهو الشيخ علي بن عيسى المغربي.[1]

والطريقة الرحمانية خلوتية، وهي تستمد تعاليمها من الطريقة الشاذلية ومن مبادئها ما ظهر في إجازة الشيخ عبد الرحمان الأزهري لخليفته علي بن عيسى، وقد تبين الورد الذي يجب على التلميذ أن يعطيه لغيره من الإخوان، الورد هو : «لا إله إلا الله هو حق حي قيوم قهار» وذلك في كل وقت ولا سما عند عصر الجمعة إلى عصر الخميس، ثم يذكر عبارة «اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه وسلم، بعدد 80 مرة بشرط أن يكون على طهارة، كما أخذت الطريقة الرحمانية سبعة من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين وهي الله هو الحق والحي والقيوم والعلام والقهار.[2]

كانت الطريقة الرحمانية أكثر الطرق انتشارا إذ بلغ عدد زواياها 177 زاوية، و676 طالبا و22 شيخا و873 مقدما و849 شاوشا و140.596أخوانيا، و13.186 خونية.

ولها أبناء كثيرون في تونس وبلاد الشام بعد هجرة أهالي منطقة زواوة هروبا من القهر الاستعماري وخصوصا بعد فشل انتفاضة الشيخ المقراني سنة1871.[3]

أما العيد مسعود فيرجع هو الآخر سر نجاح الطريقة الرحمانية، ويقول عنها أنها امتازت بالخاصية الشعبية وعمقت من علاقاتها مع الطبقات العديدة في

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص294.

2 – نفسه، ت.ج.ث.، ج4، ص174.

3 – نسيب محمد، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر الجزائر، ص154.

المجتمع الجزائري وخارجه وذالك ما أكسبها الأنصار والمريدين خارج الجزائر، وخاصة في بلاد السودان الغربي.[1] وانتشرت في أقاليم عديدة من الصحراء الجزائرية وكذلك في الدول الافريقية.

إن الطريقة كانت سريعة الانتشار بين الشباب بالجنوب حتى بلغ بها حوالي 86000 مريدا، وتركز نشاطها بالضوحى في منطقة الزيبان التي روجت لها كثيرا زاوية طولقة.[2] وأصبحت العديد من الزوايا تابعة للطريقة الرحمانية أهمها زاوية بلحملاوي بوادي العثمانية بميلة وزاوية شلاطة ببلاد القبائل وزاوية الهامل ببوسعادة وزاوية طولقة بسكرة.[3]

وهناك بعض الدراسات مع بداية القرن الماضي حول الحياة العامة في الجزائر تؤكد أن الطريقة الرحمانية هي الطريقة الأكثر انتشارا في بلاد القبائل وضوحيها خاصة في منطقة قرقور بزاوية صدوق ثم تليها الطريقة القادرية فالشاذلية ثم تأتي الطريقةالطيبية ثم الحنصالية.[4]

3/ الطريقة التجانية

مؤسسها أبو العباس أحمد بن محمد المختار التجاني[5] الأقصى وأخذ عن علمائها أمثال الشيخ الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية وللشيخ محمد بن عبد الله التزالي صاحب الطريقة الناصرية أحد تلاميذ الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية، وهو من موالي عين ماضي بالأغواط التي درس بها ثم أرتحل طالبا العلم

---

1 - العيد مسعود، المرجع السابق، ص13.

(2)Gehepal .p.J.Andri ,Prface De M.J.Soustelle ,contribution a Létudes Des Confréries religieuss Musulmanes (La Maison Des Livres Alger 1956)p27.

3 - حميدة عميراوي، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827-1840،ط1(دار البعث قسنطينة 1987) ص65.

4- F.O.Poisson ,La Vie Algérienne, bultin De l'enseignement Des Indigénes de l'académie D'Alger ,No302,47eme ,Année Janvier -Juin 1939,P 13.

5 - عالج موضوع التجانية الطالب الباحث تلمساني بن يوسف في أطروحة الماجستير بعنوان الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (1782-1900) ونال بها صاحبها درجة مشرف جدا سنة 1998 والأطروحة في أمس الحاجة للقراءة لفائدتها التاريخية.

إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وقد أخذ عن علمائها أمثال الشيخ الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية والشيخ محمد بن عبد الله التيزاني صاحب الطريقة الناصرية، ومن فاس دخل التجاني إلى الجزائر وتجول بمناطق في الصحراء ونزل في مدينة تلمسان ثم منطقة البيض ثم عين ماضي،لكن سياسة ومعاملة السلطة العثمانية لم ترقه، وهاجر إلى الحج مارا بمنطقة زواوة التي أخذ عنها الطريقة الخلوتية، وبعد أن قضى سنتين في المشرق العربي عاد الشيخ التجاني إلى تلمسان وانعزل عن المدن،كما زار أيضا منطقة توات بالجنوب الغربي من الجزائر.

ويذهب أتباع الطريقة أن السيخ أحمد التجاني قد أحس بالفتح حينما كان بقرية أبي صمغون، ويقصد بالفتح رؤية الرسول (ص) الذي أذن له بتلقين الخلق، ويرى التجاني أن الرسول (ص) هو سنده في الورد المعلوم. أما المستجدات العشر فأخذها مشافهة عن محمد الكردي المصري وأحزاب الشاذلي وطبقة زروق ودلائل الخيرات، والدور الأعلى فأخذها بالإجازة عن القطب محمد بن عبد الكريم السمان قاطن المدينة المنورة.[1]

وكانت الطريقة التجانية منتشرة في الصحراء والمنطقة التلية والهضاب العليا والجزائر وتذكر المصادر التاريخية أن التجانية كان بها 32فرعا و165 مقدما، و162 شاوشا، 19.812 اخوانا، و5.164 خونية أو امرأة، ومنذ سنة 1897 أصبح للطريقة التيجانية فرعان، الأول في عين ماضي والثاني في تماسين ولكل فرع من هذه الفروع شيخه الخاص[2] وهناك من يقول أن التجانية كان لها فرع ثالث في مدينة فاس المغربية.[3]

والظاهر أن هذا الصراع والاختلاف الذي تجلى بين فروع الطرقة التجانية قد انعكس عنها سلبا وقلص من نفوذها أكثر ما وسع من أتباعها ومريديها، وقد أشار إلى ذلك بشكل واضح السيد رين بقوله:"إن الطريقة التجانية أخذت الصبغة

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، ص512.

2 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج 4، ص294.

3 – بن العقبي، المرجع السابق، ص 120.

الأرستقراطية، إتبع طريقتها العلية من الناس كبعض سلاطين المغرب مثل السلطان عبد الحفيظ وبايات تونس وطبقة التجار والأعيان.[1]

وبرغم ذلك فإن أنصار الطرقة التجانية كانوا بكثرة في الجنوب التونسي، وظلوا على ارتباطهم بالطريقة بعد دخول الفرنسة إلى الجزائر بل ساهموا في خدمة الانتفاضات داخل تونس ومنها ثورة على بن غداهم ضد العثمانيين سنة 1864 التي كانت لها ارتباطات ريفية بزاوية تماسين التي كانت تحت مشيخة سي محمد العيد الذي سألته السلطة الفرنسية عن معرفته بابن غداهم أجاب :"بأنه يعرفه جيداً وأنه من خيرة أحباب الطريقة الجانية." كما وجد وثائق خاصة بمجوزة بابن غداهم تحتوي على قصائد هامة توضح ذلك من أبياتها.

يا سيدي أحمد يا التجاني　　أتينـي من أقصـى الأعـادي
يا شيخ أقـدم وأرعـانـي　　وأنا بالصوت عليـك أنـادي.[2]

كما يذكر سعد الله أيضا أن محمد الصادق باي تونس كان تجانيا وأن عدة شخصيات من قصر باردو ينتمون إل الطريقة التجانية أيضا.[3]

وبرغم ذلك فإن الطريقة التجانية فلم تكتب لها النجاح والانتشار على نطاق أوسع مثلهما هو لدى الطريقة الرحمانية التي انتشروا في مناطق عديدة واقتصر نشاط الطريقة التجانية على أقطار المغرب العربي، مع بعض التأثير على المريدين في مصر والحجاز. ويذكر شكيب أرسلان أن الطريقة التجانية كانت لها أتباع في إفريقيا مثل السودان والسينغال والكونغو وغينيا وقد أرجع ذلك أحد المهتمين بالتاريخ العثماني إلى جملة من العوامل والمعطيات لخصها كالتالي:

1- تطرف مؤسس الطريقة، فقد أعلن أنه أمر من النبي (ص) أن يترك كافة الطرق كما أعلن أنه ما قاربه ولى مند آخر عصر الصحابة إلى يوم ينفخ في الصور،

1- Rinn.Op .Cit .P110.(4)

وكذلك :عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا 1816-1871، ط 2 (ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985)ص 66.

2 - التميمي، بحوث ووثائق، ج4،ص 66.

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4،ص222.

هذا بالإضافة إلى الغفران الذي منحه لمن رآه ولمن رآى من رآه الأمر الذي نفر الناس منه وشككوا في صدق دعوته.

2- ظهور اليقضة العلمية في الجزائر كان ملازما لظهور الطريقة مما حال دون انتشارها في منطقة الشمال بالخصوص، ولذلك فلا غرابة أن الطريقة انتشرت في البيئات الأقل وعيا في الجنوب.

3- الإصطدم بينها وبين الحكام العثمانيين، ثم بعد ذلك بينها وبين الأمير عبد القادر[1] كل ذلك أضعف من مركزها وحتى من الفروع التابعة لها.

4/ الطريقة الدرقاوية

هي فرع من الطريقة الشاذلية ومؤسسها الشيخ محمد العربي الدرقاوي سنة 1805م، وانتشرت بسرعة في الغرب الجزائري في مرحلة تفاقم الضعف السياسي في كيان العهد العثماني في الجزائر وقد تتلمذ الشيخ الدرقاوي على الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحمان الجمالي الفارسي.

ويقال أن الطريقة الدرقاوية خالفت تعاليم الشادلية في الحياد والتسامح من الوجهة السياسية، وهناك من يرى أن الدرقاوية تشبهت في لباسها ومظاهرها وممارستها بكبار الصحابة مثل لبس المرقعات وحمل العصا والرقص على ذكر اسم الله، وحمل السبحة وكانوا يمشون حفاة ويتحملون الجوع ولا يخالطون إلا الصالحين ويكثرون من الصدقات.[2] والدرقاوية طريقة منتشرة في إقليم وهران بالخصوص، ولها 8 فروع[3]، و10 زوايا، و134 طالبا و9 شيوخ، و72 مقدما، و8232 من الإخوان و1118 خونية أو امرأة ومما كان و9567 من الأتباع.[4]

---

1 – العيد مسعود، المرجع السابق، ص 13.

2 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 114.

3 – مثل أحد هذه الفروع الطريقة الهبرية نسبة إلى الشيخ البوديلمي وهي منتشرة في الغرب وبالأخص في تلمسان ولا تزال إلى الآن ومدعمة من طرف الدولة الجزائرية التي رصدت لها أموال طائلة في المدة الأخيرة خلال حكم عبد العزيز بوتفليقة.

4 – يقول سعد الله أن من شيوخ الزاوية في زمن الأمير عبد القادر العربي بن عطية وبعد وفاته في تونس تولى المنصب عدة بن غلام الله صاحب زاوية أولاد الأكراد بتيارت. أنظر : سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 297.

5/ الطريقة الشاذلية

هي طريقة صوفية ظهرت في المغرب الأقصى في أواخر القرن 18 ثم انتشرت في الجزائر وكان لفظ الشاذلية نسبة إلى أبو الحسن الشاذلي عبد السلام بن مشيش عن أبي مدين الغوت، وكانت الشاذلية تحث على ممارسة الأخلاق والفضيلة والتوحيد، ويذكر سعد الله أن مبادئ الشاذلية تقوم على الرحلة الفكرية والتأمل المستمر في وحدانية الله وعلى الهيمان في أرض الله بحثا عن التطهر والتسامي وعلى إهمال الذات والقيام بالصلوات والواجبات الشرعية، والطريقة لا تؤمن بالخلوة ولا با لممارسات التهريجية ولا بالانتفاضات، بل تهتم بالعلم الروحاني.[1] كما يلتزم أتباع الشاذلية بالاستغفار مئة مرة والصلاة على الرسول (ص) مائة مرة والطهارة مئة مرة، وذلك كل صباح ومساء بالإضافة إلى حضور الحضرة مرة في الأسبوع وزيارة المقدم والحديث إليه مرة في الشهر على الأقل.

وكان لتعليم أبو الحسن الشاذلي الأثر الكبير في الجزائر، وحسب ما ذكره سعد الله فإن معظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن 14م تصل بوجه أو بآخر تعاليم الطريقة الشاذلية، وقد أحصى بعضهم عدد الطرق الصوفية كالغرب العربي أواخر القرن 19 توحيد خلال فترة طريقة مجموع ستة عشر طريقة كلها شاذلية الأصل.[2]

وللشاذلية في الجزائر فروع عديدة منها : الجزولية والزروقية واليوسفية والعيساوية والبكائية والأحمدية والشيخية والناصرية والطيبية والزيانية والحنصالية والحيبية والمدنية والعروسية والبكرية.[3]

وأما عن مدى مكانة الطريقة فقد كانت لها 4 فروع في الجزائر و11 زاوية و195 طالبا و9 شيوخ و99 مقدما و13.251 أخوانيا و652 خونية أو امرأة.[4]

---

1 - سعد الله، ت.ج.ث، ج 4، ص 68.

2 - نفسه، ت.ج.ث، ج 1، ص 461.

3 - نفسه، ت.ج.ث، ج 4، ص70.

4 - نفسه، ت.ج.ث، ج 4، ص293.

قد انتشرت الطريقة في مناطق جغرافية عديدة منها إقليم الوسط بالجزائر العاصمة وقسنطينة بالشرق الجزائري،وبعض المناطق الأخرى.

6 /الطريقة الطيبية

يعود تأسيسها إلى الأدريس الأكبر بالمغرب الأقصى ومن شيوخها شريف وزان، وهي فرع من الشاذلية أيضا وانتقلت مبادئها إلى الجزائر على غرار الطرق الصوفية الأخرى.

أما عن تعاليم الطريقة الطيبية فإنها لا تختلف عن تعاليم الطرق الأخرى فهي تدعو إلى التقوى وفعل الخير والقيام بالواجبات الدينية وإطعام الفقراء وإصلاح الذات النية مع التقرب إلى الله وبالأذكار، أما ورد الطريقة فيتكون من جمل يرددها الأخوان أثناء الصلاة من ذلك تسبيح الله وحمده مائة مرة صباحا ومساءا والصلاة على الرسول وأزواجه وذريته خمسين مرة صباحا، والصلاة على النبي مائة مرة والشهادة مائة مرة صباحا ومساءا وعقب الصلوات الخمس يكون المتصلي عن مات.

كان لها في الجزائر 234مقدما و8زوايا و21 وكيلا و19.110 من الأخوان و2547 خونية، وهي منتشرة في العديد من أقاليم الجزائر وخصوصا في القطاع الغربي.[1] وأما عن شروط الانخراط في الطريقة هي الطاعة المطلقة.

7/ الطريقة الحنصالية

هي فرع من الشاذلية ومؤسسها هو بن يوسف الحنصالي من المغرب الأقصى في القرن 17، وقد أدخل الطريقة إلى الجزائر سعدون الفرجيوي الذي تتلمذ على يد الشيخ الحنصالي في المغرب الأقصى، وبذلك أصبح سعدون مقدم الطريقة وخلفه في ذلك معمر الذي يوجد قبره في التلاغمة بميلة ثم خلفه أحمد الزواوي الذي عارض صالح باي ودفع بالطريقة للانتشار والتوسع في إقليم الشرق الجزائري.

---

1 – ويذكر سعد الله أن رئيس الزاوية خلال العهد الاستعماري كان يزور زواياه في الجزائر، وكان مواليا للاستعمار وتزوج من أنجزية ودرس أولاده في الجزائر وفرنسا. للمزيد أنظر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص295.

ومن مبادئ الحنصالية مبدأ التسامح والإتحاد وفعل الخير، ويقومون أيضا بالرقص والحركات الجماعية كما هو الحال عند العيساويةس، كما يعتقد عنهم أنهم يشفون المرض ومعرفة الأسرار ويقرؤون القصيدة الزمياطية وهي نوع من الشعوذة والسر والكيف ونحوها من الغياب في عالم الحاضر.[1]

كانت منتشرة في الشرق الجزائري والهضاب العليا ولها 18زاوية، ولها48 مقدما و102 شاوشا و3485 من الأخوان و438 خونية، و176 طالبا وهي طريقة مسالمة ومن أهم شيوخها في قسنطينة أحمد بن مبارك المعروف بالعطار.

8/ الطريقة العيساوية

تأسست في مدينة فاس بالمغرب الأقصى وهي فرع من فروع الطريقة الشاذلية، ومؤسسها هو الشيخ محمد بن عيسى، وللعيساوية أوراد وأذكار كما لهم صلوات وأدعية، ويوهمون الزائر أنهم يداوون المرض ويتظاهرون بالحزن من أجل الآخرين. كما يبدون الحرص عفلى حياة البائسيين. والعيساوية طريقة مهرجة تطلق الصراخ وتعوم بالطبل والناي والصرخات حتى التشبج والغيبوبة ويكون الرقص حتى فقدان التوازن الجسمي والعقلي، ويقومون باستعمال الثيران والقيام بأشياء غريبة تسحر الزائر وتجلب السواح، وهذا الطابع الاحتفالي الذي تمتاز به العيساوية هو الذي جلب لها الفضولين لحضور حفلاتها واعتبروا ذلك هو الإسلام الحقيقي.[2]

وكانت العيساوية محبوبة عند العثمانية لأنها خذرت الشعوب أكثر من عملها على تنويره، واهتمت بالوعدة والزمرة والرقص والاختلاط والشعوذة، ولذلك فقد استحسنتها السلطة، ويذكر الفرنسيون أنهم وجدوا 23 رسالة لدى شيخ العيساوية في الجزائر كلها تعفي زاويته من الضرائب وهي صادرة من الدايات وبايات التيطري، كما تعفيهم من حق التويزة من القبائل المجاورة وتأمر بإحترامهم.[3]

---

1 – سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 4، ص 87.

2 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص83.

3 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 83.

وكانت العيساوية منتشرة في مناطق مختلفة من الوطن. وأصبح مقرها الرئيسي في منطقة وزرة بضواحي البروقية لها عشر زوايا و3 وكلاء و58 شاوشا و39 مقدما و3.444 من الاخوان و33 خونية.[1]

وهناك من الطرق الهامة التي أثرت أيضا في العقلية الدينية للجزائريين منها الطريقة السنوسية التي ظهرت خلال فترة الاحتلال الفرنسي.[2]

هذا الاحتلال الذي جاء لتجريد الجزائريين من هويتهم الدينية واللغوية، وبرغم ذلك فإن الطرق الصوفية ظلت عملية بالعقلية الجزائرية بل يرى بعض الباحثين أن هذه الطرق استمرت في تواجدها حتى بعد الاستعمار هي الطريقة الرحمانية والقادرية والتجانية والعيساوية والعليوية.[3] والطيبية والسنوسية.[4]

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 295.

2 – الطريقة السنوسية نسبة إلى محمد بن علي السنوسي (1787–1859) وهو من مواليد مدينة مستغانم بالجزائر، درس بالقرى سين لمدة 7 سنوات وأخذ عن الطريقة الصوفية ومنها رجع إلى مدينة الأغواط ثم انتقل إلى مدينة قابس بتونس ثم طرابلس واستقر به المطاف في جامع الأزهر بمصر ثم سافر إلى الحجاز ومنها إلى بلاد اليمن ثم عاد إلى مكة المكرمة وأسس بها أول زاوية في جبل أبي قبس سنة 1837 ثم غادرها إلى مدينة 1840 وفي طريقه إلى الجزائر أسس في طرابلس الزاوية البيضاء سنة 1843 وبعد موت السنوسي خلفه ابنه محمد المهدي الذي وسع من نشاط السنوسية حتى بلغت زواياها 300 زاوية.

للمزيد أنظر:محمود الشنقيطي، قضية ليبيا، ط1 (مكتب النهضة المصرية 1951) ص34.

وكذلك: علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1914/1798، ط3، (الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1980) ص55.

3 – الطريقة العلوية: نسبة إلى أحمد بن مصطفى بن عليوه (1873–1934) من مواليد مستغانم، تعلم بالمنطقة وأخذ تعاليم التصوف عن الشيخ محمد البوزيدي أسس زاوية سنة 1910. والعلوية فرع من الشاذلية وتعرف الطريقة عند البعض بأنها عصرية لأن صاحبها استعمل فيها وسائل جديدة كالطب جنة الصحف والإصدارات.

للمزيد أنظر:أحمد مر يوش الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، رسالة الماجستير قسم تاريخ 1993م.

وكذلك : سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص126.

4 – إسماعيل العربي،حاضر الدول الإسلامية في القارة الأفريقية، (المؤسسة السياسية فلاش الجزائر 1984) ص115.

3 - مواردها الاقتصادية

إن الكلام عن الطرق الصوفية يجرنا حتما إلى تناول موضوع الزوايا باعتبار أن كل طريقة من الطرق التي تناولناها كانت تابعة لها ومرتبطة بها العديد من الزوايا ومن تم، فإن أتساع الرقعة الجغرافية لتواجد الزوايا قد يمكنها من الحفاظ والاستمرارية على البقاء والبذل والعطاء، وبالمقابل كلما انكمشت مساحة هذه الزوايا جغرافيا كلما شحت مصادر تموينها. علما وأن هناك الكثير من الأتباع والأنصار للطرق الصوفية خاصة القادرية والسنوسية منها كانوا خارج الجزائر سواء في دول المغرب العربي أو المشرق الإسلامي.

وللطرق الصوفية مصادر متنوعة لكسب العيش والتوسع، وتكمن قوة الطريقة ونفوذها أو ضعفها وانكماشها في مدى قوة التمويل والتحصيل المادي الذي تتحصل عليه الطريقة ويصلها باستمرار أكثر ما هي في أمس الحاجة إليه من الدعم الروحي والمعنوي، ولذلك فلا غرابة أن نجد كل طريقة كانت حريصة على الحفاظ على مصادر تموينها سواء بوسائل معلنة أحيانا وحتى غير معلنة في العديد من الأحيان.

وكما هو معلوم فإن السلطة العثمانية لم تمد هذه المؤسسات والطرق بنفقة ولا بمنحة كيفما كان قدرها أو نوعها، وكانت مصاريفها تزود بفضل دخل الأملاك وأراضي الفلاحة التي كان بعض المؤمنين من أهل الورع والتقوى والإصلاح يحبسونها على معاهدها الدينية والتعليمية وبناء المعاهد وإصلاحها وتجهيزها وتأثيثها ودفع رواتب رجال التعليم وأصحاب المناصب الدينية، كل ذلك كان على حساب نفقة الأوقاف.[1]

وكانت الزوايا مقر المرابطين، وبها شيوخ لهم من البركة والتقديس والتبجيل والاحترام عند الأتباع، ومعظم الزوايا كانت لها أحباس تابعة لها ممثلة في الأراضي الزراعية والبساتين وبعض الأنواع من الحيوانات ونحوها، وتعد الفلاحة مصدرا

---

1 - حميد بن سالم، الثقافة الإسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال، مجلة اللسان العربي، عدد 1، المغرب، يونيو1964، ص 35.

رئيسيا في تمويل الطرق الصوفية وزواياها إذ كانت الأراضي تحرث ويتم حصادها عن طريق التويزة وتجنيد اللأتباع وسكان المنطقة لجني المحصول، وهو عندهم عمل مجاني لله. ومن أجل أخذ بركة الشيخ[1] والتوسل له والتقرب إلى الله.

في حين أن هناك من يرى في هذه الظاهرة نوع من السخرة أو الاستغلال لفئة عريضة من الجزائريين، وقتها بحكم الظروف الاجتماعية القاهرة من، ولسيطرة الظاهرة الدينية التي جنحت نحو الدروشة لدى الكثير من الصوفية من جهة أخرى.لأن التويزة كانت بمثابة اجبار الناس على التجنيد في ذ لك اليوم وحتى في أيام الأسبوع من جراء إلحاح شيخ الزاوية والمقربين منه لعمل التعبئة لجني المحصول الذي عادة ما ينتهي بوليمة أكل وقراءة الورد والتضرع لبكرة شيخ الزاوية.

كما فرضت الطرق الصوفية إلتزامات مالية على المريدين، واتخذت ذلك طابعا شبه إلزاميا عليهم، وأصبح شيخ الطريقة هو الوسيطة بينه وبين الله مع إلزامية الطاعة للشيخ، وهي ركن أساسي للطريقة الصوفية. ومن تم فإن المريد لايمكنه أن يتأخر عن دفع إلتزاماته المالية، وبذلك بدافع وجداني وروحي، وخوفا من عقوبة يوم القيامة وغضب شيخ الطريقة.[2]

وكثيرا ما كان يزج في هذه الأعمال بطلبة الزوايا، وخصوصا طلبة النظام الداخلي الدين كانوا يسكنون في الزاوية، وكان فقراؤهم لايدفعون المصاريف من أجل حفظ القرآن وأخذ العلوم الدينية، وإن كان البعض الأخر من الطلبة يدفع نسبا محددة للزا وية من المصاريف التي تتفق عليه لكن الشيىء المعهود أن هؤلاء الطلبة كانوا جميعا يقومون بخدمة متطلبات الزاوية خلال الفصول الأربعة من فصول السنة،وبالخصوص فصلي الصيف والخريف وهي فصول جني المحصول الفلاحي سواء الحبوب أو الزيتون.

وكانت معاملة شواش الزوايا لهؤلاء الطلبة تختلف من طريقة لآخرى ومن منطقة للأخرى،حسب ما رواه أحد الطلبة والمدعو خلافي مسعود وهو من الذين درسوا

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص284.

2 – العيد مسعود،المرجع السابق، ص14.

وتنقلوا بين الزوايا أن معاملة زاوية شلاطة ببلاد القبائل كانت أقسى من معاملة زاوية دار سيدي الشيخ بوادي العثمانية إذ كانوا في الأولى يمشون حفاة ويجنون الزيتون مقابل رغيف من كسرة الشعير ونصف كأس من الزيت وكانوا يجوبون القرى لجمع ما تيسر من المال والمحاصيل الزراعية للزاوية، في حين كانت المعالة أقل قسوة مما عايشوه في الزوايا الأخرى وبالخصوص في زاوية دار سيدي الشيخ وبعض الزوايا الأخرى المتواجدة بالشرق الجزائري.[1]

ولم يتوقف مصدر الزاوية على نتاج الأرض، بل هناك عقارات أيضا كالدكاكين والمحلات التجارية والإسطبلات ونحوها،وكان ريعها يدفع لمرابط الزاوية.وهناك مصادر أخرى تصب في ميزانية الطريقة وهي ناتجة عن عقد الوعدة والزيارة التي كان يقوم بها اتباع الزاوية والطريقة وكان هؤلاء يقصدون المكان للتبرك وأحيانا للسؤال، وهم محملون بالهدايا والأموال، وحتى بقطيع من الماشية أو نفر من الإبل في بعض الأحيان،وهذا النوع من كسب المال غير منظم بين أتباع الطريقة، وهو شبه دائم تتلقاه الزاوية من أفراد القبائل وكل بحسب إمكانياته الخاصة [2] ومن تخلى عن ذلك العطاء قطعت عنه بركات الشيخ ودعواته الصالحة.

وهناك كسب آخر موسمي للزاوية يحدد فتراته الشيخ وأعوانه من المقدمين ويتجسد في المناسبات الهامة.أهمها جني المحاصيل الزراعية ودفع العشور والزكاة من المحاصيل الزراعية والحيوانية للزاوية، وخصوصا الحبوب بأنواعها، وكذلك التمور والتين والزيتون والزيوت والزبدة ونحوها.ويذكر سعد الله أن هذا النوع من الكسب زياراته جماعية رسمية يقوم بها وفد للزاوية وما يأتي من الزيارة نصيب محدد لكل فرد أو لكل عرش أو قبيلة.[3]

---

1 - لقد زودني الشيخ بحكايات غريبة عن خبايا الزوايا وما كان يدور بداخلها منه الصالح والطالح، وساهم هو بدوره في تحفيظ القرآن للعديد من الطلبة، كما تولى إمامة مسجد عقبة بن نافع ببلدية أحمد راشدي وتوفي بعد مرض عضال سنة 1987 عن عمر يناهز الستين سنة.

2 - Depont .Les Confréries; Religieuses ,P132.'

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص285.

وهناك نوع آخر من المداخيل يحصله الشواش أو الوكلاء باسم كل طريقة في أوقات خاصة بإيعاز من المقدم لتحصيل المستحق.[4] ومن أمثلة هذه المناسبات الخاصة التحضير للوعدة أو الزردة كما تسمى، إذ يتجول الوكلاء بين القرى والأرياف لجمع ما تيسر من الأموال والمواد الغذائية والمواشي لتحضير الوليمة في الموعد والمكان المعروف لدى الأتباع.

والحق أن حضور هذه الزرد قد كثر خلال العهد الاستعماري واستغلته الإدارة الإستخبراتية لخدمة أغراضها التوسعية والتحكم في رقاب الجزائريين، وبث بين صفوفهم سموم التفرقة عبر مزاعم دينية.

وهناك مصادر أخرى للتموين، ومنها عودة شيخ الطريقة من آداء فريضة الحج وما تجمع له من الأموال والذبائح لتحضير الوليمة. وإذا مرض أو شفي من المرض كثرت عليه الزيارات وعمت النعمة عليه وهناك من المدفوعات أيضا كالغفارة[2] والغرامات التي تصل الى الزاوية بغرض الرضا وإبعاد الشر على صاحبها، وأحيانا توسلا للشيخ من أجل الإنجاب، وإبعاد العقم على المرأة، أو الحصول على مولود ذكر، ونحوها من التوسلات التي لاتخدم الديانة الإسلامية.

ومن المصادر الأخرى التي تمول الطرق الصوفية الهبات التي يقدمها أتباع الزاوية في العديد من مناطق الوطن، فعلى سبيل المثال عند التواتيين كانت تعرف باسم الغفارة وهي مزود مملوء بالقمح والتمر يكفي مؤونة طريق، يقدمها كل فرد ذكر بلغ سن الثامنة عشر من عمره لزاويته ويزيد،وهناك إضافات أخرى لبض الزوايا كزاوية سيدي الشيخ التابعة للطريقة الشاذلية، فعلاوة عما يدفعه الآخرين يدفع أتباعها أيضا لزاويتهم حملا صغيرا، وقداختص أتباع كل طريقة بحمل شكل معين من السبح حتى يسهل التعرف على أتباع الطريقة الواحدة.[3]

1- Rinn ,OP,Cit ,P110.

2 – يسمى هذا العطاء في الشرق الجزائري باللفار،ويقدمه الزائر لشيخ الزاوية عند الزيارة بغرض التوسل أو التسبب وقراءة القرآن في كوب من الماء لإبعاد المرض، ويكون اللفارعادة من المال أو نصيب من الحبوب أو بيض الدجاج.وهذه العادة لاتزال سائدة حتى وقتنا الحاضر وبالخصوص في المناطق الريفية.

3 – فرج محمود، إقليم توات، ص 109.

وهناك مصدر آخر لجمع الأموال تتحصل عليه الطريقة من خلال تبرعات المسافرين وعابري السبيل الذين ينزلون بالزاوية[1] إما للمبيت والاستراحة وأحيانا للاحتماء من غارات الآخرين، لان الاعتقاد السائد هو أن المرابط الذي تنسب إليه الزاوية يحرسها من العدوان ويرد اللصوص عنها بقدرته الروحية، وقد روي ابن مريم صاحب البستان وقائع كثيرة ظهرت فيها كرامات المرابطين في ردهم على اعتداءات اللصوص الخارجة عن القواعد العامة.[2]

ويذكر سعد الله أن مصادر الطرق الصوفية قد تضاءل إلى حد كبير بعد الاحتلال الفرنسي، وأصبح خاضعا للسياسة والعلاقات مع السلطة الفرنسية التي وضعت شروطا للزيارات وحضور الحضرة وتقديم الخدمة ونحوها بفرض اضعاف مفعول هذه الطرق وابعادها عن المجتمع.[3]

4- علاقاتها بالسلطة الحاكمة

إن الدارس للتواجد العثماني في الجزائر منذ مجيء الأخوة عروج وخير الدين إلى مرحلة حكم الداي حسين وإبرام معادة الاستسلام مع قائد الحملة الفرنسية دوبورمون في 5 جويلية 1830، يقيم السياسة العثمانية المنتهجة على أنها لم تكن على نمط واحد، بل اختلفت في مراحلها من فترة لأخرى،بحكم قوة وضعف الحكم المركزي من جهة، والوضع الدولي من جهة أخرى.وكانت علاقة الجزائر بدار الخلافة أشبه ما تكون بعلاقة الأحلاف، فكانت قوة الجزائر في قوة الخلافة، وكانت قوة الخلافة في قوة الجزائر، ولذلك فلا غرابة أن تترك الخلافة العثمانية للجزائريين النظام الذي يختارونه لأداء أمورهم حتى ولو أدى ذلك في بعض الأحيان الى الخروج عما هو معروف في العلاقات بين الأحلاف. 4

ولم تكن العلاقة متوترة بن العثمانية والجزائرية في العهد الأول وخصوصا مع رجال الدين والزوايا، وتذكر بعض الكتب التاريخية أن عائلة بن القاضي التي كانت

---

(1) Rinn ,Les Marabouts et Khouan,p18.

2 - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص235

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج4، ص286.

4 - بسام العسلي، الجزائر والحملات الصليبية، ط1 (دار النفائس بيروت 1980) ص 162.

تسكن إمارة كوكو وجبال جرجرة قد قدمت يد المساعدة للعثمانيين والمتمثلة في شيخها الحسن بن القاضي الذي قاد الوفد الجزائري الذي أرسله خير الدين إلى السلطان العثماني سليم الأول ليقترح علية ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية وقد نجح في مسعاه ووافق السلطان العثماني على ذلك سنة 1515م ولو أن الحسن بن القاضي غير فيها بعد موقفه من سياسة خير الدين.[1]

وقد استمرت هذه الجدلية خلال القرون الأولى من الوجود العثماني بصفة عادية، في حين أخذت العلاقة تتغير خلال منتصف القرن 18 بسبب فقدان الثقة بين الجزائريين والسلطة المركزية خصوصا بعد

إرهاق الأهالي بالضرائب حيث انكمشت موارد البحر التجارية مع مطلع القرن 17م حتى. أصبحت لاتلبي حاجيات السكان.[2]

ويذكر الكثير من الباحثين أن الطبقة الأوليجاركية في الجزائر وخلال العهد العثماني كان مصيرها مرتبط أساسا بموارد القرصنة، وكلما قلت مواد البحر وشملت الإيرادات الوفيرة من القرصنة كلما لجأت الأوليجارية على زيارة استغلالها للطبقة الفلاحية الجزائرية وذلك بزيادة عبأ الضريبة وبأن تتحول من أوليجاركية إلى طبقة من الملاك العقارية.[3]

وتخوفا من سياسة التحرر والانخراط في السياسات التي تقوم بها القبائل العثمانية إلى البحث عن ضمان للتكر في أكثر قبيلة وذلك عن طريق الرباط الديني وتمكنه.

الطرق الصوفية التي كثيرا ما جمعت العديد من القبائل حولها ومن تم كسب الولاء للسلطة المركزية، علما أن النمو الاجتماعي للنظام القبلي في الجزائر أخذ ينتشر شيئا فشيئا مع ازدياد الظلم العثماني له وخصوصا بعد الإكثار في جباية الضرائب،

---

1 - يحي بوعزيز،أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1،ط1، (دار الغرب الإسلامي بيروت1995) ص313.

2 - Ahmed Henni ,Etat ,surplus et Société en Algérie avant 1830 (entreprise Nationale avant 1830 (entreprise Nationale du livre Alger 1984)p54.

3 - عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية، ترجمة عيسى فيصل، ط2، (دار الحداثة بيروت 1982) ص42.

وانتقل التفكير إلى ربط القبيلة بالوطن، بل ظهرت فكرة التحالفات ونمى العمل النظامي الذي تبرزه الانتفاضات الشعبيةالتي تعودها الطرق الصوفية فيما بعد.

ولعل ذكر ما أشار إليه الدكتور ناصر الدين سعيدوني في كون أن حلقة الجهاد تعد عاملا موحدا لمسلمي شعوب سواحل المغرب العربي وتحت راية الدولة العثمانية في ذكر قوله:"ساعد ةالجهاد البحري الذي تزعمته الجزائر منذ القرن 16 على توحيد صنوف المسلمين بالسواحل فأصبحوا بمثابة كتلة حضارية واحدة تحت راية الدولة العثمانية هذه الدولة التي كان لها الفضل في كف الانهيار الذي حل ببلاد الإسلام."[1]

في حين هناك من يرى أن انهيار معالم الدولة الإسلامية واشتداد الخطر الصليبي عل سواحل دولة المغرب العربي وغياب السلطة المركزية الموحدة كل ذلك دفع بدعاة التصوف ورجال الدين إل الزهد فيالدنيا وملذاتها والسعي وراء الآخرة، وما يضمن نفيها من قول أو عمل، وحاولوا أن يقولوا مهام الدولة المركزية، وقام رجال الطرق علم الشمال وإعادة الثقة بين النفوس وقيادة الجهاد ضد الغزاة، وإدارة الشؤون الاجتماعية والإشراف على الطقوس الدينية مع نزعة عامة إلى تقديس الماضي.[2]

وبرغم أن الرابط الديني كان موجودا بين الجزائريين فالظاهر، أنه لم يرق إلى مستوى لم الشمل بين سكان كل المناطق، وظلت القبيلة القاعدة الأساسية تجسدت في روح البداوة إلي لم تتطور هي الأخرى رغم التطور الاجتماعي والثقافي السائدتين وقتها لدى بعض الشعوب العربية والإسلامية، وبالأخص لدى سكان المغرب الأقصى أيام الدولة السعدية التي كانت معاصرة للوجود العثماني في الجزائر، والتي امتد نفوذها الى بلاد السودان الغربي أيام حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي[3] ويمكن القول أن الوجود العثماني في الجزائر قد استفاد من هذه

---

1 – ناصر الدين سعيدوني، صفحات من ماضي الجزائر المجيد، البحرية الجزائرية، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 10، جامعة الجزائر، 1997.

2 – القبي، المرجع السابق، ص117.

3 – عن قيام هذه الدولة وتوسعها وقوتها الاقتصادية راجع: عمر بن خروف، ملامح عن الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 3، جامعة الجزائر 1987، ص67.
وكذلك : محمود علي عامر. تاريخ المغرب العربي الحديث، ط 2، (منشوارت جامعة دمشق، 2004 ص 55.

الوضعية، بل كانت له اليد الطولى في الإبقاء على طبيعة البداوة للمجتمع الجزائري.[1]

ويذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أن شيخ العرب أحمد بن علي بوعكاز السخري ساند الأترا ك في حربهم ضد الأسبان سنة 1851 وشاركت قبيلة الذواودة في هذه الحروب بجيشين، إحداهما رابض في شرق مدينة الجزائر وبقيت من هذا الجيش قبيلة تعرف الآن باسم الخسارة ببرج امنايل،وثانيهما رابض في غرب العاصمة وبقيت قبيلة الى الآن تسمى الذواودة بمنطقة تيبازة.[2]

ويرى العديد من المهتمين بتاريخ الوجود العثماني في الجزائر أن هؤلاء قد استغلوا بساطة الجزائريين الدين ربطوا مصيرهم في الكثير من الأحيان بانتسابهم للعديد من الطرق الصوفية والدينية، وأحيانا منهم منانتسب إلى بعض المبتدعة والدروشة التي كثيرا ما عششت في أذهان الجزائريين، وخصوصا العامة منهم.

وقد أكد ذلك صاحب كتاب تحفة الزائر في سياق كلامه عن السياسة التركية في الجزائر إذ يقول : وقد كان نفوذها مع استبدادها قاصرا ليتعدى المدن والقرى وأما الجبال وظواعن العرب في البادية فاءن لهم إدارة تخصهم موكول أمرها إلى زعمائهم، ولما كانت الحكومة غير قادرة على تنظيم في سلك الطاعة ألقت بينهم دسائس العداوة والبغضاء فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم،وبهذا كان استحواذها عليهم، وهذه السياسة من أكبر الوسائل التي تتوصل بها الأمة القليلة الأجنبية إلى الاستيلاء على الأمة الكبيرة الوطنية كما قيل فرق وأحكم.[3]

ومن ذلك فالساسة العثمانية لم مؤسسة عل مشروع مجمع متكامل، ولعل ذلك ما ذهب إليه الدكتورة ليل الصباغ في قولها أن الوجود العثماني فتح الامتيازات للأوروبيين، وقهر البلدان العربية، وضمنت الدولة العثمانية في تلك الاتفاقات

---

1 – محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، شرح وتحقيق ممدوح حقي ط 2 (دار اليقظة العربية بيروت 1964) ص95.

2 – محمد خير الدين، مذكرات الشيخ خير الدين، ج1، (مطبعة دحلب الجزائر1985) ص44.

3 – محمد بن الأمير عبدالقادر، تحفة الزائر، ص95.

للمقيمين على أرضها من الأوروبيين الحرية الشخصية، فمنحتهم حرية الديانة وسمحت لهم بالتجارة، وأعفتهم من دفع الجزية وأقرت أن ما يملكون رجع الى ورثتهم في ديارهم الأصلية دون أن يتدخل أحد من الموظفين العثمانيين بالأمرأو يعيقه.[1]

وبرغم ذلك فإن مناطق كثيرة من الجزائر لم تكن خاضعة للسلطة العثمانية المركزية، بقدر ما كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، مثلما هو عند ثعور بني ميزاب الذين كانوا يهاجرون لبلاد التل بغرض التجارة والكسب ولو أنهم كانوا في العديد من الأحيان يعبرون من ولائهم للديوان، وكانوا يدفعون مقدارا معلوما من المال سنويا لخزينة الدولة.[2]

والظاهر أن حركة الانفصال كان يقودها المرابطون وبعض من رجال الزوايا والذين اعتبروا في السياسة العثمانية إهدارا لبعض مقومات الديانة الإسلامية في الجزائر، إذ يذكر محمد الزياني وهو من مؤرخي البلاط في كتابه دليل الحيران أن رجال الدين والعلماء لم ترقهم السياسة العثمانية الظالمة، وتواتر ذلك على ألسنة بغاية التواتر، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم وسألت الناس أن يزيل عنها ما حل من ظلمهم.[3]

ولذلك فلا غرابة أن نجد صالح باي(1725–1792)[4] الذي حكم بايلك الشرق منذ 1771 ينتهج أسلب المهادنة وأحيانا المصالحة مع كثيرمن القبائل المتواجدة في إقليمه، واستطاع بذلك استمالة الكثير من رجال الدين بالمدينة، وبعض من المرابطين

---

1 - ليلى الصباغ، وضع الجاليات الأوروبية في العالم الإسلامي إبان الحكم العثماني، مجلة الأصالة، العدد 25، ماي جوان 1975، ص 128.

2 - المدني، محمد عثمان باشا، ص13.

3 - محمد الزياني بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران،تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي (ش.و.ن.ت الجزائر 1979)، ص73.

4 - ذكره المدني على أنه أشهر بايات قسنطينة، وهو من مواليد منطقة أزمير بتركيا سنة 1725، ولاه محمد عثمان بايا على قسنطينة، عمل بها مصلحا، وكان له الفضل الأكبر في النصر المبين على الأسبان،وقد عزل تعسفا بعد موت محمد باشا.

للمزيد أنظر:المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ط1، (ش، و، ن، ت الجزائر 1974) ص55.

بالجهة، بعد أن صفى له الجو مع العديد من الأعراش والبطون التي ضمها إليه مثل سكان جبال عمور، وبلاد ميزاب، ومنطقتي الأغواط وثقرت، وفي ذلك يقول توفيق المدني: فنزع عنهم بالحلم تارة وبالشدة والقوة تارة أخرى كل نفوذ سياسي، وكل سلطان على الناس، وبذلك توحدت البلاد بصفة تامة ولم يبق بها إلا سلطة واحدة هي سلطة باي قسنطينة ومن ورائها سلطة باشا الجزائر الذي يمثل الخلافة العثمانية.[1]

وبرغم ذلك ظلت العلاقة حميمية في الكثير من الأحيان بين العثمانيين والطرق الصوفية لاستفادة كل طرف من الآخر، فالمرابطية حافظت على إمتيازاتها المادية ومكانتها المعنوية بين المجتمع الجزائري، وعمقت من الفكر الروحاني والإخواني، وكثر مريدوها، وتوارث أجيالها على حماية التركة التي انتقلت من جيل لآخر بالوراثة.أما الطرف الآخر هو المستفيد الكبير، فقد وظف رجال الدين والمرابطين لخدمة استقراره في السلطة، ويذكر الدكتور سعد الله أن أساليب الحكم العثماني كان يعتمد على المرابطين والعلماء وقت الشدة باعتبارهم كانوا يمثلون الرأي العام ويؤثرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامة.[2]

ومن ذلك فقد عرف عن يوسف باشا الذي حكم الجزائر ما بين 1647 الى1650[3] أنه كان من الحكام الذين يقربون العلماء ويعفون المرابطين والأشراف من دفع الضرائب ويهادونهم ويكرمونهم، ومن أمثلة الذين قربهم يوسف باشا المفتي سعيد قدورة، وعلي عبد الواحد الأنصاري السجلماسي، وعيسى الثعالبي وعبد الكريم الفكون.[4] ومحمد الساسي العنابي، وذكر عن يوسف باشاأنه سافر إلى بايلك الشرق وأجمع مع مراد باي وكبار رحاله وقرب إليه العلماء ورجال الدين أمثال زعماء أولاد مقران وعائلة الحملاوي وقد إستشارهم في الكثير من القضايا.[5]

---

1 – المدني، محمد عثمان باشا، ص139.

2 – سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة، مجلة الثقافة، العدد 51، ماي جوان 1979، ص 15.

3 – المدني، عثمان باشا، ص 38.

4 – عن هؤلاء الأعلام ودورهم في تاريخ الجزائر الثقافي أنظر: الحفناوي،تعريف الخلف، القسم الأول، ص 66 إلى 166. وكذلك سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول.

5 – محمد الصالح بن العنتري، تاريخ قسنطينة، تقديم وتعليق يحي بوعزيز، ط1، (ديوان المطبوعات الجامعية 1991) ص37 وكذلك: المدني عثمان باشا، ص38.

وهكذا نجد أن علاقة الطرق الصوفية لم تكن واحدة ولم تكن قارة، ويمكن أن نميز ثلاثة مواقف واضحة لدى رجال الطرق في تعاملها مع الإدارة العثمانية، فالقسم الأول بارك الوجود العثماني وخدمه منذ بداية العهد، وكان العثمانيون يطمئنون إلى رجال الدين التصوف وكانت الثقة متبادلة بين الطرفين، فعلى سبيل المثال يذكر أحد رياس البحر ويدعى بيري رايس العثماني الذي نزل في بجاية برفقة عمه كمال رايس أنه لجأ الى زاوية الشيخ محمد التواتي الولي الصالح الشهير الواضح ذو الكرامات العديدة والمناقب الحميدة[1] وطا ليا منه المساعدة، وقد قدم لهما الشيخ المساعدة والبقاء في بجاية، كما منحهما من بركاته. وتذكر الروايات أن عروج قد تحالف مع أحمد يوسف الملياني أحد أقطاب الطريقة الشاذلية المقربة من الزيانيين من أجل بسط نفوذ ه في القطاع الغربي، شريطة حمايته وفي ذلك الصدد يقول سعد الله أن هذا الحلف قد أمر والتزم به الطرفان طيلة العهد العثماني.[2]

كما تذكر المصادر أن خير الدين باشا قد تعاون كثيرا مع الطريقة الشاذلية، وامتد هذا التعاون حتى أيام الطريقة اليوسفية، ويقال أيضا أن حسين باشا وهو آخر البشاوات كان متزوجا من إحدى حفيدات الملياني السالف الذكر: [3]

أما القسم الثاني من رجال التصوف فقد عارض بشدة النهج الذي عمل به العثمانيون اعتبروه تسلطا ووصفوه بنعوت عديدة، ومن تم أشهروا في وجوههم المقاومة، ومن أمثلة ذلك ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني الذي عارض القائد عروج عند دخوله مدينة تلمسان، ونظر لسياسته أنها عدوان على التلمسانيين ولابد من التصدي إليها ومحاربتها.[4]

وكان أيضا من بين الذين عارضوا السياسة العثمانية في عهودها الأولى الشيخ عمر بن القاضي لمنطقة بني جناد ببلاد زواوة، ودفعه ذلك للتحالف مع الملك

1- الحفناوي، تعريف الخلف، ص 366.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص464.

3 - Revue ,Africaine ,1925.

4 - احمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى،ج 8، (الدار البيضاء 1956) ص 286.

الإسباني فيليب الثالث في جوان من سنة 1603 بغرض التصدي للإنكشاريين، لكن المرابط سيدي منصور كشف المؤامرة وكان معاديا للتقارب بين عائلة بن القاضي والأسبان،و أستقبل الجيش التركي في منطقة بني جناد سنة 1618 وتعاون معه بذلا من تحالفه مع الأسبان[1].

كما ذكر الشريف الزهار في مذكرات أن مرحلة محمد عثمان باشا (1766-1791) عرفت هي الأخرى تمردات مختلفة عدم الطباعة والانصياغ للعثمانين ومن أمثلة ذلك ما أقدم عليه سكان جبل فليسة بمنطقة جرجرة ببلاد القبائل، الذين خرجوا عن طاعة الأمير ومنعوا الزكاة وحرموا البنات من الإرث.

والظاهر أن هؤلاء السكان لم يقتنعوا بالإسلام، ولم يتشبعوا بعد بمبادئه السمحة رغم أنشار الزوايا والطرق الصوفية وقتها،حتى أن الزهار قول عنهم : وكانوا أناساً جهلة لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين، ولكن فيهم من يتبع الكتاب والسنة.[2] وقد تم عقد بعث إليهم عثمان باشا بفرقة عسكرية لتأديبهم سنة 1789م ودائما حسب الزهار أن هذه الفرقة وجدت مقاومة عنيفة وانهزمت في الجولة الأولى والثانية لكن الباشا عزز من جنده وأستطاع في الجولة الثالثة الانتصار عليهم بعد أن مات الكثير من الطرفيين ووقتها قدم سكان فلسة الطاعة والاحترام وطلب الأمان من الباشا مع المعاملة الحسنة والوعد باحترام قواعد الإسلام.[3]

كما عرفت مرحلة الداريات 1671-1830 مع مستهل القرن التاسع عشر أخطر انتفاضة شعبية قادتها الطريقة القادرية المتمثلة في شخصيتها ابن الشريف الدرقاوي سنة (1805)، والتي كادت أن تعصف بالحكم العثماني، إذا كان العامل الذي هو مرجعية للثورة الدرقاوية، فإن هناك عوامل أخرى قد سهلة من قناعة القاعدة الشعبية لاحتضانها، وذلك لاشيء إلا لأن العثمانيين لم يستغلوا الخطوة التي كانوا يتمتعون بها لدى الأوساط الشعبية مع بداية وقولهم إلى الجزائر باعتبارهم ممثلون

---

1 - أحمد ساحي، أعلام من زواوة، ط1 (طباعة الثورة الإفريقية) ص50.

2 - المدني، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار، ص 28.

3- نفسه.

للأخلاق بل أقاموا بينهم وبين هذه الأوساط حاجزا من الوسطاء، واعتبروا أنفسهم أسيادا وحكموا البلاد حكما استبداديا.[1] ومما لا شك فيه أن هناك جملة من العوامل الفاعلة في تحضير مناخ الثورة منها فساد النظام العثماني وعزلته من الرعية والمجتمع، وقد ذكر المؤرخ الزياني : " إن الأتراك لما تعهد ملكها بالجزائر كثر ظلمها وعنادهم بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر...[2]

كما كانت للسياسة الضريبية القاسية التي فرضت بالقوة على الفلاحين أثرها الكبير في تخمر الثورة وازدياد التذمر.[3] بعد ضعف موارد البحر، وانخفاض الصادرات التي كانت الدولة تدفعها للخارج.و من تم أصبحت خزينة الدولة وسياسة الدايات في أمس الحاجة إلى تغطية العجز، وبذلك مطالبة البايات بتنويع الموازد الاقتصادية الذي دفع بالضرورة إلى تكثيف الحملات العسكرية على القبائل بجباية الضرائب وجمع الأموال.[4]

كما أننا لا يمكن إبعاد دور سلاطين المغرب في تدعيم الثورة الدرقاوية لإضعاف شوكة العثمانيين في الإقليم الغربي من الجزائر الذي كان حلم المغاربة الدائم منذ سقوط الدولة الموحدية، وقيام الدولة المرينية فالدولة الوطاسية ثم السعدية فالطوية، وكان سلاطين المغرب قوة مانعة أمام حلم التوسع التركي نحو المحيط الأطلسي.[5]

---

1 - غالي الغربي، ثورة ابن الاحرش الدرقاوي في الغرب الجزائري، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 10، سنة 1997 جامعة الجزائر، ص53.

2 - الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص73.

3 - لقد شهدت منطقة الأوراس التي كانت تقطنها ثلاث قبائل هامة هي الحنانشة والحراكتة والنمامشة تمردت ضد السياسة الضريبية وكانت إدارة البايلك دوما تبث التفرقة بين هذه القبائل لكن سياسة الجور جمعت شملهم وقد اتحدت قبيلة الحراكتة والنمامشة سنة 1797 وتمردوا ضد النظام المركزي، كما عرفت المنطقة ما بين 1803 إلى 1805 تمرد بين الأولى قامت بين قبيلة الحنانشة والثانية قبيلة النمامشة التي جددت الانتفاضة سنوات 1818 و1822 وحينها بعث الباي إبراهيم الكرباتلي حيث غير لقتالهم وغنم عنهم 000 40 رأسا من غنمهم للمزيد أنظر :محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري ١٧٩٢-١٨٣٠،ط٢ (المؤسسة الوطنية للكتاب 1984)، ص27.

4 - للمزيد حول الموضوع راجع : ناصر الدين سعيدوني النظام المالي للجزائر في العهد العثماني 1800-1830 (ث. رن، ث. 1979).

5 - علي عامر، تاريخ المغرب العربي، ص 40.

ولذلك فلا غرابة أن يكشف كل طرف عن طموحاته، خصوصا وأن سلاطين المغرب أبدوا في الكثير من الأحيان حلمهم بضم الجزائر وتونس إلى سلطانهم وتحقيق إمبراطورية جديدة موازية للإمبراطورية العثمانية، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ المغربي التمقروتي في كتابه النفحة المسكية بقوله: "...و العثمانيون إنما عملوا الإمارة وقادوا الأمر في الحقيقة بنيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب."[1]

وحسب ما ذكره مسلم بن عبد القادر في كتاب الأنيس الغريب فإنه ابن الشريف قد وجد من الظروف الكافية لإعلان الثورة بعد أن رحبت بها الشعوب والقبائل في منطقة إقليم الجنوب الغربي من الصحراء التي لقنها الشعائر الدينية وبذلك أولت له الاحترام وقدمت له العطايا والهبات، وشكته من أضرار المخزن، فكان بعدهم بالفرج القريب.[2]

ويذكر الناصري أن أسباب الثورة الدرقاوية تعود إليه عداوة ومحاربة بايات وهران لرجال التصوف والطرق الدينية، وما تعرض له رجال الطريقة الدرقاوية من القتل بل طالب الداي مصطفي بتضييق الخناق على الدرقاوية، وأمر بإلقاء القبض على زعيمهم عبد القادر ابن الشريف الذي اختار الصحراء واستعد للثورة.[3]

وقد استغرقت ثورة ابن الشريف سنوات عديدة تمكن خلالها من دحر الجند العثماني ووصول إلى مشارق وهران، ودحر الباي مصطفى (1805–1809) الذي تصدى للثورة بعد أن جهز حملة عسكرية بالتعاون مع قبائل المخرن سنة 1805 لكن الثورة الدرقاوية كان مآلها الفشل بعد أن عين داي الجزائر الداي أحمد(1805–1808) الباي محمد بن المقلش سنة 1805 على القطاع الوهراني الذي رجح كافة الميزان لصالح الحكومة المركزية ورافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت ب 1100رجل.[4]

و في ذلك الصدد يذكر صاحب أنيس الغريب بقوله: "وقد تولى محمد باي الحكم... وكان الدرقاوي ما زال محاصرا لوهران وأبوابها مغلقة فأمر بفتح أبوابها ثم تصدى

---

1 – الفالي، المرجع السابق، ص 58.

2 – مسلم بن عبد القادر،أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، ط1،(من ر ن ت.الجزائر 1974) ص50.

3 – الناصري، الإستقصاء، ج 8، ص 109.

4 – الفالي المرجع السابق، ص62.

لحرب الدرقاويين وألحق بهم هزائم متتالية ففروا أمامه وتشتت شملهم ثم طاردهم وقضى على نساء الدرقاوي وأولاده بمعسكر وسجنهم ثم أرسلهم إلى الجزائر.[1]

غير أن الدكتور بلحميسي يرى أن الثورة الدرقاوية قد أربكت السلطة العثمانية وما هي إلا أسابيع حتى رفعت تلمسان ومازونة والقلعة لواء الحرب، فعم السخط على الحاكمين وتقلص نفوذهم على المدن الساحلية وفي الجزائر العاصمة كان الداي يراقب الأحداث. وعين بايا جديدا خلف الباي المنزلي يلقب بالمعلش، والحق بخصمه عن طريقة البحرأضرارا،و حاصرالمدينة، وازدادت الثورة نارا ما بين سنة (1805و1807) وكل ذلك بسقوط الباي وعاد الباي المنزلي من جديد إلى حكم وهران سنة 1807م وخلال هذه المرحلة أسرع من المغرب بوترفاس وهو صهر بن الشريف وشن حربا على الأتراك مما دفع بالداي من جديد لتنصيب سنة 1808م الباي بوكابوس الذي حارب درقاوة حتى عام 1813.[2]

و هناك من يرى أن فشل الشريف يعود أيضا إلى خروجه عن المألوف وأدعى أنه المهدي المنتظر، و بدلا من أن يعمل من أجل إقصاء الأتراك، إلا أنه أنحرف وأصبح عنيفا، فاستلب الأنفس والأموال وخرب العمران.[3]

وهناك ثورة أخرى عرفها الشرق الجزائري وكانت ملازمة زمنيا تقريبا للثورة الدرقاوية وتتمثل في ثورة ابن الأحرش ببلاد الشرق في منطقة الشمال القسنطيني، وينسب ابن الاحرش إلى الطريقة الدرقاوية، وذلك ما يؤكده الناصري،الذي يصف أحداث هذه الثورة وإنشارها في الجهات الغربية من الوطن في كتابه درء الشقاوة في فتنة درقاوة بقوله: "ثم عممتنا فتنة درقاوة وإن لم تكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة.. فاتصلت علينا أواحد النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع."[4]

---

1 - مسلم عبد القادر، أنيس الغريب، ص27.

2 - مولاي بالخميسي، الثورة على الأتراك في الجزائر، مجلة الثقافة، عدد48، ديسمبر 1978م، ص 35.

3 - مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، الجزء الأول، بدون سنةالطبع ص 89.

4 - ناصر الدين سعيدوني، ثورة ابن الاحرش بين التحول المحلي وانتفاضة الشعبية، مجلة الثقافة، عدد 78، ديسمبر 1983 الجزائر ص200.

وأما عن شخصية ابن الاحرش، فالظاهر أنها غامضة رغم أن جل المؤرخيين اتفقوا على أن حركته كانت معادية للأتراك وقد عرف لدى العامة عن الحاج محمد ابن عبد الله ابن الاحرش بالبودالي نسبة إلى أدبال الصالحين وعرف عند الكتاب الرسميين بالشريف المغربي.[1]

أما الزياني في كتابه دليل الحيران فقال عنه أنه فتى مغربي مالكي مذهبا درقاويا طريقة درعي نسبا.[2]

وحسب دراسة ناصر الدين سعيدوني فإن حياة ابن الأحراش مرت بثلاث مراحل، أولها سفره لأداء فريضة الحج، والمرحلة مهمة في حياته لأنه عاصر حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798،و شارك في المقاومة هناك. والمرحلة الثانية عودته إلى الجزائر واستقراره بمدينة جيجل، وهي أول محطة للتخطيط ثورته بين القبائل المتواجدة في جيجل والقل وميلة وأصبحت كلمته مطاعة عند أهالي الوادي الكبير وجبال زواغة ووادي زهور وأولاد عيدون وبني مسلم وبني خطاب.[3]

وقد وضع ابن الأحرش لثورته أسلوب الدعاية والترشيد والتعبئة، واستقر في زاوية سيدي الزيتون بضواحي مدينة جيجل، وأسس لعمله الدعوي مدرسة بني فرقان بضواحي الميلية لتلقين الطلبة القرآن الكريم والعلوم الشرعية.[4]

وبعد أن عزز بن الأحرش موقعه العسكري، طالب بقيام حكومة على حساب بايلك الشرق، وتتبنى مبادئ الشرعة الإسلامية وأمر أتباعه بمهاجمة الحاميات التركية، ووصلت طلائعه الى ضواحي قسنطينة خلال ربيع 1804 واستطاع دخولها والاستيلاء على الكثير من مخازنها، لكن تحالف أعيان المدينة وبعض مثقفيها ورجال دياناتها حالوا دون سقوط المدينة، ومن بين هؤلاء الدين دافعوا على بقاء المدينة الشيخ بن

---

1 – نفسه، نفس المرجع، ص 201.

2 – الزياني، دليل الحيران، ص 207.

3- Féraud; Oued El Kebir et Collo,inRevueAfricaine-1859 -1859,p202

4 – محمد الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، حقيق وقديم رابح بونار (ش، و،ن، ت الجزائر 1974) ص 29.

الفقون وشيخ فرجيوة مصطفى بن عاشور أتباعهم.[1] منهم المرابط الزبوشي[2] وقد واجه الباي عصمان حاكم قسنطينة في أوت من سنة 1804 ثورة بن الأحرش العارمة، وخرج من مدينة قسنطينة باتجاه وادي زهور أين يرابط ابن الأحرش وأنصاره،لكنه فشل في ذلك ولم يتمكن من إخماد الثورة، قتل الباي على يد المرابط عبد الله بن محمد الزبوشي[3] الذي ناصر بن الأحرش، وأنتقم من الباي عصمان الذي حرمه من جميع الإمتيازات[4] التي كانت لغيره من المرابطين وخصوصا المسالمة منها.

وقد خلف الباي المقتول عبد الله بن إسماعيل، ونصب بايا على قسنطينة سنة 1804، وكلف بملاحقة ومحاربة ابن الأحرش و تمكن هذا الباي من إلحاق هزائم بثوار بن الأحرش في العديد من المناطق، كمنطقة ميلة ورجاس وفرجيوة، وتوسع الانتصار ليصل إلى منطقة بجاية بعد الإمدادات العسكرية التي وصلته من الجزائر العاصمة، والتي قدمها الرايس حميد والى سواحل جيجل بعد أن حاصر المدينة وأحرق سفنها.

وخلال سنتي 1806 و1807 تواصلت المعارك من جديد بين ابن الأحرش ومعارضيه في سهول بجاية وضواحيها لكنه فشل أمام قوة الباي وجيشه والمعززة من قبل الداي. وهكذا لم يجد ابن الأحرش إلا التوجه نحو الغرب الجزائري وتعزيز العلاقة مع الطريقة الدرقاوية بحسب رواية مسلم في أنيس الغريب.[5] وتذهب العديد من الروايات إلى أن بن الأحرش ظل هناك الى أن دس له من قتله من أصحابه سنة 1807.[6]

و برغم إخماد ثورة بن الأحرش المتعاونة مع الدرقاويين وإطفاء نار الفتيل، إلا أن أنين المعارضة ضل ساريا في العديد من مناطق الوطن وخصوصا عشية نهاية القرن

1- سعيدوني، المرجع السابق، ص 205.

2 - لقد عاش المرابط عبد الله بن محمد الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية بعد وفاة الباي عثمان ست سنوات، وتوفي خلال سنة 1810 ودفن بزاويته في رجاس على ربوة قرب عيون السلطان بوادي تامدة، وظلت الزاوية قائمة خلال الاحتلال، وهي مزارة بعد الاستقلال، وقد هجرها أصحابها إلى مناطق داخلية من الولاية.

3 - سعيدوني، المرجع السابق، ص205.

4 - Féraud ,Zebouchi et Osman Bey ,Revue Africaine,T6 ,1862 ,P123.

5 - مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب، ص٥٤.

6 - محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ص١١٧.

18 م، ولذلك فلا غرابة أن تتجدد الحركات المعارضة للعثمانيين وتندلع من جديد أيام عهدة عمر باشا الذي تولى السلطة سنة 1815، وشهدت الفترة اضطرابات كثيرة من مناطق مختلفة من الوطن شرقه وغربه قادتها قبائل ثائرة ومتحالفة مع رجال الطرق وعلى رأسهم أحد المدعين أنه المهدي المنتظر حسب عبد الجليل ا لتميمي.

والظاهر أن هذا الزعيم الروحي هو بن الأحرش المنتمي للدرقاوين، وقد كتب في ذلك عمر باشا إلى السلطان العثماني موضحا أياه ذلك بقوله:

إن جيوشنا وجنودنا قد تصدوا لحرب هؤلاء الدعاة والثائرين، وقد سقط عدد من الموتى اثر تلك المعارك.[1]

وكما هو واضح فان معارضة رجال الدين والمتصوفة لم تتوقف يوما وظهرت من جديد أيام تولي حسين باشا آخر دايات الجزائر الحكم منذ سنة 1818[2]

وتذكر المصادر التاريخية أن سكان بلاد القبائل كانوا يتعاملون مع السلطة العثمانية المركزية بحسب قوتها وضعفها، فكانوا يعلنون الولاء والطاعة أيام الإستقرا رو صلابة الحكم،و يعلنون عن تذمرهم وتمردهم في فترات الهون والمحن، وكثيرا ما كانوا يستنجدون بالأجانب وطلب الحماية.إذ يذكرا لقنصل الأمريكي شالر أنه وقعت اضطرابات في منطقة القبائل خلال أكتوبر من سنة 1823، من دون أن يذكر أسبابها، ويقول أن سكان بجاية أسروا المفتي الحنفي العثماني وجعلوه رهينة،و عندما تدخلت الدولة العثمانية المركزية اتصلوا بالقناصل الأوروبية لطلب الحماية، إلى ان يقول ان الإدارة العثمانية وجدت صعوبة في التعامل مع هذا الملف [3]

---

1 – عبد الجليل التميمي،بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا (1816-1871) ط2 (ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985) ص60 .

2 – تولى الداي الحكم سنة 1818 بعد موت علي باشا، وتعد مرحلته من المراحل الغنية بالأحداث في تاريخ الجزائر، ولذلك قال عنه الشريف الزهار:كان رجلا عاقلا متدينا محبا للعلماء والأشراف والمصلحين، وفي أول أمره كان بعض وزرائه يتصرفون وجميع ما وقع من فساد وظلم فهم منهم .للمزيد أنظر :الزهار، مذكرات، ص141.

3 – وليام شالر،مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر ١٨١٦-١٨٢٤، تعريب وتقديم إسماعيل العربي ط1،(ش.و.ن.ت، الجزائر 1982) ص194.

ومما لاشك فيه أن القناصل الدول الأوروبية قد وجدوا في طلب الحماية والتدخل ذريعة كافية للضغط على الباب العالي للحصول أكثر على الامتيازات وتوسيع النشاطات التجارية والإستراتيجية لها خارج حدودها الجغرافية.[1]

و هناك ثورة أخرى لاتقل أهمية عن سابقاتها وهي ثورة الشيخ محمد التيجاني سنة 1806 بعد رجوعه من البقاع المقدسة ومعارضته للسياسة العثمانية، وحسب ما ذكره الشريف الزهار فإن التجاني قد عزز من علاقاه مع سكان منطقة غريس بالقطاع الوهران، وأعجب به أهل المنطقة وبايعوه سرا، وأخذوا بطريقه وقد أقلق ذلك السلطة العثمانية، ووقع أحدا وهجوما بين اليجانيين وباي وهران بمنطقة عين ماضي بضواحي الأغواط من جهة، وبين باي التيطري. واليجانيين من جهة أخرى،وبذلك لم التيجاني أمامه إلا الانسحاب من وطنه وهاجر مع أهله وأتباعه إلى بلاد المغرب الأقصى.[2] ومم لاشك فه أن حركة التجان لم تمت بخروجه من وطنه، بل ظلت بن مريديه وأتباعه وأعلن أحد أبنائه المدعو محمد الكبير الثورة ضد العثمانيين بمنطقة معسكر،و تصدى له باي وهران من جديد حسب رواية الزهار بقوله:"فثبت هو وثبت من معه من الأعراب بثاتا لم يثبته أحد، وقاتلوا قتالا شديدا الى أن قتلوا عن آخرهم، قطعوا رؤوسهم وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس، وبعثوا برأس الحاج محمد ولد التيجاني ومعه بعض الرؤوس الأخرى للجزائر، فعندما وصلت جعلوا رأس ولد التيجاني في عمود وصلبوه قبالة الباب الجديد وعلقوا الرؤوس الأخرى حوله وبعثوا للسلطان محمود يبشرونه بقتله.[3]

---

1 - أن المتعارف عليه أن منطقة القبائل قد انتشرت بها الطريقة الرحمانية التي عرفت بالاعتدال ولم تواجه في العديد من الأحيان الدولة العثمانية، وبرغم ذلك فقد شهدت منطقة القبائل وخصوصا بجاية وضواحيها الكثير من الإنتفاضات قامت بها عائلات معروفة مثل عائلة أمقران وبن مسع و غيرهما، ويقال أن هذه المعارضة لم تكن بإيعاز من الطرق الصوفية ومن هذه الانتفاضات نذكر انتفاضة 1590 و1624 و1767 و1806 و1813 و1823 وللمزيد أنظر: Mouloud Gayed ,Histoire de Béjaia et de son Région ,2em ed (édition Mimouni Alger 1991) p142

2 - الناصري، الاستقصاء، ج8، ص285.

3 - الزهار، مذكرات، ص160.

ويؤكد هذه الرواية عبد الرحمان الجيلالي والذي يقول أن أحد أبناء الشيخ التيجاني، ويقصد به محمد الكبير قد مات في مدينة معسكر سنة 1827 أثناء قيامه بثورة ضد العثمانيين خلال عهدة الباي حسن آخر بايات وهران.[1]

وخلال هذه الأحداث كان آخ محمد الكبير التيجاني في بوسمغون، ومنها توجه الى منطقة عين ماضي وأخذ قيادة الطريقة التيجانية، وكان أكثر هدوءامن أخيه الثائرالذي دفع الثمن بموته.[2]

أما القسم الثالث من رجال التقوى فهو معتدل، فكان دوما يعطي النصائح والتوجيهات للسلطة العثمانية، من دون ان يصل الى العمل التصادي معها، ومن أمثلة ذلك علاقة الشيخ العبدلي في إقليم تلمسان، والذي كان دوما على علاقة بالقائد العثماني محمد بن سوري في مقره و كان يقدم له النصائح ويعظه لصالح أهل البلاد والعباد و نفس المعاملة تلقاها باي قسنطينة حسن بوحنك مع المرابط الشيخ الشليحي الذي وجد تجاوبا مع العثمانيين، ونتم أنشأ له الباي زاوية في منطقة أولاد عبد النور، كما أعفاه من دفع الضرائب.[3]

وكثيرا ما كان العثمانيون يكثرون من العطايا والهدايا للمرابطين بغرض استمالتهم، وتوظيفهم عند الشدة ضد المعارضة، ويذكر في ذلك سعد الله أن كتاب منشور الهدايا للفكون يحتوي على نماذج كثيرة عل طلب المرابطين للعطايا من المسؤولين، وعلى تورط هؤلاء في الفساد نتيجة تحالفهم مع الحكام الظلمة، كما أشار الشيخ الورتلاني في رحلته إلى تلك العلاقات، وكان رجال الدولة أحيانا يشترون صمت هؤلاء.

وكان بعض المرابطين هم بدورهم يرشدون الولاة ليسكتوا عن ابتزاز أموال الناس والتعدي على حرمات الرعية، كما لجأ البعض منهم أحيانا إلى اتخاذ طريقة النصب

---

1 – الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ص59.

2 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص194.

3 – سعد الله، نفس المرجع، ج1، ص 468.

والاحتيال للثراء في السلم الاجتماعي، كما فعل أحمد بوعكاز مع أهالي قسنطينة بعد ما ادعى الطريقة والمشيخة، وإقامة الحضرة أمام صمت الإدارة العثمانية [1] هكذا أعتمد العثمانيون بصفة أساسية على هذا الجناح من المرابطين في محاربة أية محاولة إصلاحية أو تجديدية أوثورية، مقابل منحهم امتيازات، وإعفائهم من الضرائب وتخفيض بعضها وتسهيل علاقتهم مع حكومة الوجاق وأنصار الباب العالي.[2]

والخلاصة أنه شاع عن العهد العثماني في الجزائر تواطىء المرابطين ورجال الدين مع السلطة الحاكمة، واقتسام المنفعة دون الاهتمام بالطبقة العريضة من الجزائريين، واختلط الدعاة الحقيقيون مع المزيفون، وانتشرت الأفكار والأذكار عمت المفاهيم الصحيحة مع المبتدعة، وأصبحت قرى ومدن وصحاري الجزائر لاتخلوا من القباب والأضرحة والهياكل القائمة بكل معلم صحيح أو خياليا يؤمه المريدون والزوار والطوائف، يقيمون الحضرة ويدقون الطبول ويكثرون من التهريج، مع نحر الذبائح واستقبال الهدايا.بل هناك من يخلوا بالحريم، وبذلك تعددت وتعقدت المناسك واختلطت الأصول بالفروع والفرائض مع السنن وكل ذلك جعل من الزائر ليفرق بين العابد لله والعابد للشيوخ والمرابطين والأولياء، وظل الحال على ما هو عليه طيلة الاحتلال الفرنسي الذي زاد الكيل كيلين، وقد عبر رجال الدين والإصلاح مع مطلع القرن العشرين عن رفضهم لهذه البدع والخرافات، ونذكر على سبيل المثال دعوة الشيخ الطيب العقبي الصريحة عند عودته من الحجاز بعد أن ضاق صدره من هذه الوضعية المزية التي وجد عليها الديانة الإسلامية في الجزائر،حيث شن هجوما على المبتدعة بقوله:

وشيخهم الأتقى الولي بزعمه ... إذا ما رأى مالا أمال له عنقا
وذلك أقصى سؤله ومرامه ... متى ناله أولاه من كيسه شقا
فما الطرق في هذا الزمان مجادة ... ولكنها يبغي بها أهلها الرزقا
تجارة قوم عاجزين سبيلهم ... سبيل ضلال جانبوا العلم والصدقا[3]

1 - نفسه، ص 471.

2 - Depont ,OP ,Cit ,p 132.

2 - جريدة الشهاب، عدد 199، السنة الثالثة، 27 أكتوبر 1927.

وهكذا عرفت الجزائر العثمانية حلقات مختلفة من مظاهر التصوف وعبادة الله والدروشة وعبادة الشيطان، حتى أصبح العلماء يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقة والسبحة ونحوها، وأصبح الحكام يظهرون كل الإحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا.[1]

5- أثرها على البنية الدينية والثقافية والاجتماعية

أسئلة كثيرة لا تزال تطرح حول السياسة العثمانية في الجزائر، وكيف تعامل هؤلاء مع الجزائريين في ميادين الدين والثقافة والاجتماع ؟ وهل أعطى العثمانيون الحرية الدينية للجزائريين ؟ وكيف تعاملوا مع ملف الهوية ؟ وما هي الأفكار التي انعكست على الجزائريين، وكيف كانت ردود فعل الجزائريين وخاصة من قبل العلماء، ورجال الدين والتصوف تجاه السياسة العثمانية ؟ وما هي انعكاسات تفاعل رجال الطرق على البنية الجزائرية ؟

قد اتفق الكثير من الباحثين ممن اهتموا بدراسة الوجود العثماني في الجزائر على أن الفعل العثماني لم يضطهد الجانب الديني والثقافي، بل تركوا له بعض الحريات، وخصوصا لذى الجماعات التي رأت فيها الولاء والطاعة، في حين لم يسلم الجانب الاقتصادي من الاستنزاف والإرهاق وأثقال كاهل الشعب الجزائري بالضرائب ونحوها.

وفي ذلك الصدد يذكر القنصل الأمريكي شالر في مذكراته أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يدين به الجزائريون، ولا يوجد في البلد دين آخر ما عدا اليهودية المسموح بممارستها لليهود واللغات المستعملة للحديث في مدينة الجزائر هي العربية والتركية والعبرية والشاوية، وأما اللغة التركية فهي لغة الإدارة، واللغة الفرنسية تستعمل في دوائر الأعمال واللغة الفرنكية هي لغة التواصل بين الجزائريين والأجانب، وهي خليط من اللغة الإسبانية والفرنسية والإيطالية والعربية.[2]

---

1 – سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص467.

2 – شالر، مذكرات وليام شالر، ص 39.

وكما أشرنا سابقا، فإن السياسة الدينية في الجزائر المتمثلة في الزوايا والطرق الصوفية ونحوها كانت نتيجة الفراغ الروحي والديني الذي تسبب فيه الوجود العثماني الذي ركز في مهامه على البنية العسكرية والاقتصادية التي كان يكسبها من غنائم البحر، وفرض الضرائب على المواطنين، ومن تم عرفت الحياة الثقافية بعض الركود برغم بقاء بعض دور التعليم رغم تنصل مسؤولية الدولة منها.

ولعل ذلك ما أشار شالر بقوله: ""و أما حالة العلوم فإن مما لا جدوى فيه الحديث عنها حيث أنها غير موجودة أو هي متى كانت موجودة، محتقرة، بل أن علم الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز."[1]

أما المؤرخ الأمريكي وليم سبنسر في كتاب الجزائر في عهد رياس البحر فقد أشار هو الآخر إلى أن رجال الصوفية أثروا هم أيضا على السياسة العثمانية، وقد أشار إلى ذلك بقوله :إن التدين الشديد للأتراك وخرافية النخبة العسكرية التي لاتعرف الكتابة قد أدت إلى تعاظم مثل تلك العادات الدينية المأثورة... وكان الاعتقاد في الأرواح الشريرة وتدخل قوات المرابطين قويا، وكان لهم دور خاص كمتوسطين ومظنة للتكريس لهم من قبل النساء الجزائريات... وكانت النساء يزرن القبب بانتظام كي تعد من القرابين، ويوقدن المصابيح الزيتية ويقطفن الزهور لتدعيم التدخل الديني الذي يطلبنه بغية إبعاد المصائب الاجتماعية أو العائلية[2]

وأمام تردي ذلك الوضع استدعت الضرورة برجال الدين إلى أخذ زمام الأمور لانتشال المجتمع من الكثير من البدع، التي ألصقت بديانته، بعد انتشار ظاهرة الدروشة والضلالة والبدعة التي كثيرا ما كانت تغذيها أطراف في السلطة العثمانية لتويع الذهنيات، وإبعادها على جادة الصواب ليطيب بها العيش والبقاء في سدة السلطة خدمة لذواتها، لا لخدمة الشعب الجزائري قاطبة.

1- شالر، المصدر السابق، ص 81.

2- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر،تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، ط1،(ش.و.ن.ت، الجزائر 1980) ص105.

وكما هو معلوم فإن العهد العثماني في الجزائر عرف بالركود الثقافي شأنه شأن البلاد العربية الأخرى، ويقول سعد الله في ذلك الصدد لم تكن هناك حركات تجديدية فكرية لا انتفاضات علمية ذاتية أو متأثرة بالبلاد الأوروبية، وأن اللغة العربية ظلت لغة التعليم ولغة الشعب فإن الدولة قد اتخذت اللغة التركية لغة رسمية لها، فكان إنتاج اللغة العربية يكاد ينحصر في الموضوعات الدينية والتعليمية وقليل من الشعر.[1]

وهكذا يمكن القول أن حالة الجزائر الثقافية خلال تلك الفترة لم ترق الى الحالة التي أصبحت عليها بلاد أرويا التي أرست لنفسها نهضة حديثة شجعت من خلالها حركة التنوير والبحث والترجمة والكشوف الجغرافية .لكن هذا لا يعني من جهة ثانية أن الجزائريين وقتها كانوا يرفضون مسايرة حركة الركب كما أوضح ذلك شالر، ولعل رحلة ابن زاكور[2] الى الجزائر سنة 1683 تشير إلى ذلك أيضا، خصوصا وأنه التقى بالعديد من علماء المدينة وأخذ عنهم واستجازهم، وعكس ذلك حالة الجزائر الثقافية ومن تلاميذه نذكر الشيخ محمد بن سعيد قدورة[3] وقد كتب ابن زاكور رحلته بعنوان " نشر أزاهير البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان، وقد خص بن زاكور القسم الأول من الرحلة للجزائر وذكر علمائها وطرق التدريب بها والإجراءات التي تحصل عليها.[4]

---

1 – سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، بداية الاحتلال، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983، ص159.

2 – إبن زاكور (1663–1708) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي شاعر وأديب ورحالة تعلم بفاس ثم تابع دراسته بمدينة تيطوان، وأخذ عن علمائها من بينهم الشيخ عبد القادر الفاسي (1599-1681) والشيخ محمد المهدي اللفاسي (1648-1732) والحسن الأيوسي (1630-1691) ومحمد القسنطيني الحسني للمزيد أنظر: مولاي بلحميسي، الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، (ش.و.ن.ت، الجزائر 1981)، ص19.

3 – محمد بن سعيد قدورة يعد من أعلام الجزائر خلال القرن 17 تولت عائلته الإفتاء المالكي بالجامع الكبير اكثر من قرن .للمزيد راجع :الحفناوي تعريف الخلف، ص66. وكذلك سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ص357.

4 – بلحميسي، المرجع السابق، ص115.

وهكذا إذ نجد أن السلطة العثمانية لم تقدم الدعم للجزائريين في المجالات الدينية،بقدر ما اعتمد هؤلاء على أنفسهم الخاصة ومن تم نجد أن العلاقة بين رجال الدين والثقافة كانت أقرب إلى الجزائر منها إلى البلاط العثماني بذلك فلا غرابة أن نجد الطرق الصوفية قد أثرت إيجابا على تلاحم القبائل والاعراش بين بعضها البعض، كما أن هذه الطرق توسعت شرقا وغربا، بل امتدت إلى المناطق الصحراوية وحتى إلى المناطق التي ظلت بعيدة من الحكم العثماني كمنطقة إقليم توات الذي راهنت عليه الدولة السعدية بالمغرب السلطان أحمد المنصور الذهبي ومن تبعه وأصبح مشايخ توات يدفعون الضرائب السنوية إلى حكومة المخزن بالمغرب.[1]

و برغم أن إقليم توات لم يخضع للدولة العثمانية لكنه تفاعل معها من النواحي الثقافية والفكرية والروحية بصفته جزء من العالم الإسلامي الخاضع للخلافة العثمانية، وبذلك خضع التواتيون للمعايير والتيارات الثقافية والفكرية السائدة في العديد من دول الوطن العربي، مع اختلاف بسيط وهو أن اللغة العربية بالإقليم سلمت من مزاحمة اللغة التركية لها[2] وذلك عكس ما منيت به العربية في منطقة الشمال والتي أدخلت عليها العديد من المفردات التي أصبحت شائعة بين العامة من الناس.

وكان لانتشار مبادئ الطريقتين القادرية والتجانية أثرهما الكبير والواضح على منطقة بلاد السودان الغربي، كما كانت منطقة تمبكتو مقصدا لاستقطاب العلماء والفقهاء التواتيين الذين ساهموا هم بدورهم في نشر الطرق الصوفية في الكثير من المدن والقرى السودانية، ومنذ القرن الخامس عشر 15 م أصبحت منطقة توات منطلقا أساسيا في تفعيل الفكر الصوفي والديني نحو السودان الغربي، ولعل من بين المشايخ من رجال الدين نذكر على سبيل المثال لا الحصر الشيخ عبد الكريم

1 - الناصري، الاستقصاء، ج3، ص 46.

2 - فرج محمود، إقليم توات، ص 85.

المغيلي[1] الذي جعل من توات مركزا لنشاطه الديني والتربوي، وأصبحت زاوية قصر ملوكة من أغنى مكتبات المغرب العربي على الإطلاق.[2]

مما سبق ذكره نلاحظ أن الطرق الصوفية تعددت أفكارها المستوحاة من البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، وامتازت بتقديم الخدمات لمدى يتطلبه محيطها في المجال التربوي والروحي والديني ورصد جملة من الورود والأذكار ونحوها لتلقين الأتباع والمريدين وربطهم بالطريقة، مع العلم أن بعض هذه الطرق قد أولى من العناية التامة لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف واللغة العربية ونحوها من العلوم الشرعية واتضح هذا الاهتمام بالخصوص لدى الرحمانيين، لذلك كثرت زواياهم التعليمية وأمت معمراتهم الطلبة من مناطق عديدة من الوطن، بينما نجد لدى الطرق الأخرى كالتجانية والدرقاوية والشاذلية مهمة التربية وخدمة المجتمع من الوجهة الروحية أكثر من اهتمامها بالجوانب الأخرى.[3]

وكان انعكاس وتأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري واضحا ولكنه يختلف من طريقة لأخرى، وذلك لخاصية الطريقة ونشاط شيخها وتفعيل أذكارها ومضمون جوانبها الروحية والفكرية، هذا فضلا على المحيط البيئي التي ظهرت فيه كل طريقة وكيف نظر إليها المجتمع من جهة، ومدى علاقتها مع السلطة الحاكمة من جهة ثانية، ومن تم فقد أعتبر الأمير عبد القادر أن الطريقة التجانية لم تجد نفعا للجزائريين ولم تقدم له ما ينفعه، بل ذهب الى أبعد من ذلك وشبه أصحابها بالملاحدة الذين لا يعترفون بالجانب الروحي، وأشار الى ذلك بقوله : "وأما ما أرتكبه هو وأصحابه أي شيخ التجانية من البدع في الدين فقد فاق أمرهم

---

1 – عبد الكريم المغيلي نسبة إلى قبيلة مغيلة بقرب تلمسان فقيه ومفكر جزائري من مواليد تلمسان في منتصف القرن 9هـ بعد دراسته رحل لالى الصحراء ونزل بتوات ودعا المغيلي لمحاربة اليهود بالمنطقة ثم رحل هذا الأخير إلى كانو وعزز علاقته مع السلطان الحاج محمد اسقيا سنة 1502 ثم رجع إلى توات ومات بها سنة 1504 وترك لنا مؤلفا في الفقه والتراجم والتاريخ ونحوها . للمزيد راجع : البستان لابن مريم.

2 – فرج محمود، إقليم توات، ص 85.

3 – العيد مسعود، المرجع السابق، ص 14.

أن يجوز الماحدين، ولو قصصنا عليك ما أطلعنا عليه من اعتقاداتهم الفاسدة لقال العالم أن هؤلاء أحق باسم الملاحدة "[1]

أما الطريقة الرحمانية فقد كانت هي الأخرى أكثر انتشارا من غيرها، واعتنت بحركة التعليم وتحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، وكان نشاطها في القرى والمداشر والأرياف، كما كانت في االحواضر والمدن، وتطورت هذه الطريقة من زاوية إطعام وإيواء لعابري السبيل إلى زاوية تعليمية محضة[2] ومن تم فقد خرج صدى الطريق الرحمانية إلى خارج حدود الجزائر ووصلت إلى مناطق عدة من دول الجوار بما فيها الدول الإفريقية.

وكان التعليم لدى الطرق الصوفية مقتصرا في معظمه على تعليم الذكور دون البنت، ولو أننا نجد لدى بعض الطرق من العناية الكافية بإدراج البنت في حاق التربية والتعليم، ومن ذلك ما نجده لدى الرحمانيين والتجانيين الذين أولوا العناية بتعليم المرآة وقربوها من نشاطاتهم، وذلك بغرض تحقيق جملة من الأهداف والمتمثلة في إضعاف شوكة بعض المرابطين وصلتهم الوطيدة بالعديد من شؤون قضايا المرأة، هذه الأخيرة التي كانت أكثر تقربا وزيارة للأضرحة والتبرك بالوالي والمرابط وحتى تقديم طلباتها له بغية تحقيق الكثير من الأماني الضائعة، ومن تم فقد راهنت بعض الطرق على ضرورة مزاحمة المرابط في توظيف المرأة لخدمة طريقتها، وأن تجريد الطرف للطرف الآخر من المرآة سوف يكسبه القوة على الخصم.

ومن جهة أخرى فإن تربية المرآة من الوجهة الروحية والدينية والخلقية سوف تقدم دعما كبيرا للطريقة لما تحتله المرآة من مكانة في الوسط الأسري وما تقوم به من تربية عائلية وبناء الأجيال وتوعية الناشئة باعتبار أن الأم نصف المجتمع،

---

1 - العيد مسعود نقلا عن المهدي بوعبدلي في محاضرة بعنوان : الثقافة والتوجيه بالجزائر ألقاها المحاضر في ملتقى الفكر الإسلامي الذي احتضنته الجزائر في سنة 1970.

2 - عميراوي، المرجع السابق، ص 65.

وكل ذلك لا محال فإنه يصب في استمرارية ونشر مبادئ الطريقة، ولعل ذلك ما دعا إليه وأوصى به شيخ الطريقة الرحمانية محمد بن عبد الله في رسالة بعث بها إلى داي الجزائر ألح له من خلالها أنه حان الأوان للاهتمام بتربية المرآة وتعليمها تعليما إسلاميا ودمجها في المجتمع وترقيتها في مناطق عدة من بلاد الجزائر وخصوصا منطقة بلاد القبائل لأنها مغيبة فيه.[1]

والحق أن إهمال المرأة بهذه المنطقة وعدم ربط قضاياها بالشريعة الإسلامية والاحتكام إلى العرف والتقاليد جعلها تجرأ على فعل ما تشاء، وتذكر بعض المصادر التاريخية أن اهتمام الطريق الرحمانية بقضايا المرأة جاء نتيجة الانحلال الخلقي الذي آلت إليه المرأة في منطقة القبائل، وقد وصف ذلك التدني والتفسخ الخلقي ونحوه من الأعمال الذميمة والحقيرة الشيخ الورتلاني في رحلته من خلال زيارته لمنطقة زمرة ببلاد القبائل وما وجد عليه نساؤها بقوله : " فنجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهم في ليلة زفاف بهن في الأزقة مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر والثدي وتحت الإبط والساق والفخذ، ومع ذلك أنهن أجمل خلق الله.."[2]

وبرغم أن الطرق الصوفية قد حاولت احتواء شرائح المجتمع، إلا أن رجال الدين الموظفين لدى السلطة العثمانية كانوا لهم بالمرصاد في العديد من الأحيان، وذلك إما لخروج رجال الطرق الصوفية على تعاليم الإسلام السمحة، وإما لتضارب

---

1 – ظلت المرآة في بلاد القبائل مهمشة واقتصر وجودها على الإنجاب وتقديم الخدمات لا غير، ولم يكن لها الحق في الإرث الذي أقرته الشريعة الإسلامية، ولذلك فقد دعا الكثير من رجال الإصلاح والدين إلى ضرورة نبذ هذه العرف البالية ونذكر منهم الشيخ محمد بن الخوجة 1915/1861 الذي ألف كتابا هاما حول المرأة بعنوان : الإكثرات في حقوق الإناث، واللباب في أحكام الزينة والاحتجاب ونحوها من الكتب القيمة التي تحتاج إلى التعريف والإطلاع والتي أثرت المكتبة الجزائرية في وقت مبكر من) الاحتلال الفرنسي وللمزيد حول حركة الإصلاح الاجتماعي راجع: محمد بن المصطفى بن الخوجة، عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر، مطبعة فونطانا الجزائر 1901 ص2، وكذالك : رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، ج1، ط1،) مطبعة المنار مصر1930) ص 870.

2 – محمد السعيد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن شنب، الجزائر 1908، ص 70.

المصالح المالية والاجتماعية بين الطرفين لكن رجل الدين العثماني ظل تأثيره ضعيفا على الأوساط العامة التي كثيرا ما ارتبط فكرها ببركات الشيخ، في حين أن المفاتي والأئمة التزموا بالنصوص واقتصر اعتمادهم على القضايا العلمية والفلسفية التي ظلت مجهولة لدى العامة من الناس، كما أن الأئمة ليست لهم بركات يتوسطون بها بين العبد وربه في مفهوم العامة، وهم أيضا موظفون لدى السلطة العثمانية التي أصبحت هي الأخرى من المغضوب عليهم بعد ظاهرة التمردات والثورات الشعبية التي ثارت في وجهها كما أشرنا سابقا.

و برغم ذلك كله، فهناك من يرى أن الإرث الثقافي للجزائر العثمانية كان أحسن حال عما آل إليه بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وزوال العثمانيين، وأن الوجود العثماني لم يشكل ظاهرة الصراع الفكري بين طبقات المجتمع الجزائري، وقد أشار إلى ذلك الدكتور عبد المجيد مزيان بقوله : فالمجتمع الجزائري قبل الاصطدام مع الاستعمار أي الفترة العثمانية كان مجتمعا إسلاميا بالمعنى الكامل لهذا المفهوم، أعني أن بنايته الحضارية في جميع مظاهرها من نظم اجتماعية وتشريعات وثقافة وكانت تعتمد على ميادين الإسلام.. "[1]

أما الدكتور بن أبي شنب فقد أشاد هو الآخر بالدور الهام الذي أسهمت به الطرق الصوفية والزوايا في خدمة العلم والتربية والدين والتوجه الإسلامي، وأوضح أن الزاوية اشتركت مع المدرسة في حلق العلم وتنمية الحياة الثقافية على العموم، ومن ذلك قوله : ولم يكن العلم مقصورا على مساجد المدن ومدارسها وزواياها، ولم يكن حب العلم منحصرا في عواصم البلد، بل كانت القرى تشارك في الحياة الثقافية وتأخذ نصيبها منها، وذلك بواسطة بعض الزوايا الكبيرة التي تؤثر الدروس على الأذكار في جميع نواحي الجزائر شرقا وغربا في الشمال وفي الجنوب في السهول وفي الجبال بحيث لا يسعنا المجال لإحصائها.. "[2]

---

1 - عبد المجيد مزيان، الأزمات الثقافية في الجزائر، مجلة المجاهد الثقافي، العدد 7، جوان جويلية 1968، ص 72.

2 - بن أبي شنب، النهضة العربية بالجزائر، ص 38.

كما أن مساهمة هذه الزوايا في الحياة الثقافية والفكرية للجزائريين يعد مهما بل وخرج صداه إلى الخارج ووصل الدول المجاورة، ومن ذلك أصبحت بعض الزوايا كزاوية الهامل ببوسعادة ووزاوية شلاطة ببلاد القبائل تضاهي في مكانتها العلمية بعض المؤسسات الفكرية والدينية المتواجدة في تونس والمغرب الأقصى كالزيتونة بتونس والقرويين بفاس، ولعل ذلك ما وقف عنده بن أبي شنب بقوله : " كانت بعض الزوايا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر تكاد تنافس الجامع الزيتوني بتونس أو جامع القرويين بفاس من حيث مقدرة الأساتذة ومستوى التلاميذ، فكثيرا ما كان ينقل الطالب من رواق زاوية إلى رواق من أروقة إحدى الجامعتين الإسلاميتين المجاورتين، وهو لا يشعر بأنه غادر معهده الأول، أو كأنه تحول في نفس وطنه من زاويته الأخرى. وكان العلماء بالمغرب الأقصى وتونس يقدرون شهادات الطالب الجزائري حق قدرها ويعترفون له بقيمة دراسته السابقة، فإذا قال ذلك الطالب أنه تخرج من مدرسة مازونة أو زاوية شلاطة أو من زاوية الهامل أو زاوية أبي داود أو غيرها من معاهد البلاد اعتبرت دراسته وإجازته وألحق بالأقسام الأخرى للتخصص.. "[1]

وقد أشاد بذلك الجو الثقافي الذي كانت عليه الجزائر قبل الاحتلال الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في كتاباته حول تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي بقوله : لقد كانت الجزائر ولا سيما منها العاصمة من المراكز الإسلامية التي كتب لها فضل السبق في ميدان تشييد هذه المراكز الإسلامية، فالتاريخ شهد لنا بأنه كان يوجد بهذه العاصمة قبل الاستيلاء الأجنبي عليها ما يزيد على نيف وعشرين ومائة معهد إسلامي، أي ما بين مسجد جامع ومصلى للصلوات الخمسة وزاوية للدراسة والصلاة ومدرسة للتعليم الثانوي والعالي وكتاب للصبيان وقبة ضريح، ومنهم من زاد عن هذا العدد فبلغ 166 مؤسسة إسلامية وهي عنده على هذا التفصيل : 109 مسجدا، و13 مسجدا جامعا، و32 ضريحا، و12 زاوية.[2]

---

1 - بن أبي شنب، النهضة العربية، ص 39.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، الجامع الكبير لمدينة الجزائر معلما وتاريخا، مجلة الأصالة، العدد 8، ماي جوان 1972، ص 114.

والظاهر أن العهد العثماني في الجزائر كان غنيا بالعلماء، وخلال القرون الثلاثة الأولى نبغ الكثير من الأدباء ورجال الفكر والثقافة وكانوا من ذوي القربى بالزوايا والمساجد والعمران، ولعل من خيرة هؤلاء العلماء نذكر على سبيل المثال لا الحصر سيدي محمد الشريف الزهار، والشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، والشيخ أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري السجلماسي، وأبو عثمان سعيد قدورة، وأبو مهدي عيسى الثعالبي، والشيخ محمد بن علي، والعلامة يحي الشاوي، والشيخ محمد بن السيد المؤمن، وأب عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة والشيخ عبد الرزاق بن حمادوش[1] ومحمدبنن محمد المانقلاتي، ومحمد بن سعيد بن علي، والعلامة أحمد بن عمار، ويحي بن محمد الجزائري، والشيخ المفتي بن الشاهد[2] وسيخ الإسلام بن العنابي الذي نفاه القائد الفرنسي الجنرال كلوزال إلى الإسكندرية[3]، وأحمد الغزال الجزائري، ومحمد بن رجب الجزائري، ومحمد بن عبد الرحمان الأزهري الزواوي.[4]

ويمكن القول أن الطرق الصوفية في الجزائر قد حققت بعض الأشياء الإيجابية على مريديها وأتباعها، كما تركت أيضا ما هو سابي عليهم، وأما عن النقاط الإيجابية التي تركت بصماتها على المجتمع الجزائري عموما والمريدين والأتباع بوجه أخص فنوجزها في التالي :

1 - تحقيق الوحدة الروحية بين أفراد المجتمع الجزائري، وذلك ما أهله للانطواء تحت مظلة السلطة العثمانية التي ظلت حاملة شعار الخلافة الإسلامية، رغم تبعية بعض المناطق البعيدة جغرافيا عن السلطة المركزية ومن تم ظلت تربطها جباية الضرائب ودفع الإتاوات ونحوها من الموارد المالية السنوية.

---

1 - أبو القاسم سعد الله، رحلة بن حمادوش الجزائري، ط1، (المؤسسة العامة للفنون المطبعية الجزائر 1983)

2 - كتب عن المفتي سعد الله دراسة قيمة نشرها في مجلة الثقافة في عددها 61 الموافق ل جانفي فيفري 1981، ص 11.

3 - محمد بن محمود بن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم، (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983) .

4 - للتعرف أكثر حول هؤلاء الأعلام راجع : سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي بأجزائه الثلاثة الأولى، والشيخ الحفناوي في كتابه : تعريف الخلف برجال السلف بجزأيه.

2 - الحفاظ على الوحدة الوطنية نتيجة التلاحم الروحي والديني بين الأرياف التجارية والمعالم الدينية من زوايا ونحوها ونقل الطلبة عبر جهات عديدة من الوطن وكل ذلك عمق من أواصر التعارف ومد جسور المحبة بين طبقات الشعب الجزائري.

3 - محاربة الأجنبي ورفع راية الجهاد في وجه الكفر والصليبية والتصدي لسياسة التنصير والتمسح وخصوصا ببلاد القبائل التي استهدفت منذ الوهلة الأولى للاحتلال[1]، وكذا التمسك بثقافة الصمود والمقاومة وحب البقاء،، ولعل خير مثال على ذلك المقاومة الشعبية التي كانت تحت توجيهات الزوايا منذ دخول الفرنسيين أرض الجزائر.

4 - بقاء الحركة التعليمية من خلال تواجد نشاط الزوايا والكتاتيب القرآنية، ونشر العلم وتشجيع العلماء وعدم التصدي لنشاطاتهم مقارنة بباقي القطاعات الأخرى التي ظلت شبه مهملة، وهذه الخاصية حقيقة أقرها العديد ممن اهتموا بدراسة تاريخ الجزائر الثقافي بما فيهم رواد المدرسة الفرنسية بعد الاحتلال مباشرة.

5 - مساهمة الوقف في خدمة العمل الخيري والاجتماعي والتعليمي، إذ ظل المصدر الهام والمورد الأساسي في تقوية حركة التعليم ودور التدريس وتفعيل مهام المساجد، وكان المورد المالي يكاد ينحصر في الوقف والهبات ونحوها باعتبار أن تدعيم السلطة المركزية كان ضعيفا جدا مقارنة بالمهام التي أدتها هذه المؤسسات الثقافية والخيرية للمجتمع.لأن السلطة العثمانية اهتمت بموارد البحر وجباية الأموال وفرض الضرائب واستقبال وفود الدنوش.

6 - بروز كوكبة من العلماء ورجال الفكر ممن تولوا خدمة العلم والمعرفة وكتبوا في السير والتراجم كما أولوا العناية الكافية لقضايا الدين، وكتابة التاريخ والعلوم النفعية كالطب والصيدلة والمتداوي بالحشائش والكي ونحوها من قضايا التطبيب

---

1 - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر 1871/1830، مجلة الثقافة، العدد61، جانفي فيفري 1981، ص 67.

وقد خرج صدى هؤلاء العلماء إلى خارج حدود الوطن والى أطراف العالم الإسلامي، كما أبلغوا اهتماماتهم إلى الطرف الآخر في بلاد المشرق الإسلامي[1] ومن بين هؤلاء نذكر أحمد المقري وعيسى الثعالبي، ويحي الشاوي، وأحمد بن عمار، وحمودة المقايسي، والمفتي بن العنابي، وبن حمادوش، وأبو راس الناصري، والورتلاني، وغيرهم من رجالات الفكر والثقافة في العهد العثماني بالجزائر.[2]

7 - المحافظة على بقاء القرآن وتحفيظه للأجيال وتوسيعه للكثير من الأطفال الجزائريين، بحيث لا توجد دشرة لا يوجد بها من حفظة القرآن، برغم فقر هؤلاء إلى معرفة باقي العلوم الدينية المكملة لفهم القرآن وتفسيره ونحوها من قضايا الديانة الإسلامية، وكان الكثير من الشباب الجزائري يعرف القرآن كتابة وحفظا وتلاوة وتجويدا بهدف إبعاد يد الأجنبي على ضياعه وتحريفه ويعد ذلك إرثا تراثيا وثقافيا قاوم المد الصليبي والتحرش الاستعماري على سواحل الجزائر قبل القرن 19 وبعده، ومع مرور السنين والأعوام فقد ظل الشعب الجزائري على ولائه لهذه المرجعية الدينية التي مكنته من المسخ الاستعماري فيما بعد، وقد أشار الى ذلك أحد طلبة زاوية الشيخ عبد الرحمان اليلولي حينما قال:" شهد الله أننا طلبنا العلم لله لا للتوظيف لقد أكلنا الحشيش، ونمنا على الحصير، ومشينا حفاة في البرد الشديد، ما زدتنا قسوة الطبيعة وشطف العيش وقسوة الحياة وصلابة الحرمان إلا صبرا وعفة لا العراقيل والحواجز إلا إقحاما واندفاعا نحو الهدف الأسمى، أملنا الوحيد أن نحفظ القرآن ونتعلم اللغة العربية والعلوم الشرعية، وفي سبيل ذلك يهون كل شيء "[3]

---

1 - توفيق المدني، هذه هي الجزائر، (مطبعة النهضة المصرية) ص 73. وكذلك : محمد طه الحاجري، جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر (معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1968) ص 86.

2- حول نشاط هؤلاء الأعلام راجع : سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط2، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981) ص 177.

3 - عبد الحفيظ أمقران الحسني، مذكرات من مسيرة النضال والجهاد / مطبعة دار الأمة الجزائر 1997.

أما عن الأشياء السلبية التي تركتها بعض الطرق الصوفية المنحرفة على خصوصيات المجتمع الجزائري، والتي لا يزال منها الموروث حتى اليوم نذكر منها ما يلي :

1 - شيوع ظاهرة الدروشة وانتحال صفة الولاية والتوسل للطرق، والإكثار من زيارة القباب والأضرحة والبكاء على القبور والموتى، ولعل المغالاة سوف تؤول حتما إلى ظاهرة الشرك والخروج عن طاعة الله ووحدانيته وكذا الابتعاد عن قضايا الدين القويم، وقد نتج عن ذلك تشجيع الاختلاط والرفس والزنا والخلو بالنساء والفجور معهن تحت مظلة القضاء والقدر والتوسل للمرابطين بغية تحقيق مآرب ضائعة وغير متوفرة، ويذكر في ذلك الباب الورتلاني أنه كان بمدينة بجاية مدع للولاية، وأن كل أمرآة لا تلد كانت تأتيه فيتخلى بها فتلد ولدا، فذهبت ألأيه زوجة الشيخ عبد الحق الفجيجي، ورافقها زوجها، فلما طلب الرجل من المرأة الخلوة بها رفض زوجها، وعلم أنه رجل فأذاع أمره بين الناس فبلغ ذلك حاكم المدينة، وكانت زوجته قد ذهبت إلى الرجل وفعل بها ما فعل بغيرها من النساء، فأصابت الحاكم المعرة فقتل الشيخ عبد الحق وعلق رأسه على باب المدينة [1].

2 - انتشار ظاهرة الاعتقاد دون الانتقاد بحيث أصبح ذلك من المسلمات به، ووضع الكثير من الجزائريين شؤونهم تحت أمرة الطرقيين والمبتدعة والمشعوذين وأهل الظلال، وكثر التدجيل باسم الدين الحنيف واختلط التصوف مع المبتدعة، وعمت الحضرة وكثر التوسل والإتكالية والكسل، وعبادة الشيخ والإكثار من زياراته، وبالمقابل برز بعض الدعاة ممن يرفضون هذا السلوك الخرافي الغريب عن الإسلام والمسلمين، ومن بينهم عبد الكريم الفقون بقسنطينة والذي هاجم المنحرفين عن الدين وقال أن دعوة أهل التصوف كان غرضها جمع المال والثراء على حساب الآخرين، وكتب عن الحضرة يقول : " إنها لعبة يتخذونها ويراءون بها الناس ولا يستخفون من الله بها يأكلون ومنها يتمولون وعليها في قضاء أوطانهم يعولون، يجتمعون لذكر المولى جل جلاله فيغيرون اسمه، ويشطحون ويرقصون، وربما

---

1 - الورتلاني، نزهة الأنظار، ص 20.

يتضاربون فتراهم كالكلاب نابحة، ولعابهم كمياه طافحة، وأنفاسهم كنيران نافحة، أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون.. " [1].

ومن تم سوف نجد العديد من رجال الإصلاح يصفون بعض رجال الطرق الضالة بكونهم جاءوا لخدمة الاستعمار ونشر الميوعة ونحوها من الضلالات والبدع، وقد تجلى ذلك لاحقا بعد ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي اعتبرت هؤلاء من دعائم التواجد الفرنسي في الجزائر، وهم خدم سياسة، وقد تجلى ذلك واضحا في كتابات بن باديس والطيب العقبي والإبراهيمي، هذا الأخير الذي أعتبرهم أخطر حتى من الوجود الفرنسي نفسه على الشعب الجزائري.[2]

3 - الانغلاق على الذات والجنوح نحو الخلوة والتصوف، والأخذ بمرجعية السلف السابق دون مراعاة للظرف الجديد، ولا توظيف القدرة الذهنية والعقلنة في دراسة المحيط، وكل ذلك أغلق مدارس الاجتهاد وقلل من رواد العقلنة وفكر الحداثة وحتى الاستفادة من حركة التنوير التي عرفها العالم مع بداية التاريخ الحديث، ومن تم لم تربط قضاياهم الأخروية بقضايا العالم الدنيوية.

4 - عدم مسايرة رجال الطرق الصوفية لمرحلة التنوير واليقظة التي شهدها العالم الأوروبي بعد حركة الكشوف الجغرافية وظهور الطباعة والصحافة وحركة التأليف والكتابة ونحوها من مظاهر الحضارة الحديثة التي استفادت من خبرة العالم الإسلامي في أزهى عصوره، بعد أن ألحقوه بمرحلة الكساد والجمود عكس غيره في بلاد العالم الغربي، برغم محاولات الإصلاح التي قامت بها الدولة العثمانية، ولكنها جاءت متأخرة ولم تواكب حضارة الغرب بل لم تكن نابعة من الذات الإسلامية [3]، وحتى تلك المحاولة اليائسة لم تكن موجودة لدى الجزائريين الذين سلموا أمرهم لرجال الصوفية.

---

1 - سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون، ص 133.

2 - إبراهيم مذكور، المرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 21، القاهرة 1966، ص 132. وكذالك : علي الشامي، التقريب الثقافي والتربية الإسلامية في الجزائر، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، العدد 21، جويلية 1981، ص 185.

3 - محمود علي عامر، تاريخ الدولة العثمانية، (مطبعة الداودي دمشق 2003،) ص 175.

الفصل الرابع

الزوايا والكتاتيب القرآنية

1 - الزوايا والكتاتيب القرآنية

1/ مفهوم الزوايا

كان لانتشار الطرق الصوفية في الجزائر إبان العهد العثماني أبرز مميزات هذا العهد، بحيث كثرت المباني المخصصة لهذه الطرق، وعاش المتصوفة ورجال الدين يتعبدون بها ويعلمون إتباعهم الورد والأذكار وبعض من العلوم الشرعية، وأصبح لكل من هؤلاء المرابطين خلوة يستقبل فيها أتباعه وزواره، ومع تطور الزمن أصبح هذا المرتع بمثابة المكان المزار بين العديد من الناس المعتادة زيارة الشيخ أو المرابط بغرض التبرك ببركاته في حالات العسر واليسر، وبعد الوفاة تتولى العائلة مسؤولية الحفاظ على هذا الإرث الروحي، وتسمى وقتها بزاوية سيدي فلان نسبة لذلك المرابط المزار قبل وفاته، ومع تطور الوقت تزداد قداسة هذه الربط والمزارات بين أهالي المنطقة بالخصوص. [1]

وقد اعتبر بعض المهتمين بالجانب الثقافي والديني في الجزائر أن الزاوية هي عبارة عن مجموعة من الأبنية ذات الطابع المعماري الإسلامي، وقد بنيت لأداء وظيفة دينية بحتة، وكثيرا ما شيدت قبابها على أضرحة الأولياء الصالحين، أو بنيت تخليدا لذكراهم، وأما عن تسمية الزاوية فيرى محمد علي دبوز أنها جاءت إما لانزوائها عن المدينة باعتبار أن العديد من الزوايا كانت في مناطق قروية، أم لأن وجودها كان دوما في زاوية وأطراف المدينة أو ركن منزو بها. [2]

ولذلك فالزاوية هي في الأصل ركن البناء، ويطلق اسم الزاوية على طائفة من الأبنية ذات الطابع المعماري الديني، وهي تشبه المدرسة أو الدير، وهي تجمع

---

1 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 167 .

2- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج١، ط١، (المطبعة العربية الجزائر١٩٧١) ص ٤٢.

غرفة للصلاة بها محراب وضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف في اعتقاد الناس وقد لا يكون غير ذلك، ويعلو المبنى قبة ومقصورة لتلاوة الصلاة، تم غرفا مخصصة لاستقبال ضيوف الزاوية أو المسافرين وعابري السبيل وحتى الطلبة، وعادة ما يلحق بالزاوية قرابة وهي عبارة عن فبور وهي مكان آخر مخصص لدفن من أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها.[1]

وقد تطور مفهوم الزاوية بتطور المراحل التاريخية، وأصبح مصطلح الزاوية في المغرب حوالي القرن 13 مرادفا للرابطة أي الخلوة التي كان يعتزل فيها الوالي، ويعيش مع تلاميذه ومريديه، ولم تبق فكرة الزاوية هي الرباط الذي جمع بين الدين والجهاد ونشر الإسلام والفقه ونحوه .

كما عرف المغرب الأقصى باهتمامه الواسع بالزوايا وسميت بدار الكرامة، في عهد الملك يعقوب الموحدي في مدينة مراكش، تم أطلق المرينيون فيما بعد على الزوايا دار الضيوف.

وبذلك عرفت الزاوية في المغرب العربي بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها المريد للذكر والأوراد وإسماعها للآخرين، وهي مأوى أيضا للطلبة ولطلاب العلم ورجال الدين الذين كانوا يأتونها من مناطق عديدة ولبقيت الزوار الدين يقصدونها للاستفتاء أحينا وعقد الصلح بين المتخاصمين أحيانا أخرى، وكثرت هذه الزوايا مع بداية التاريخ الحديث، وخصوصا بعد بداية التحرش الإسباني والبرتغالي على سواحل المغرب العربي، وبذلك داع صيتها .ولعل من بينها الزاوية الدلائية بالمغرب، وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بالجزائر والزاوية السنوسية بليبيا.[2]

ويذكر محمد نسيب أن بلاد القبائل عرفت هي بدورها نوعا جديدا يشبه الزوايا، وقد أشار إلى ذلك بقوله : " ثم ظهر نوع آخر من هذه المعاهد لا هي زاوية ولا رباط، وتعرف في بلاد القبائل بالمعمرة .وهي عبارة عن معاهد لتعليم القرآن وحفظه أو لدراسة العلوم، ولانتشر هذا النوع من المؤسسات الثقافية بناحية منطقة

---

1 – محمد نسيب، زوايا العلم، ص 27.

2 – أحمد صدقي الديجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، القاهرة 1988.

بجاية بعد الاحتلال الإسباني لها، ومغادرة سكانها وخصوصا الجالية الأندلسية التي كانت لاجئة بها، وأن الكثير من أفرادها أسسوا معمرات " معاهد " في منطقتي بني يعلى وبني وغليس، وكانت هذه المعمرات لها أحباس هامة تخدمها وقوانين داخلية صارمة تسير عليها.[1]

أما سعد الدين بن أبي شنب وهو من المهتمين بالبحث في التراث الإسلامي والذي عمل مع مدرسة الإستشراق بالجزائر فقد عرف هو الآخر الزوايا بأنها ثلاثة مؤسسات مختلفة وهي : - إما دار معدة لسكن الطلبة، أو دار يسكنها الطلبة، ويتلقون فيها بعض الدروس فهي حينئذ شبيهة بالمدرسة، وإما هي محل عبادة وذكر لأصحاب الطرق الصوفية وقيام بعض المشايخ بتلقين الإخوان.[2]

هذا في حين عرف الشيخ باعزيز بن عمر وهو من رجال الفكر والإصلاح في الجزائر مع بداية القرن الفارط مفهوم الزوايا في محاضرة له ألقاها بنادي الترقي سنة 1933 بالعاصمة تحت عنوان : الزوايا بالزواوة بقوله : الزوايا جمع زاوية، والزاوية اسم جامع بمكان بقطع النظر عمن يجمعه هذا المكان من المنزويين إليه، هذا من حيث الوضع اللغوي، أما من حيث الوضع الاصطلاحي فالزاوية اسم لكل حجرة تجمع طائفة من الناس ذات مبدأ خاص ومقاصد خاصة قد يكون بعضها حسنا، ويظهر لكم ذلك في أعمالها التي تنحصر في أمرين : الأول : هو تلك الأعمال المنكرة من الرقص والشطح وما تبعه من تصفيق وضرب الدفوف ولبس الشفوف كما هو الشاهد هنا وهناك ... والثاني هو قراءة العلم والاعتناء بحفظ القرآن وتعلم ما يلزمه من العلوم العربية والشرعية وما إلى ذلك من إقامة الشعائر الدينية .."[3] في حن عرفها البعض الآخر بأن مفردها زاوية وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي بمعنى اتخذ ركنا من اركان المسجد للاعتكاف والتعبد.[4]

---

1 - محمد نسيب، زوايا العلم، ص 31 .

2- بن أبي شنب، النهضة العربية، ص 37 .

3 - باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مجلة الشهاب، ج1، م9، الموافق ل 1 جانفي 1933، ص 14.

4 - معود علي عامر، تاريخ الدولة العثمانية، (مطبوعات جامعة دمشق 2004)، ص 149.

والظاهر أن تفسير باعزيز بن عمر استوحى من كونه ينتسب إلى منطقة القبائل التي عرفت أكثر من غيرها انتشارا للزوايا، ولذلك فقد خصها بتعريف خاص، وأنها تقريبا ليست كباقي الزوايا التي عرفتها المناطق الأخرى من الوطن بعد أن ربط تعريفها لما تقدمه تلك الزوايا من الخدمات للصالح العام، وقد أشار إلى ذلك بقوله: إن زوايا بلاد القبائل ليست كسائر الأمكنة والأبنية التي يطلق عليها الآن اسم الزاوية كما يزعم البعض، بل هي مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد علمية أسست لقراءة القرآن وما إليه من العلوم الموصلة إلى استخراج كنوز أصراره ومعانيه".[1]

أم الدكتور سعد الله فله مفهوم آخر للزاوية من حيث الهندسة المعمارية التي شيدت بها، ويرى أن بناء الزاوية يختلف بعض الشيء عن بناء المسجد، والزاوية في الغالب ما جمعت بين هندسة المسجد والمنزل، وهي في الجملة قصيرة الحيطان منخفضة القباب والعرصات، قليلة النوافذ، وإذا كان للزاوية مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة، كما أن الزاوية من الناحية الهندسية غير جميلة وليست مرخمة، بالإضافة إلى أنها كثيرة الرطوبة لقلة التهوية بها، وشكلها يوحي إلى حد كبير للعزلة والتقشف والهدوء والخلوة، أكثر ما يوحي بالاختلاط والثراء والحركة الدءوبة، غير أن بعض الزوايا المعدة أصلا لسكنى الطلبة والمهتمين بالعلم كانت واسعة بعض الشيء وهي بذلك صحية عكس الكثير من الزوايا الأخرى.[2]

والحق أن هناك الكثير ممن كتبوا عن الزوايا في المغرب والمشرق الإسلاميين لما تحتله الزاوية من مكانة في التاريخ الإسلامي وأن هذه الزوايا يعوذ إليها الفضل الكبير في الحفاظ على الاستمرارية والتواصل الثقافي والديني والاجتماعي لشعوب العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، بل كانت الزوايا بمثابة الثكنات العسكرية التي قاومت الغزو الأجنبي ولذلك كان لها فضل كبير في البنية العسكرية للتاريخ الإسلامي وحتى مع بداية العصر الحديث بعد أن قاومت للأجنبي الأوروبي الطامع في الهيمنة على ترابها.

---

1 - باعزيز ، الزوايا. المصدر السابق.

2- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص270.

وحسب كتاب التحفة المرضية، فإن مراكز الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني كانت متعددة وبلغت سبعة مراكز، وكل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه، ومن بين هذه المراكززكتاتيب القرآن وقد خصصت لاستظهار كتاب الله، وهي أولى محطة يتلقى فيها الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل والقلم القصبي وحبر السماغ، وتكون هذه الكتاتيب القرآنية غالبا في أضرحة الأولياء وفي الدكاكين والمساجد التي لا تقام فيها الصلوات الخمس .[1]

أما المركز الثاني منها فيتمثل في الزوايا التي عرفت بها الجزائر، وقد احتلت الصدارة في مراكز الثقافة خصوصا في تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الجزائريين، وكانت الزوايا مقسمة إلى قسمين أساسين هما :

القسم الأول: يتولى تحفيظ القرآن وإسكان عابري السبيل الذي تعلموا القراءة وحفظ القرآن في الكتاتيب القرآنية. وأم القسم الثاني : يتولى تدريس بعض فنون الدين كالفقه والقصائد الدينية والنحوية وقواعد النحو والصرف وفنون البلاغة والمنطق وبعض المبادئ في علوم الفلك، وهذا النوع من الدراسة لايحق إلا للمستظهرين الكتاب أي حفظة القرآن الكريم.[2]

وبرغم تعدد هذه المراكز الثقافية، فإن هناك ملحقات كانت تابعة للزاوية باعتبارها مركز السلطة الروحية، ومنها المسجد والمدرسة والمتاجر والدكاكين والمحلات التجارية والأندية المنزلية والمكتبات العامة والخاصة وفي الكثير من الأحيان نجد هذه العقارات هي بمثابة أوقاف حبست لخدمت هذه الزاوية.

أما عن محتويات الزاوية ومستلزماتها، فإنها عادة ما تتكون من بيت خاص لإسكان شيخها أو مريدها، مع وجود بيوت أخرى للضيوف ووكيل الزاوية وبمعلم الأطفال والمسجد والمدرسة القرآنية، هذا إضافة الى توفر مساكن خاصة للخدم، ومخازن حفظ المؤن ، وإسطبل خاص للحيوانات والخيول، كما تحوي الزاوية حجرة

1 - بن ميمون، التحفة المرضية، ص 58.

2 - بن ميمون، التحفة المرضية، ص 60.

خاصة تأوي الفقراء والذين لا مأوى لهم[1] ومن هنا نقول أن مكونات الزاوية تكاد تكون متكاملة باعتبارها مؤسسة جامعة للثقافة والدين والاقتصاد وتقديم العمل الخيري ونحوه من متطلبات المجتمع.

وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك وقسم الزوايا إلى قسمين بحسب خصوصيات ومهام ووظائف كل نوع، فالقسم الأول : أطلق عليه اسم زاوية المشايخ، وهذه الزوايا ملكية لمؤسسيها، وفيها نظام وراثي، وأن مؤسسها يصبح بالتوارث شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة المتبعة، ويلقن الأوراد لغيره كما ذكرنا في الفصل الأول، ويمنح ذلك الى المريدين والمقتدين بطريقته، كما أن إيرادات الزاوية تكون من المحسنين والأتباع والأنصار وكل ذلك يكون ملك لشيخ الطريقة أو الزاوية، كما له الحق المطلق في التصرف في تلك الأملاك كيفما شاء بدون محاسب ولا رقيب من أحد مهما كان منصبه .

كما أن هذا النوع من الزوايا له خاصية الإشراف على حركة التعليم وتدريس القرآن، وأن شيخ الزاوية له الصلاحية الأولى في اختيار مواد التدريس وكذا دفع أجور المعلمين والمقرئين للقرآن، ونذكر في هذا الباب بعض الأسماء لهذا النوع من الزوايا مثل : الزاوية القاسمية ببوسعادة، والزاوية الحملاوية بوادي سقان بميلة، وزاوية بن سحنون ببجاية، وزاوية أبي القاسم البوجيجلي ببني ورتلان، وزاوية الحمامي بالأخضرية شرق الجزائر العاصمة[2].

أما النوع الثاني من زوايا المرابطين فهي تختلف بعض الشيء عن زوايا المشايخ، فالملكية فيها ليست وراثية خاصة بأصحابها، بل هي جماعية، كما أن الأحباس بها رهنت لخدمت طلبة العلم، وأما عن أحفاد المرابط والمؤسس للزاوية فلا يحق لهم بالميراث في أملاك الزاوية، كما أن زوايا المرابطين ليست لها طريقة صوفية معينة

---

1 - منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، المجلد السادس، (دار البعث قسنطينة 1973)، ص 175.

2 - محمد نسيب، زوايا العلم، ص 106.

أو قارة على غرار الزوايا الأخرى، وأن المرابط في الزاوية لا يتحصل أيضا على مقابل، بل همه الوحيد هو تعمير الزاوية بطلبة العلم والذكر وحفظ وكتاب الله .

أما النوع الثالث من الزوايا ، ويسمى زاوية الطلبة، فإنه يختلف عن زوايا الشيوخ وزوايا المرابطين، ولعل أهم زاوية عبرت عن النوع الثالث هي زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بمنطقة بلاد القبائل، وكان للطلبة فيها الحق الأوفر في عملية التنظيم والتسيير في شؤون مؤسستهم ، وتعود لهم كل المسؤولية في تدبير شؤون الزاوية على المستوى الداخلي أو الخارجي [1].

مما سبق ذكره نرى أن هذا النوع من الزوايا أعتمد على الشورى وإشراك كل الأطراف في عملية التسيير والمسؤولية بغرض البقاء للزاوية والحفاظ عليها، كما أن الزاوية ستبقى بعيدة كل البعد على أية ضغط أو تدخل من صاحب الزاوية، باعتبار أن نظام الزاوية واضح للعيان، والكل يحتكم للقانون الداخلي، وهو بمثابة الميثاق أو الدستور بالمفهوم السياسي الحالي، والكل يحتكمون إليه عند الاختلاف.

وكذلك من بين الدين اهتموا أيضا بالكتابة في موضوع تاريخ الجزائر الثقافي مولود قاسم نايت بلقاسم (1992/1927) ويعد له الفضل الكبير في تثمين وتفعيل ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقد في الجزائر سابقا.[2]

وقد كتب هذا الأخير حول الزوايا وعرفها بقوله : " فالزاوية جمع زاوية أي المعهد على الطريقة التقليدية لتحفيظ القرآن والعلوم اللغوية والدينية على الطريقة القديمة ".[3]

---

1 - نفسه، ص 108.

2 - أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة، ط1، (دار الأمة الجزائر1993) .

3 - منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، م5، ص 122.

2 / علاقة الزوايا بالوقف

عندما نتكلم عن الزوايا خلال الفترة العثمانية وإبان الاحتلال الفرنسي تتبادر إلى أذهاننا مباشرة الوقف والأحباس المرتبطة بالجوانب الدينية والتعليمية ونحوهما من قضايا الديانة الإسلامية وكذا المرابطية ورجال الطرق والشعوذة ونحوها من المرجعيات المتوفرة في طيات تاريخ الجزائر الثقافي الغزير بالعديد من التناقضات التي تعبر عن التنوع الثقافي في الجزائر العثمانية، وكم سعت أطراف أجنبية ومحلية في تزوير ما قامت به العديد من الزوايا بغرض الحط من قيمتها باعتبارها ظلت إحدى المقومات الصامدة في وجه التغريب وضد الابتلاع من الطرف الآخر وكانت المربض الهام الذي قاوم الغزو الصليبي الذي حرم الزوايا من أوقافها.

وإذا كان هرم السلطة العثمانية ظل بعيدا عن انشغالات الطبقة العريضة من الجزائريين كما أشرنا سابقا، فإن ذلك لم يضعف من التماسك الاجتماعي والتقاليد العرفية التي كانت سائدة بين القبائل والأعراش بسبب قوة الوازع الديني بينهم من جهة، ووجود الأوقاف المشاعة بينهم من جهة أخرى، وكذا الاعتماد على الذات وتفعيل المداخيل الزراعية الريفية وتنشيط الحرف والصنائع بالحواضر والمدن من جهة أخرى.

إن كثيرا ما رصد دعاة البر والخير والإحسان بعض من ممتلكاتهم وعقاراتهم وحبسوها لخدمة الزوايا بغية الإستمرارفي عملها التعليمي والديني والخيري، لأنه في الكثير من الأحيان لم تكن السلطة العثمانية مهتمة بها، بل لم تمدها بالنفقة ولا المنحة كيفما كان شأنها، وكانت المرافق العمومية.

هذه تزود بفضل مدا خيل الأوقاف من الأملاك والأراضي الفلاحية والمتاجر والدكاكين والزكاة والعشور ونحوها من الهبات والعطاء الذي عادة ما يقدمه أهل التقوى والجود والورع ويحسبونه خدمة للزوايا ومهامها التعليمية.[1]

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، دراسات في الملكية العقارية، ط1، (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986) ص51.

والظاهر أن هذه الأوقاف لم تكن دائما لأغراض خيرية بحتة، ففي كثير من الأحيان كان الناس يوقفون لحمايتها من الضياع أو لحمايتها من جشع السلطة، وكانوا يوصون بها للأحفاد والفقراء، وفي هذا الصدد يذكر سعد الله أن النساء هن أيضا كن يستفدن من الوقف عند الولادة أو اليتم، وكثيرا ما كانت الأسر تلجأالى طريقة الوقف لعدم ثقتها في صلاح الورثة، ولكن هذه الأغراض تعد ثانوية مقارنة بالغرض الرئيسي للوقف، وهو خدمة الخير ونشر ودعم العلم ومساعدة الفقير وبن السبيل والمسكين.[1]

وحسب ما ذكره العيد مسعود وهو من المتخصصين في تاريخ الجزائر العثماني، فإنه لا يوجد قبر من قبور صانعي المعجزات الشعبية ، ولا زاوية يديرها أحد ذريتهم إلا ويحيط بها عدد كبير من الهكتارات من الأراضي الخصبة في شكل أوقاف محبوسة على هذه المؤسسات الدينية ، وقدرت عشية الاحتلال الفرنسي بتسعة ملايين هكتار، وهي تعطي دخلا لصيانة المؤسسات الدينية، وكانت معظم هذه الأوقاف محبوسة على الأضرحة والزوايا والمرابطين والطرقيين .[2]

أم الدكتور ناصر الدين سعيدوني فقد أشار هو الآخر في أطروحته التي ناقشها في إكس آن بروفانس سنة 1988 والتي تمحورت حول الملكية العقارية والوقف بالجزائر العاصمة عشية إنهاء العهد العثماني، فقد توصل من خلالها إلى أهمية الوقف في المجال الديني وخصوصا المساجد الكبرى التي كانت في العاصمة مثل المسجد الكبير التي كانت له عقارات هامة وقف عندها الباحث في دراسته[3].

أما الدكتور سعد الله فيرى أن الوقف يعد أبعد من كونه موردا اقتصاديا فهو مرجعية حضارية خدم الإسلام ومكن من عمل البر والإحسان بين الشعوب

1- سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، ص 161.

2 - العيد مسعود، المرجع السابق، ص 16.

3 - Nacereddine Saidouni; L'Algerois rural a la Fin du L'Epoque Ottomane 1791/1830, daral-gharbAl-Islami; 2005 p 192 .

الإسلامية، وهو لم يكن بالجديد في الجزائر خلال العهد العثماني، بل كان ذلك منذ الفتح الإسلامي وتطوره زمنيا والتوسع خلال الوجود العثماني، وظل كذلك حتى فترة الاحتلال الفرنسي .والذي استولى عليه وأجهض دوره في الخدمة المجتمع وأبعده عن الحفاظ عن خصائص ومقومات المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية، وقد أشار الى ذلك سعد الله بقوله : " يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساس يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم، وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، وهو بهذا المعنى شريعة اتبعها المسلمون منذ أوائل الإسلام، ولكن بتطور الزمن تعددت أوجهه وأغراضه خاصة في العهد العثماني نتيجة اعتبارات سياسية واقتصادية .[1]

وعادة ما ارتبط الوقف بالزوايا والتعليم والعمل الخيري، وتعددت أغراضه كالتكفل بالطلبة ودفع أجور المعلمين وإسعاف الفقراء والمعوزين واليتامى، وكثيرا ما كانت خيرات الوقف موجودة خلال الكوارث الطبيعة وانتشار الأمراض المعدية وكثرة الأوبئة باعتبارأن هذه الأزمات عادة ما تترك ثقلها على كاهل السلطة، وحينها يتدخل المشرفون على الوقف لتقديم المساعدة العاجلة للتخفيف من الكارثة، كما يتعدى دور الوقف إلى العناية ببيوت الله من حيث البناء والترميم والصرف على المشرفين عليها من حزاب وأئمة ورجال فتوى ونحوهم، وخلال دراسة أعدتها على الوضع الديني في الجنوب خلال القرن التاسع عشر أي بعد الاحتلال عثرت على العديد من العرائض لأعيان المنطقة وجهت للسلطة الفرنسية تترجاه المساعدة على ترميم المدارس والمساجد المتضررة من ندرة الوقف الذي أصبح تابع للإدارة الفرنسية وبالضبط لمديرية الشؤون الأهلية[2]، كما يصرف الوقف أيضا على الربط وأضرحة الأولياء الصالحين .

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 227 .

2 – أحمد مريوش، القضايا الوطنية في اهتمامات الأنتلجانسيا الجزائرية ما بين 1876/1927، حولية المؤرخ، العدد 2، الموافق ل 2002، ص 219.

وإذا كان للوقف الدور الهام في قطاعي الثقافة والدين، فإن مساهمته في الجانب الاجتماعي لا تقل شأنا عن سابقاتها، وكثيرا ما دعم الوقف الحياة الاجتماعية وعزز من الترابط بين أفراد المجتمع وعمق من الوئام بين القبائل والعشائر، وقد استغلت عوائد الوقف في فك الخصومات والنزاعات بين الخصوم، ودفع الدية للطرف المظلوم، ومن تم سهلت عملية التفاعل والتقارب الاجتماعيين، والتقليل من التناحر البغضاء التي عادة ما تتسبب في إشعال فتيل الحرب بين الأطراف المتنازعة.

أما الجانب السياسي فلم يكن هو الآخر بعيدا عن الأوقاف وخرج حدود الجزائر وقتها، وكانت أموال الوقف تبعث وترسل إلى فقراء مكة والمدينة مع ركب الحجيج الذي كان يزور البقاع المقدسة سنويا[1] وتعد عائلة الفقون بقسنطينة من بين العائلات التي كانت تتولى إمارة ركب الحجاج خلال كل سنة، ومن أشهر رجالها الشيخ عبد الكريم الفقون الذي ذاع صيته في خارج حدود الوطن.[2]

وفي ذلك الصدد يذكر يعد الله أن مؤسسة مكة والمدينة الخيرية لعبت دورا أساسيا في خدمة الحياة الاجتماعية، وتذكر العديد من الإحصائيات أن هذه المؤسسة كانت تملك في أواخر العهد العثماني الأسواق التالية : 840 منزلا، 258 دكانا، 33 مخزنا، 82 غرفة، 3 حمامات، 11 مخبزة، 4 مقاهي، وفندق واحد، و57 بستانا، 62 ضيعة، 6 أرحية، 201 إيجار، وقد ألحقت هذه الأوقاف للمصالح الفرنسية بعد الاحتلال مباشرة.[3]

وكان الوقف يقوم أساسا على مبدأ شرعي ويتم وفق عقد الصفة القضائية، وفي العادة يكتب عن طريق مساهمة المحاكم والقضاة، وبحضور صاحب الوقف وحتى الشهود على ذلك، وحينما تذكر قيمة الوقف وتحدد أغراضه وكيفية الاستفادة منه وتخصيص المشرفين عليه، يتم التسجيل ويصبح الوقف مقنن رسميا ومن تم يصبح الوقف شرعي وقانوني، ويخدم المستفيد منه وحتى السلطة المشرفة عليه.

---

1 - الزهار، مذكرات، ص 144.

2 - سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون، ص 118.

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 238. وكذلك : Saidouni; L'Algerois Rural; p 189.

وبرغم تعدد وظائف الوقف خلال العهد العثماني وتوظيفها أحيانا في المجال السياسي ، وخنق الكثير من التمردات الشعبية التي كادت أن تعصف بالوجود العثماني في الجزائر والحد من هيمنة الأوجاق، فإن بعض الأوقاف لم تصرف في موضعها بسبب تهاون المشرفين عليها أحينا وتصرف السلطة الحاكمة أحيانا أخرى، وعادة ما جلب ذلك التذمر الشعبي بعد شعوره بالضيم والاحتياج في حين يصرف الوقف في جهات غير مستحسنة ، وتظهر ردود الأفعال على شكل بيانات وعرائض وشكاوي كلها تنديدا بما آلت إليه حالة الوقف وجشع المشرفين عليه، ومن أمثلة ذلك مصير أحباس مدينة عنابة وما آلت إليه من تلاعبات، وهي التي خصها أحمد بن الساسي البوني في شكوى إلى الداي محمد بكداش جاء في بعض أبياتها قوله :

حبسها قد أسرفا ناظـــره فأشـــرفا

والشرع فيها باطل والظلم فيها هاطل[1]

كما نجد أن الورتلاني هو الآخر في رحلته وصف عن الإهمال الذي لاحظه على بعض الأوقاف خلال مروره بمنطقة الشرق الجزائري، وكان ذلك واضحا في رآه في مدينة قسنطينة ومنطقة الزيبان بالصحراء، بحيث أصبح المعني والمسئول على الوقف يجعل منه الملكية الخاصة ويرتزق منه كما يشاء بغض النظر عن المنفعة العامة التي حبس من أجلها العقار ونحوه، كما أرجع الورتلاني سبب تدني الناحية التعليمية والعلمية في عهده إلى إهمال الأوقاف وعدم العناية بها باعتبارها كانت تدر على حركة التعليم ما فيه الكفاية، وكل ذلك قلل من شأن الانبعاث الثقافي .[2]

وهناك من الوقف من أحبسه الحكام العثمانيين، مثلهم مثل أصحاب الجاه والإحسان، ومن بين الأوائل الذين اهتموا بالوقف ويعد من أقدوم الواقفين العثمانيين في الجزائر نذكر خير الدين بربروس وخادمه الذي أعتقه وهو عبد الله

---

1 – بن ميمون، التحفة المرضية، ص23.

2 – الورتلاني، نزهة الأنظار، ص 686.

صفر، فقد بنى خير الدين جامع صفر سنة 1534، وأوقف عليه ما يقارب من 100 هكتار، ومن بين الباشاوات الذين اشتهروا هم أيضا بالوقف أيضا محمد بن بكير والحاج محمد بن محمود ومحمد بكداش هذا الأخير الذي بنى زاوية خاصة للأشراف .[1]

ومن أسماء البايات المعروفة التي خدمت الوقف في الجزائر نذكر صالح باي (1792/1771)، وحسن باي (1794/1771) (بوحنك) في قسنطينة، وكذلك رضوان خوجة الذي أسس هو الآخر زاوية في قسنطينة وأحبس لها أراضي هامة ويقال أن ذلك جاء لورعة وتقواه وحبه للدين وقضايا المسلمين.

وبنفس الاهتمام خدم الياي محمد الكبير قضايا الوقف في بايلك الغرب، وخصوصا في منطقة معسكر التي ظهرت بها زوايا هامة لعبت دورا فعالا في خدمة قضايا الدين واللغة ونحوهما ، كما كان لها شأن وطني كبير فيما بعد أيام الأمير عبد القادر الذي انطلقت حركته الجهادية من الزاوية التي كان يشرف عليها والده محي الدين بالقيطنة.[2]

وفي هذا الصدد يذكر سعد الله، أن هناك من النساء من أوقفن هن أيضا أشياء ثمينة جدا لخدمة الدين وتدعيم متطلبات المجتمع، ومن بينهن السيدة قمر بنت القائد محمد باي، والسدة مريم، والسيدة حنيفة بنت مصطفى خوجة، وقد خصصت هذه الأخيرة أوقفا خاصة للزاوية التي بناها زوجها كما ، أوقفت السيدة دومة بنت محمد أواني نحاسية ثمينة لها من المكانة التراثية، وذلك لصالح ضريح عبد الرحمان الثعالبي دفين الجزائر العاصمة .[3]

وتعتبر زوايا العاصمة والمدية وقسنطينة ومعسكر مراكز ثقافية هامة لما تحتويه من أوقاف كبيرة، ولذلك اكتسبت صدى كبيرا خلال العهد العثماني في

1- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 237.

2- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري ، ج1، ط1، (دار الرائد للكتاب) ص 70.

3- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 237.

الجزائر ، كما كانت بمثابة المناصب الهامة التي تزاحم عليها العديد من رجالات الدين والفكرو الثقافة لما لها من نفوذ واسع من جهة ولغناها لمن يتولى تسيير شؤونها، إذ يذكر سعد الله أن عائلة قدورة تولت الإشراف على أوقاف الجامع الكبير بالعاصمة لمدة طويلة، واستطاع سعيد بن قدورة أن يبني زاوية ومدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير، هذا فضلا على تمويل العديد من زوايا العاصمة بإيرادات الوقف، مثل زاوية الوالي دادة، وزاوية أحمد بن عبد الله، وزاوية عبد الرحمان الثعالبي.[1]

ولعل هذا ما جعلا منطقة الوسط وخصوصا الجزائر العاصمة تحتل المكانة الهامة في المجال الثقافي في الفترة العثمانية باعتراف الفرنسيين أنفسهم من خلال العديد من كتاباتهم .[2]

وإذا كانت الأوقاف والمساعدات الخيرية وأملاك العقارات وكل ما هو محبوس مثل سبل الخيرات كان يصرف على أجور المعلمين وتوفير السكن للطلبة وبناء المساجد والزوايا حسبما ذكره سعد الله، فإن الدكتور عجيل جاسم النمشي في محاضرة له سنة 1972خلال فعاليات ملتقى الفكر الإسلامي عدد موارد الزوايا وهي كثيرة منه ما يأتي من الزراعة وتربية الماشية، ومنها من خلال الهبات الخيرية، وكانت للزوايا جباية الزكاة من القبائل التابعة لها، علما وأن الدولة العثمانية في تعاونها مع الكثير من الطرق قد أعفت عنها دفع الضرائب وأعطت لها الحق في جباية الزكاة ونحوها بغرض التعاون مها وجلب الاستقرار للمكانة التي كانت الزاوية تحتلها في الوسط الشعبي .[3]

---

1 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 243.

2 – أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، ط1، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1972) ص14.

3 – عجيل جاسم النمشي، الحركات الإسلامية ودورها في يقظة العالم الإسلامي (منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية مطبعة البعث 1973)، م5، ص267.

أما شكيب أرسلان فقد ذكر هو الآخر أن مواقع الزوايا كان يختار دائما وفق إستراتيجية مميزة سواء اقتصادية أو أمنية في العديد من الأحيان، وقد أشار الى بقوله : " إن أغلب هذه الزوايا تختار لها أجمل البقع وأخصب الأراضي وفيها الآبار التي لاتنزح من كثرة مائها وفي الجبل الأخضر- ويضرب مثال على الزاوية السنوسية – هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية قل أن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين وفيها من أنواع الفواكه .."[1] وكانت الأوقاف تحبس في بعض الأحيان بعيدا عن موقع تواجد مقر الزاوية فعلى سبيل المثال كانت لزاوية الهامل ببوسعادة أوقاف كثيرة في منطقة توقرت وقد تعدت إلى أكثر من 1000 نخلة حبست على نفقة الزاوية.[2] وكانت محاصيل التمر تعود بالفائدة على الزاوية.

وقد تجمع الكثير من الدراسات أن استمرار الحياة في الربط والزوايا مقترنا بالأساس بمقدرة الوقف على تغطية النفقات، وتضرب أمثلة عما كانت عليه الجزائر العاصمة عشية الاحتلال، إذ كانت بها أكثر من 8 آلاف عقار تحت تصرف الزوايا والعمل الخيري، ولم يبقى منها بعد الاحتلال ولو عقارا واحدا مما أدى إلى إغلاق الزوايا وشل الكتاتيب القرآنية وتهديم المساجد وغلق العديد منها .[3]

3/ أهم الزوايا ونظمها

لا نبالغ هنا إذا أجزمنا أن دراسة الزوايا بالجزائر تعد من المواضيع الصعبة جدا، برغم ما تركه بعض الرحالة في تدوينهم لما شاهدوه خلال تواجدهم في الجزائر، وكذا كتابات بعض الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر الثقافي أمثال رين وغيره، ولكن دراساتهم تندرج في سياق التأسيس للمدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر

---

1 - شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، 297.

2- J; Andrée ; Contribution â L'étude des confrérres; P276.

3 - رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، (المؤسسة الوطني للكتاب الجزائر 1984). ص 129.

ومحاولة تقريب وتزوير الحقائق لخدمة الاستعمار أكثر منها لخدمة التاريخ كما هو، وهناك دراسات لمؤرخين جزائريين جادين في الموضوع منها ما كتبه سعد الله، ولكن أهمية الموضوع ومكانته في الفترة الزمنية ظل ناقصا إلى حد كبير لما تركته الزوايا من أثر على الساحة الثقافية والفكرية وحتى السياسية في الكثير من الأحيان .

ومن تم فإن إحصاء الزوايا والوقوف عند حيثياتها يبقى ناقصا لكثرتها من جهة ولاتساع الرقعة الجغرافية المتواجدة عليها من جهة ثانية، كما كان لتعدد الطرق وتداخلها أثره الواضح في التعمق في دراستها علما وان هذه الزوايا لا تزال حتى اليوم تحتفظ بالعديد من مخطوطاتها ومصادرها وظلت للورثة من دون وضعها تحت تصرف الباحثين .مما أدى إلى شح المادة التاريخية للفترة العثمانية في الموضوع، وهذا لا يعني من جهة أخرى أن الموضوع ظل منسيا بل توجد محاولات جادة للتنقيب عليه ودراسته مثلما أشرنا سابقا .

وقد ذكر سعد الدين بن أبي شنب أن عدد الزوايا بالقطر الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي بلغ أكثر من 349 زاوية موزعة على مختلف مناطق البلاد [1] وكانت الزوايا عادة ما تقترن بالمراكز والمؤسسات التعليمية، فكثيرا ما كانت المدرسة تتبعها زاوية، وقد أشار إلى ذلك بن شنب على أن الجزائر العاصمة في أواخر العهد العثماني كانت بها العديد من الزوايا، وذكر أن مدرسة سيدي أيوب بالقرب من الجامع الجديد ومدرسة حسن باشا بجوار مسجد كتشاوة، وكانت تابعة لكل واحدة منهما زاوية يسكنها الطلبة ويأخذون منها مؤو نتهم الشهرية، وهناك زاوية أخرى هي محل السكن للطلبة، ومحل تدريب مثل زاوية القشقاش الخاصة بتدريس التوحيد والفقه ، و زاوية الشبارلية المتخصصة في العلوم العقلية والنقلية، ومنها زاوية سيدي أحمد بن عبد الله بسوق الجمعة، وزاوية سيدي محمد الشريف، وزاوية صغيرة كانت تتسع اعدد قليل من الطلبة والبياتة .[2]

---

1 - بن شنب، النهضة العربية بالجزائر، ص 37.

2 - نفســه .

كما تشير بعض المصادر الأخرى أن الجزائر العاصمة لوحدها كانت بها ما يزيد عن ست زوايا ثلاث للطلبة الذين جاءوا من غرب الوطن، واثنان منها لطلبة الشرق، والسادسة لمن ليس لهم أسرة من طلبة الجزائر العاصمة[1] غير أن بعض الدراسات تشير إلى وجود زوايا كثيرة بالجزائر العاصمة وضواحيها، وإضافة إلى ما ذكرناه آنفا يذكر سعد الله أسماء لزوايا أخرى مثل زاوية عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية دادة، وزاوية عبد القادر الجيلاني، وزاوية سيدي أحمد الشريف، وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله، وزاوية سيدي الجودي، وزاوية سيدي الجمعة، وسيدي الكتاني، وسيدي السعدي، وسيدي الفاسي، وسيدي أبي التقي، وسيدي يعقوب، وسيدي أيوب، وسيدي بوعنان، وسيدي بوعتيقة، وهناك زوايا مجاورة للجزائر كان لها الشأن الكبير خلال هذه الفترة منها: زاوية القليعة، زاوية المربوسي بالأربعاء، وزاويتا النملي وخير الدين ببني مسوس، وزاوية سيدي العيد ببوفاريك، والدويرة، وزاوية البركاني بشرشال، وزاوية مليانة، وزاوية بن سليمان.[2]

أما في بايلك الشرق قسنطينة وضواحيها فقد اشتهرت هي الأخرى بالعديد من الزوايا أشار إليها سعد دائما بأنها بلغت 16 زاوية، وكانت تمثل العائلات المعروفة بالمنطقة، والتي احتلت شهرة واسعة، مثل زاوية سيدي الكتاني، وسيدي المناطقي، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي مسيد، وسيدي مخلوف، وسيدي ميمون، وسيدي عفان، وسيدي راشد، وسيدي التلمساني، وزوايا أولاد الفقون، وزوايا بن نعنون، وزوايا أولاد جلول، وزوايا رضوان خوجة، وزوايا بني مقران، وزوايا بني مسعود، وزوايا محمد بن يحيى بأولاد عبد النور، وزاوية مولاي الشقفة بمنطقتي القل وجيجل.[3] وقد بلغ عدد هذه الزوايا المنتشرة بالناحية الشرقية أكثر من 16 زاوية.[4]

---

1 - بن سالم، الثقافة الإسلامية، ص 37.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 264.

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265.

4 - بن سالم، الثقافة الإسلامية، ص 37.

وكانت منطقا زواوة وبجاية ببلاد القبائل من أغنى المناطق في الجزائر تمركزا للزوايا، إذ وصل عددها إلى أكثر من خمسين 50 زاوية، ومن هذه الزوايا نذكر زاوية تيزي راشد، وزاوية الشيخ محمد التواتي، وزاوية الأزهري بآيت إسماعيل، وزاوية بن علي الشريف بآقبو، وزاوية سيدي منصور بآيت جناد، وزوايا عبد الرحمان اليلولي، وزاوية أبو القاسم بوجليل، وغيرها من الزوايا الكثيرة التي ظلت قلاعا مشعة تنير بنورها طلبة العلم وتتصدى للكفر والإلحاد .هذا ناهيك عن زوايا أخرى مثل زاوية أبي داود، وزاوية محمد السعدي بمنطقة دلس، والزاوية الزروقية، وزاوية أحمد بن يوسف[1]، وغيرها من الزوايا العديدة التي لم تشر إليها المكتب التاريخية .

أما الشيخ باعزير بن عمر فقد ذكر هو الآخر حوالي 40 زاوية وزيادة في منطقة زواوة لوحدها، والتي جاءت تسميتها بالزواوة لكثرة الزوايا المتواجدة بها، ومن أشهر هذه الزوايا وأكبرها ماديا وأدبيا زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي التي تخرج منها علماء زواوة الذين أسهموا في قضايا الثقافة بداخل الوطن وخارجه[2] هذا فضلا على زاوية شلاطة بالقرب من مدينة آقبو لصاحبها محمد بن علي الشريف الزواوي، وزاوية بن أبي داود، وقد ذكرهما الشيخ أبو القاسم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف لأهميتهما بقوله : " والزاوية مقصورة لقراءة كتاب الله عز وجل يأتونها من كل فج عميق.كما أن طلاب الفقه يقصدون زاوية أبي داود في تاسلينت بأيلولة بآقبو والذي في علمي أن من لم يقرأ القرآن في شلاطة ، ولم يتعلم الفقه في تاسلينت ولو قرأ وتعلم في غيرهما يعتبر عن المحبين نتقص العسر، والدليل على هذا أن الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوه إلى إحدى الزاويتين .[3]

هذا فضلا على زاوية سيدي عمر الحاج بالقبائل والتي تأسست في القرن 16م، ولا تزال قائمة وعامرة ببني يجر، وقد قدمت ما فيه الكفاية للثقافة الجزائرية.[4]

---

1 – سعد الله، المرجع السابق، ص 266.

2 – باعزيز بن عمر، المصدر السابق، ص 15.

3 – الحفناوي، تعريف الخلف، ص 545.

4 – يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ط1 / (دار الغرب الإسلامي 1995)، ص 313.

وتذكر بعض الدراسات أن هناك من طلبة هذه الزوايا من كان لهم باع كبير في خدمة الإسلام والعربية سواد بداخل الوطن، أو في خارجه ببلاد المشرق العربي سواء في الحجاز أو بلاد الشام،[1] بعد أن هاجروا الجزائر أو هجروا منها بفعل فاعل .

هذا عن بايلك الشرق فكيف كانت حال بايلك الغرب ؟ يبدوا أنه هو الآخر لم يتخلف عن الركب الثقافي، وعرف بانتشاره الزوايا ودور التعليم، خاصة في منطقتي معسكر وتلمسان وضواحيهما، بالإضافة إلى العديد من الأضرحة التي بنيت تخليدا لرجال الدين والتصوف، ولعل من بين أسماء هذه الزوايا الشهيرة زاوية سيدي الديب، وزاوية سيدي بومدين، وزاوية محمد السنوسي، وزاوية أحمد الغماري، وزاوية عين الحوت، وزاوية مولاي الطيب الوزاني. وقد استقطبت هذه المراكز الثقافية العديد من الطلبة الذين أصبح لهم شأن كبير في خدمة الثقافة العربية الإسلامية.[2]

وكانت المنطقة تعج بالعديد من العلماء الذين ساهموا في إثراء هذه الزوايا بالعلم وقد وضع لها الدكتور يحيى بوعزيز تراجم خاصة، وحتى بذكر عائلة المشرفين، منهم الشيخ عبد القادر المشرفي ويدعى : بشيخ الجماعة، وابنه القاضي الطاهر، وحفيده محمد بن عبد الله، والحاج عبد القادر بن مصطفى، والشيخ عبد الله بن زرقة الدحاوي الغريسي، وأبو راس الناصري، والشيخ مصطفى بن المختار الغريس " جد الأمير عبد القادر "، والشيخ محي الدين بن مصطفى والد الأمير عبد القادر .والشيخ أحمد بن التهامي والشيخ مصطفى بن أحمد التهامي، وأسرة بن الخروبي بقلعة بني راشد، والشيخ بن علي أقو جيل، وأحمد بن محمد بن سحنون الراشدي وغيرهم من العلماء الأجلاء .[3]

---

1 - لقد اختار العديد من علماء المغرب العربي بلاد المشرق الإسلامي كمرتع لهم خلال التواجد العثماني أو حتى خلال الفترة الاستعمارية، وقد لعبوا دورا هاما في الحركة الثقافية والفكرية والدينية، بل أبلوا بلاءا حسنا في قضايا السياسة، كما تولوا المسؤوليات حتى في الأزهر الشريف .للمزيد أنظر : د/ عبد الرحمان، دور المغاربة في تاريخ مصرفي العهد الحديث ، القسم الثاني، المجلة التاريخية المغربية، العدد 12، الموافق لـ : جويلية 1978 ،. ص 173.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265.

3 - يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج 2، ص248.

وترجع بعض الدراسات أن منطقة الغرب الجزائري اشتهرت بتواجد الكثير من الزوايا لجوارها من المغرب الأقصى الذي اشتهر هو بدوره ببروز الكثير من الطرق الصوفية التي أثرت جوارا على الجزائريين الذين كانت لهم علاقة زواج ومصاهرة مع عائلات مغربية، هذا من جهة ومن جهة أخرى وجود جامعة القرويين هذه الجامعة التي رحل إليها العديد من علماء الجزائر وطلبتها، ولم تكن هي بدورها بعيدة عن التأثير الديني الذي أصبح جليا في حياة الجزائريين في الفترة العثمانية.

وحسب ما ذكره يحيى بوعزيز، فإن منطقة الغرب الجزائري استقطبت خلال القرون 17و18و19 العديد من الطلبة والعلماء لتواجد العديد من الزوايا خصوصا بمعسكر وسهل غريس والوطن الراشدي، وقد لخصها بوعزيز في الزوايا التالية :

1/ زاوية الشيخ مصطفى التلمساني.

2/ زاوية الشيخ عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي .

3/ زاوية الشيخ محمد المشرفي الإدريسي

4/ زاوية الشيخ عبد القادر بن المختار الإدريسي

5/ زاوية الشيخ الخضير الصنهاجي الإدريسي

6/ زاوية الشيخ محمد بن الأعرج السليماني

7/ زاوية الشيخ محمي الدين بن مصطفى الإدريسي

8/ زاوية الشيخ عبد الرحمان المحمودي الإدريسي

9/ زاوية الشيخ سحنون بن أحمد الحسني مدرس المدونة

10/ زاوية حفيد الشيخ الهاشمي بن شنتوف .[1]

هذا عن المنطق الشمالية من الوطن، وأما عن المناطق الجنوبية ونقصد بها منطق الصحراء الشاسعة، فإنها لم تخلوا هي الأخرى من الزوايا وكان العديد منها منتشر في الكثير من الواحات الصحراوية والقصور القديمة مثلما أشرنا في ذلك

---

1 - بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص 229.

إلى الطرق الصوفية، ولعل من أبرز هذه الزوايا الزاوية القادرية بمنطقة توات بالجنوب الغربي للصحراء بمنطقة توات وتامنطيط وتيميمون وعين صالح بإقليم تيديكلت، وقد لعبت هذه الزوايا الدور الأساسي في تجميع سكان الصحراء، كما استقطبت الطلبة من القصور العديدة المجاورة للإقليم، كما كان لهل الدور الكبير في نشر الإسلام في جنوب الصحراء كما كانت لها علاقة وطيدة بإقليم الشمال والمناطق الجنوبية سواء مع منطقة تمبكتو أو تافيلالت أوالسودان الشرقي والغربي وقد امتدت تلك العلاقة حتى مدن الجزائر في الشمال كمنطقة تيهرت قسنطينة ومدن الساحل بل وصلت العلاقة حتى إسطنبول والمناطق المقدسة بمكة والمدينة.

كما أن الزاوية التجانية بمدينة الأغواط وتيماسين لعبت هي الأخرى الدور الأساسي في نشر الإسلام في القارة الإفريقية ووصل تأثيرها حتى السنغال ونيجيريا والغابون ونحوها من دول القارة السمراء، هذا فضلا عن الطريقة الرحمانية التي انتشرت بوادي سوف، والتي يعود تأسيسها إلى سنة 1820، وهي إحدى فروع الرحمانية ببلاد القبائل وقد لعبت هذه الأخيرة دورا منوطا في حلق الدرس والتكوين الديني وتخرج منها علماء كثيرون .[1]

وحسب ما ذكره العياشي في رحلته فإن الصحراء عرفت العديد من الزوايا التي عظم شأنها وازداد نفوذها ، واستقطبت العديد من الرحل من جهات عديدة ، ومن تم توسع عمرانها حتى ظهرت بها مدن معروفة مثل عين ماضي وتمسين وطولقة، كما روى العياشي ما اشتهر من هذه الزوايا مثل زاوية سيدي أحمد بن موسى، وسيدي عبد الله بن طمطم، وزاوية عمر بن محمد صالح الأنصاري الخزرجي، وزاوية سيدي الأخضري، وكلها دور أشاعت العلم والمعرفة.[2]

---

1 - إبراهيم مياسي، الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، مجلة حولية المؤرخ، ج1، الجزائر 2000، ص 39.

2 - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، (الشركة العلمية للنشر والتوزيع الجزائر 1979) ص 30.

أما عن نظم الزوايا فكانت هناك الكثير من الاختلافات بين زاوية وأخرى، باختلاف أنواع الزوايا، كما أشرنا سابقا، هذا من جهة، وكذلك لطبيعة كل منطقة من الوجهة الاجتماعية والسياسية والثقافية من جهة أخرى .فزاوية الطلبة مثلا يقوم بتسييرها مسئولان : أولهما يقوم بشؤون الإدارة ويدعى مقدم الثمن، وثانيهما مكلف بشؤون البيداغوجية ويدعى مقدم العسكر، ومهنته السهر على شؤون الزاوية، وكذا الحفاظ على الجو العام بداخلها، وكذلك الحفاظ على الانضباط والدراسة والعبادة والسلوك وهو بمثابة المراقب العام في يومنا هذا، ويؤازره في التسيير مقدم الثمن وهو بمثابة الوكيل المتصرف .[1] وهذا النظام عمل به في زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي منذ تأسيسها سنة 1635 م.

هذا فضلا على وجود مجلس من الطلبة مكون من 12 فردا من طلبة الزاوية ويسمى هذا المجلس بالقدامى، والجديد عندهم هو الطالب العادي، هذا المجلس هو صاحب السلطة التشريعية والتنفيذية، وإذا غادر عضو من الطلبة القدامى الزاوية يعوضه آخر، ويبقى العضو المغادر من الزاوية على عضويته للمجلس حتى وفاته، وإذا رجع للزاوية أو زارها لا يعامل كأجير بل يعامل كعضو في المجلس، ويجتمع هذا المجلس مرة في الأسبوع وله قاعة خاصة به، وتعقد فيها اجتماعات التي يغلب عليها الطابع السري وله اجتماعات استثنائية عند الضرورة ويفصل المجلس في قضايا الطلبة والمدنيين[2] وهؤلاء تترتب عنهم عقوبة مختلفة بحسب حكم صفة الجنحة، فعلى سبيل المثال :

- التلفظ بالقبح وفاحش القول يدفع عنه نصف دورو
- اللعب داخل الجامع يدفع صاحبه فرنك ونصف صوردي
- المتلف للأرزاق يعوض ما أتلفه
- المتغيب عن حضور الجمعيات يغرم 5 صوردي أي ربع فرنك

---

1 - أحمد سامي، أعلام من زواوة، ص 33.

2 - نسيب، المرجع السابق، ص 125.

- المتخلف عن أداء الواجب يغرم بفرنك

- التكلم بالاجتماع بلا إذن يغرم صاحبه ثمن (واحد على ثمانية) فرنك.

ويحتفظ صاحب الزاوية أومدير المعمرة في العديد من الأحيان لنفسه ولعائلته بدور الإشراف والتوجيه والإدارة العامة، وقبول الطلبة وطردهم ونحو ذلك، وكان دوما يلتجأ الشيخ وهو صاحب الزاوية الاستشارة بمن حوله سواء من الطلبة أو المدرسين، وذلك للحفاظ على العلاقة الروحية لأن الشيخ في الزاوية ليس مجرد ملقن للدروس ونحوها، بل يعد الأب الروحي للطلبة .وللزاوية صنفان من الطلبة : طلبة يؤدون المهام الخارجية لصالح الزاوية، وطلبة يلتزمون بالخدمة الداخلية إلى جانب الدراسة والتحصيل العلمي، وهم على فئات مختلفة مثلما هو في زاوية سيدي منصور ببلاد القبائل.

أ/ إقداشن أو القدادش : وهي الكلمة المشاعة في الزوايا وتعبر عن انتساب الطالب للزاوية التعليمية.

ب/ النوالين : وهي فئة من الطلبة التي تتولى إعداد الوجبات الغذائية .

ج/ الرحاية : وهي فئة الطلبة التي تتولى طحن الحبوب وفتل الكسكسى .

د/ الحطابين والساقيين: وهم الطلبة الذين يتكلفون بتوفير الحطب والماء لخدمة الزاوية.[1]

4/ مساهمة الزوايا في قضايا المجتمع

مما لاشك فيه أن الزوايا في الجزائر تعد إحدى المرجعيات الفعل الثقافي في تاريخ الجزائر خلال العهد الوسيط والحديث، ولا تزال إلى يومنا هذا مع اختلاف طبيعة العمل والخدمة التي قدمتها هذه الزوايا من فترة لأخرى خصوصا إذا علمنا وأن المجتمع الجزائري لم يعرف الاستقرار منذ سقوط الدولة الموحدية، وظل

(١) احمد سامي، أعلام من زواوة، ص ٦٢ .

كذلك حتى حصوله على الاستقلال بعد طرد الفرنسيين مع بداية الستينيات من القرن العشرين.

والشيء الذي يهمنا في هذه الدراسة هو مدى مساهمة هذه الزوايا في خدمة قضايا المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، بعد ميلاد الكثير من الزوايا والربط، بعد انتشار ظاهرة الطرق الصوفية، وأصبحت لكل طريقة شيخ أو مريد ، وأحيانا بروز درويش له ضريح أو زاوية مزارة من طرف المريدين والأتباع، ولهذا تعددت وظائف هذه الزوايا وقدمت عدة وظائف أبرزها العبادة والتعليم وإيواء الطلبة الفقراء والأغراب وعابري السبيل والمسافر [1]

كما ساهمت مداخل الأوقاف في تدعيم الزوايا والكتاتيب القرآنية، إذ تذكر المصادر التاريخية أن الجامع الكبير بقسنطينة كانت له العديد من الأوقاف التابعة له، وصلت مداخلها أيام عهد صالح باي 491 ريالا، بينما وصلت مصاريفها سوى 408 ريال، وقد دل ذلك على ما تقدمه الأوقاف من أعمال خيرية لاحتياجات المجتمع ، الاجتماعية والتعليمية ونحوهما.

كما كانت لزاوية الشيخ المجاجي أبهلول بتنس بغرب الجزائر العاصمة مكانة معتبرة في العمل الخيري، وكانت الزاوية تطعم سنويا حوالي :1300 عابري سبيل بشتى الأطعمة، ووتذكر بعض الدراسات نوعية الوجبات الغذائية المقدمة فكانت قصعها وموائدها تحتوي على ثلاثين نوعا من الطعام واللحم.[2] وكانت هذه القباب والأضرحة والزوايا أحينا مفتعلة، ولا وجود للدفين بها على الإطلاق، وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمد فتحي عثمان في تناوله لموضوع السلفية في الجمعيات الإسلامية على أن الشعب الجزائري قد أصابه ذلك الوهن الديني المفتعل أكثر من إخوانه في بلاد المشرق والمغرب.[3]

---

1 - Rinn , oP; CIT; P 18 .

2 – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 243.

3 – د/ محمد فتحي عثمان، السلفية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد 5، سنة 1981، ص 289.

ومهما يكن من الأمر، فالزوايا كثيرا ما عملت على التكوين الديني والاجتماعي والتربوي لمريديها وأتباعها مع بعض الاختلاف الواضح من زاوية لأخرى، بحكم أذكار الطريقة وموضع الزاوية ومدى مقدرتها الاقتصادية ونحو ذلك، فكانت التربية الدينية والتوجه القرآني من أولى اهتمامات الزوايا في العملية التربوية، وتهذيب السلوك وهدوء الأعصاب، واستقرار نفوس المراهقين، وتهذيبهم بالقيم القرآنية، والتمرس على الطاعة ونبذ العنف والتمرد والعصيان، ومن تم الإنصاف بالعبر والثبات والتغلب على الشهوات، باعتبار أن مصدر التكوين هو المصدر القرآني، وأن طلبة الزوايا تشبعوا بهذا النوع من التربية ومن دون شك أن ذلك ينعكس إيجابا على سلوهم اليومي وتكوين شخصيتهم، وجاء ذلك واضحا في قوله تعالى في سورة المجادلة في الآية 22 قوله : "(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ..)"[1]

كما أن التربية المدنية والاجتماعية أخذت قسطا وفيرا من تكوين الزوايا، فالطالب كا نظامه داخل الزاوية ومضبوط جدا بجملة من القوانين، كاحترام الوقت والمواعيد وأداء الفرائض، وتقديم الخدمات داخل الزاوية، وغرس العمل التطوعي بين صفوف الطلبة، وتقديم الدروس خارج أوقات العمل، والمساهمة في جني المحصول الفلاحي للزاوية، وأحيانا السفر إلى خارج القرية لتمثيلها وخدمة مصالحها، وبذلك يكسب رهان المسؤولية، ويتولى الشؤون المختلفة، وكل ذلك ظهر جليا في إعداد الأجيال وتمسكها بالوطن سواء خلال الفترة العثمانية والتمرد في العديد من الأحيان على السلطة العثمانية، أو خلال الوجود الاستعماري، بحيث أصبحت العديد من هذه الزوايا القلاع المرجعية للمقاومة الشعبية. بل تعد الزاوية من الرباطات الفاعلة في فكر المقاومة الجزائرية .وخير مثال على ذلك ما أنجزته هذه الزوايا وما قدمته من رجال ساهموا في خدمة الثورة التحريرية لأن عقيدتهم مشتقة وخصالهم من السلف الصالح.

---

1 - سورة المجادلة رقم 58 الآية: 22.

وحسب ما ذكره يحي بوعزيز فإن مكانة الزوايا كانت بالغة الأهمية في تكوين النخب الجزائرية فعلى سبيل المثال كان الغرب الجزائري صور ناطقة من ذلك الزخم الثقافي فقد أنجبت مدينة معسكر وسهل غريس والوطن الراشدي علماء أجلاء فقهاء ومحدثين ومقرئين ومؤرخين وكتاب السيرة والشعراء والرحالة، وبرزت عائلات بحالها توارثت العلم والوظائف العلمية في القضاء والإفتاء والإمامة والخطابة والتدريس، ومن ضمنها عائلة الخروبي، وعائلة المشارف، وعائلة بن بروكش، وعائلة أبي راس الناصري، وعائلة التوهامي، وعائلة الشيخ مصطفى وابنه محي الدين المختاري .

كما يضيف بوعزيز أن هذه العائلات أسست الزوايا ومعاهد للعلم ومدارس للتعليم والتدريس والإفتاء، ويدعم هذا الرأي الطيب المختار الغريسي في كتابه : القول الأعم في بيان أنساب القبائل الحشم، أن الأشراف والأعيان بغريس كان لهم اعتناء بالدين وتحفيظ وتعليم العلوم اللغوية والأدبية والعقلية والصوفية، وكذلك الرياضيات وعلم الفلك، وكان كل واحد منهم يؤسس لنفسه زاوية لطلب العلم ويوظف بها الأساتذة ويقصدها الطلبة من كل الآفاق.[1]

ومما شك فيه أن بعض الزوايا قد انحرفت عن النهج الصحيح الذي تأسست لخدمته، وقد أثر ذلك سلبا على البني الاجتماعية للمجتمع، لأن بعض الزوايا انحرفت عن مهامها بسبب بعض الطموحات والزعامات التي ظهرت بين مؤسسي الزوايا والعديد من الأحفاد، هذا ناهيك عن حب الذات وتوظيف المريدين والأتباع لخدمة شيخ الزاوية ، من دون مراعاة الأهداف التي تريد الزاوية أن تحققها، ويرى سعد الله أنه خلال الوجود العثماني لم توظف بعض الأوقاف توظيفا منطقيا مما أثرا ذل سلبا على المجتمع، وكثيرا ما أستغل الوقف في نشر الغموض والشعوذة ونحوها من المظاهر التي أخرت بالدين أكثر ما خدمته.[2]

وبالفعل فإن الروايات العديدة تحكي لنا بعض الغرائب التي كانت سائدة باسم الطريق والوقف والصوفية ونحوها، وأستغل بعض المحسوبين على هذه المؤسسات

---

1 - بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص 229.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245.

بساطة المجتمع وأحيانا سذاجة البعض منه لتحيق الكثير من الإغراض الخاصة، وقد نشرت الشهاب خلال العشرينيات من القرن الماضي دراسة قيمة لصاحبها ساحلي بن الحاج الزر وقي كشف من خلالها ما آلت إليه الزوايا ببلاد القبائل جاء فيها : " وبدأ أولئك الذادة الدين هم حقا ممن يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة يستخدمون النفوذ الذي أحرزوا عليه فتم بفضل المهارة التي تذرعوا بها ما شاءوا وفق ما أرادوا من تنوير أولئك الأقوام بنور الإسلام وتعاليمه الحكيمة، واللغة العربية هي لغة القرآن وما يفرضه الإسلام على معتنقيه من الأخذ بنصيب من العلوم والعمران، وما إليها فعادت الزوايا تلك الزوايا ملتقى الطلاب وكعبة لعرفان وأنجبت علماء ما زال التاريخ يردد ذكرهم .. لكن سوء الحظ انحط علمها لسوء تصرف الخلف في الأوضاع التي بني عليها السلف الصالح، إذ عوض أن يسيروا على منهج هؤلاء ويتطوروا في نشر التعليم والدين حسب تطورات العصور التي تتفق والأخلاق الإسلامية، أخذوا في معاكسة كل معقول ومعلوم وكانت الغاية ضرب الأذهان وضعف الوازع الديني وجر ذيول الخيبة في كل شيء ..[1]

ومهما يكن من أمر فإن الزوايا قد لعبت الدور المنوط بها من الوجهة الإيجابية أيضا خصوصا في جناح الثقافة وتعزيز روابط المجتمع الجزائري الذي لم يكن موجها توجيها كليا من طرف السلطة العثمانية الحاكمة لأن العيد من أطرافه كانت شبه مهملة من قبل السلطة التي ترى في عمق المجتمع إلا جمع الإتاوات والدنوش ونحوه، وإذا كان بعزيز بن عمر ذكر العيوب للعديد من الزوايا، فإنه وقف عند بعض الأعمال الصالحة التي قامت بها الزوايا مثل تعليم العربية وعلوم الدين وإقامة الشعائر الدينية وتقديم الخدمات الخيرية لعابري السبيل والمحتاج وكل هذه الانشغالات تندرج فيما أمر به الله من تكفل اجتماعي وعمل إسلامي .[2]

وهناك من العيوب الأخرى التي وقف عندها صاحب المقال وهي استغلال الطلبة لخدمة الأغراض الخاصة وتوفير الراحة لصاحب الزاوية على حساب

1 - ساحلي بن الحاج الرزقي، أساليب التعليم في منطقة زواوة، مجلة الشهاب، ج6، م5، جويلية 1929، ص 30.

2 - باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، المصدر السابق، ص 15.

المصلحة العامة، ومن ذلك قوله : " يؤم الطلبة المعهد لقصد تنوير فكره ثم لا يلبث أن يشاهد نفسه محاطا بأوامر قاهرة يعد الخروج عنها مروقا عن الدين وحرمانا مما يسمونه بركة " وهكذا أصبح الانتساب إلى الزوايا والتعليم بها مضيقة للوقت أكثر ما هو منفعة لهؤلاء الطلبة الذين جاءوا من مناطق عدة لاكتساب العلم والمعرفة، ويتابع صاحب المقال كلامه إلى القول : فيمضي على ذلك مضطرا بحكم العادة حتى يصبح يضحي زهرة شبابه في حفظ القرآن دون أن يجرأ تدبر ما فيه من روائع الحكم والدين والعلوم، فإذا نيف سنته على الثلاثين سمح له بحضور دروس المختصر في الفقه دون أن يكون له السهام في الأغلب بمبادئ العربية ثم إذا جاز طول الكهولة عاد إلى بلده أجهل ما كان .. "[1]

وهكذا برغم ما قيل عن دور الزاوية بالإيجاب أو السلب، فالزاوية ستبقى القلعة الحصينة التي دافعت عن المقومات الشخصية العربية الإسلامية، وتصدت للأعداء حتى وصفها البعض بأنها أشبه بالمعامل لتخريج رجال الفكر والثقافة والتصدي لكل آثم دخيل، ومن تم فقد جاهدت الزاوية بالسيف والقلم وبالقرآن والسنة وعقيدة السلف الصالح، وأمدت الزوايا الطلبة والمريدين والأتباع بما يحتاجونه من تكوين روحي ، عقلي وتدبر في شؤون المجتمع، كما كانت لها إسهامات في التكوين التربوي وتثمين روابط العلاقات الودية وعقد الصلح بين الجماعة، وكذا نشر ثقافة الوفاق والألفة والعمل المشترك الذي صب بدوره في العمل الوطني خلال المحن التي أصابت الجزائر في فتراتها المختلفة كما تركت الزوايا تراثا دينيا ومعرفيا ألهم الرجال الذين اعتمد عليهم وطنهم في مساره التاريخي.[2]

كما أنارت الزوايا من خلال تحفيظ القرآن وتبليغ الشريعة المحمدية السمحة والتعريف بالسلف الصالح وتعليم العربية لعقول الجزائريين، ونزحت معاول الجهل التي نتجت عن التواجد الأجنبي في الجزائر، وتصدت لهذا الخطر سواء في جانبه

---

1 - الحاج الرزقي، المصدر السابق، ص 32.

2 - عبد القادر عثمان، الزوايا في الجزائر عرضا وتحليلا، مجلة محاضرات المجلس الإسلامي الأعلى، عدد 1، (المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية رغاية 1999) ص 220.

المعنوي المتمثل في التبشير ونشر ثقافة الكفر، أو في جانبه الاستعماري المباشر، وتمثل ذلك في حركة الجهاد الإسلامي التي تصدت للتحرش الإسباني على سواحل الجزائر وتطهيرها من الخطر الصليبي. وبذلك تعد الزوايا الحصن المنيع في وجه المسخ الأجنبي وسياسة الإلحاق التي أرادتها الدول الأوروبية منذ الاحتلال الروماني إلى الإستعمار الفرنسي، لكن بساطة الزوايا وسلاح الفكر وطبيعة التلقين وقول الكلمة سيبقى كل ذلك الأقوى بكثير مما ملكته تلك العهود الاستعمارية من العدة والعدد.

الخلاصة

وخلاصة القول فإن مرحلة العهد العثماني في الجزائر تعد مرحلة مهمة في جوانبها الثقافية، وهي أحسن حال مما كانت عليه باقي الميادين الأخرى، ولذلك عرفت المرحلة بروز الكثير من الطرق الصوفية وبناء الزوايا والكتاتيب القرآنية ونحوها بغرض الحفاظ على تماسك المجتمع من وجهته الروحية والثقافية وهو الشيء المهم في المعادلة، بل نجد أن السلطة العثمانية شجعت في العديد من الأحيان هذا الجانب لما لهل من العلاقة والاعتماد على شيوخ الزوايا والمريدين من أجل تبسيط نفوذها في الجزائر، وإن كان ذلك ما انجر عنه من الغيظ لدى البعض وظهور بعض المقاومات الشعبية التي قادتها الطرق الصوفية كالثورة الدرقاوية على سبيل المثال، لكن ذلك لم يقلل من شأن العثمانيين في الجزائر لأنهم طهروا سواحل الجزائر من الخطر الإسباني، بل أخروا الاحتلال الأوروبي بقرون عديدة، كما أن التواجد العثماني لم يحارب في يوم من الأيام مقومات الأمة الجزائرية بل دعمها، ومن ثم أصبحت العامل القوي في مواجهة المخاطر الأجنبية الصليبية، وخير مثال على ذلك المقاومة الشعبية التي تصدت للاحتلال الفرنسي تحت قيادة رجال الزوايا والطرق الدينية.، بل ظلت المقاومة هي عقيدة الجزائريين وهي متشبعة بالبعد الديني حتى قيام الثورة التحريرية المباركة.

الفصل الخامس

الدور الثقافي والعلمي للزوايا بالجنوب الجزائري

1 - الدور الثقافي والعلمي لزوايا منطقة توات

لقد لعبت الزوايا في الجزائر عموما، وفي منطقة توات خصوصا، دورا فاعلا، ومتميزا، أقل ما يمكن وصفه به أنها قامت بالمحافظة على هوية هذه الأمة، ولغتها، وثقافتها الأصيلة، كما كانت سدا منيعا في وجه تلك الهجمات المتلاحقة والشرسة من طرف الاستعمار التبشيري، والحركات الوثنية، كما أنها انداحت في أداء دورها الرسالي إلى المناطق الإفريقية المجاورة، كمالي والنيجر والسنغال، وغيرها من بلدان غرب إفريقيا، فنشر رجالاتها الإسلام واللغة العربية، في أوساط الشعوب المجاورة. واللافت للملاحظة أنها - برجالتها - لعبت دورا فاعلا على مستوى العالم العربي والإسلامي، وذلك عن طريق الرحلات إلي الحج والى بيت المقدس، فما من حاضرة يحلون بها إلا ولهم بها مكرمة في باب العلم والأدب، والتعليم. وفيما يلي عرض موجز لأهم هذه الأدوار التي زاولتها هذه المؤسسة العلمية والثقافية (الزوايا) على المستوى الوطني، والعربي، والإفريقي، وقد قسمت هذه الدراسة إلى التعريف بمنطقة توات، وأدوارها الثلاثة :

- الدور الوطني للزوايا
- الدور الإفريقي للزوايا.
- الدور المغاربي و الإسلامي.

التعريف بمنطقة توات

يمثل توات مجموعة من واحات الصحراء الجزائرية ويقع جنوب القطاع الوهراني وشمال الهقار، يحدد من الشمال العرق الغربي، وهضبة تادميت ومن الجنوب هضبة مويدر، وتطلق كلمة توات على ثلاثة مناطق.

تيجوارين

وهذه المنطقة هي عبارة عن مجموعة لابأس بها من القصور من الصحراء الغربية الوهرانية، تحيط بها أرض من السبخة ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وتتخيلها واحات على مسافة مائة -100- كلم ابتداء من تبلكوزة شمالا إلى الزرزور جنوبا، زمن الشارف شرقا إلى ناحية شروق غربا ويبلغ عدد قصورها حالي تسعون قصرا، وعاصمة هذا الأقاليم هي تلك البلدة الاحرة الخلابة مدينة تيميمون.

تيديكلت

وتقع هذه المنطقة في أقصى الشرق من الواحات التواتية وجنوب هضبة تادميت، وشمال هضبة مويدر، وتمتد من الشرق والى الغرب على مسافة مائة وخمسين كلم، أي من فقارة - ازو - شرق عين صالح إلى تمقطن.

تسقى هذه الواحات بالمياه المنحدرة من المرتفعات في شكل وديان بعد سقوط الأمطار وعند عدم جريان هذه الوديان تختزن مياهها في باطن الأرض لتستغل عن طريق الآبار، والتي تسمى عند أهل المنطقة الفقارة.

واحات منطقة تيديكلت، تقع في منحدرات تيدمايت و بها غابة تقع في وادي رابة، ومراعيها تمتد على طول أكاريا، ويمتاز هذا الإقليم بتنوع تكوينه الطبيعي مما شجع الإنسان في المنطقة على استغلاله أحسن استغلال من حيث الفلاحة والتعمير.

تمتد قصورها من الشرق الى الغرب، ويبلغ عددها الخمسين قصرا -50- وتنقسم الى ستة أقسام : فقارة أزو، واقستن، بهما عشر قصرا، وعين صالح (ولاتعنينا بالدراسة) أنغر وتيط وأولف، تضم كلها تسعة قصور، وهذه المنطقة مجاورة لتوات من الجنوب الشرقي. أما أقبلي فتوجد خارج هذا الخط وبها سبعة قصور.

توات

ويحدها من الشمال قورارة ومن الجنوب الشرقي تيدكلت، وتسمى المنطقة الوسطى، ويطلق على المجموعة الجنوبية الغربية التي تقع في حوض واد الساورة

الذي يأتي من المغرب واد زوزفانا، وعندما يحمل الساورة عادة ما يصل إلى القصور الشمالية من توات، ونادرا ما يصل إلى المناطق الوسطى.

أما عدد قصورها ثلاثمائة قصرا -300- في مناطق مختلفة تمتد على مائة كلم فبودة بها اثني عشر قصرا، وتيمي تسعة وثلاثون قصرا - 39 - وهي أكثر سكانا وبهذه المنطقة عاصمة الإقليم - أدرار[1].

فبإقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية وتبعد أقرب نقطة منه من العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم، ويقع الإقليم بين خطي عرض 30/26 درجة شمالا، وبين خطي طول 4 غربا إلى 1 شرقا وهذا الموقع يمثل امتداداً طبيعيا لمنخفض تنزروفت نحو الشمال.

ثم ان وادي مسعود يستمر بالنوازي مع الرمال بعرق ايقيدي، حتى يعبر منطقة بودة[2]، وهناك يواصل اتجاهه نحو تيمي وفنوغيل وتامست وانزجمير وتيلولين وسالي ورقان[3]، ثم بعد ذلك يضيع تماما في رمال عرق ايقيدي هذا الأخير الذي يدور جنوب غرب توات ليكون تقريبا تقريبا زاوية قائمة، وفي قمة عمالة - تامست - لا يوجد أي حاجز شمال وادي مسعود وهذا ما يجعله يتغلب حتى رقان.

وتنتشر بتوات مساحات شاسعة من الرمال، وتعتبر تهديدا مستمرا وخطير للأراضي الزراعية ومواقع المياه والقصور، كما توجد بين تمنطيط وتيمي بحيرة تتبخر مياهها في الصيف وتصبح منطقة من الملح تسمى السبخة[4]، وأرض توات عموما مسطحة تتخللها كتل رملية تحيط بالواحات بفعل الحاجز الذي يصنعه السكان خصيصا من جريد النخيل لوقف زحف الرمال ويسمى أفراك بلغة أمازيغ.

---

1 - أنظر اقليم توات، فرج محمود فرج، ص 1، 2.

2 - بودة : هي أقصى نقطة سكانية بتوات من ناحية الغرب تضم مجموعة من القصور أهمها : الزاوية، المنصورة وبها أقام ابن بطوطة أثناء مروره بتوات.

3 - هذه كلها قصور تقع بين رقان وبودة.

4 - التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات وحضارتها، محمد باي بلعالم، أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بالمنطقة، ص 43، سنة 1985 م.

وما يلاحظه الانسان أن السكان الأوائل اختاروا مناطق السكان باحكام، حيث تركوا المناطق العليا للفقاقير، وسكنوا في الاسفل، وهكذا يخرج الماء على وجه الأرض بمحاذاة القصور حتى الى البساتين، والتي توجد في منخفض.

أما الجبال فلا وجود لها بتوات، غير أنه يوجد بعض الهضاب بين توات وتيديكلت، وبأسفل توات هناك الحمادة : وهي أرض يغلب عليها الاستواء حيث تغطيها طبقة من الحصى وهي أرض صلبة صلبة يصعب على الجمال السير فيها بسهولة، ومصادرها المائية محدودة حيث حيث الآبار قليلة، وبعيدة الغور.

وفي شمال تسابيت توجد مجموعة كبيرة من الكتل الرملية تكون في مجموعها عرق الراوي وتسقى البساتين في منطقة توات بمياه الفقارة، التي سبقت الإشارة اليها، وفيها يقول المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون – رحمه الله تعالى.

«وفي هذه البلاد الصحراوية الى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقا بعيدة الهوى، وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتحت بالمعاول والفؤوس الى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة، ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء، فينبعث صاعدا فيفعم البر ثم يجري على وجه الأرض واديا»[5].

أصل كلمة توات

يعتبر كل من الرحالة ابن بطوطة، والمؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون من أقدم من تعرض الى ذكر كلمة توات.

فـابن بطوطة مر بتوات عند عودته من مالي الى المغرب الأقصى عام 754 هـ، وكان عند حديثه عن توات يقصد كافة التجمع السكاني المعروف لدينا بإقليم توات[6].

---

5 – ابن خلدون، 07/ ص 68، 69 تاريخ.

6 – تحفة الأنظار في غرائب الأنظار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، 02/299.

أما ابن خلدون فكثيرا ما يذكر اسم توات على أنها المقاطعات الواقعة بمحاذاة وادي مسعود وهذه التسمية ظل يطلقها أهالي الإقليم على المقاطعات الواقعة بالمنطقة الغربية للإقليم كما.

أما مصدر كلمة توات فقد حدث فيه خلاف كبير، فمنهم من قال أن الأصل الكلمة تكرورية، بمعنى وجع الرجل، ومنهم من قال أن اسم توات تطلق على أحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين سكان الصحراء، ومنهم من قال أن أصلها أعجمية قد أطلقتها قبائل من لمتونة عندما التجأت للإقليم في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي على المكان، بعد أن وجدوا المكان يناسبهم (يواتيهم).

الدور الوطني للزوايا في توات

لقد كان لزوايا منطقة توات دورا مميزا على المستوى الوطني، حيث كانت هذه المؤسسات التعليمية والاجتماعية منارات يقصدها الرواد من كل أحاء القطر الجزائري قاصدين التعلم و هضم العلوم الدينية من حفظ القرآن، ومتون الفقه، والحديث، والأصول، وعلوم اللغة من نحو وصرف، وبلاغة، والعلوم العقلية كالمنطق، والعقائد ففي ميدان التعليم :

قد تمثل وتجسد هذا البعد في الناحية التعليمية بعكوف الكثيرين من مشايخ توات المهود لهم بالكفاءة، على تدريس آداب اللغة العربية، وأصول الدين، الى جانب اشتغالهم بالتدريس في المساجد والزوايا، ولذلك اشتهرت بعض المدن، والقصور التواتية بنشاطها الثقافي والتعليمي على مر العصور، فكانت أماكن تعليمية رئيسية بمنطقة توات، وأولاد سعيد، و تيميمون بمنطقة قورارة، أقبلي بمنطقة تيدكلت.

فكان أول من يؤمها أهل كل منطقة من التواتيين، جحافل الطلبة والمريدين و الدراسين من كل بقاع الجزائر، شمالها وهضابها وجنوبها.

وكانت مراحل التعليم في هذه الفترة تبداء أعادة بالكتاب ثم الزوايا أو المساجد بالنسبة للتعليم النهائي الثانوي، وأما الإجازات العلمية والأدبية فيمنحها بالنسبة

للتعليم النهائي كبار العلماء والفقهاء من توات نفسها، أو من البلدان العربية المشهورة بالعلم، كفاس والحجاز، ومصر[7]، وكانت فرص التعليم متاحة لكل مريد ففي الكتاب يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة أولا، ثم يحفظ القرآن ثانيا على أيدي معلمين متفرغين لهذه المهمة أساسا، وكان على الأسرة التي تبعث ابنها لتعلم القرآن بالكتاب أن تخصص حصة سنوية من التمر، والقمح لمعلم الكتاب قيامه بتعلم أبنائها. وبعد أن ينهي الطفل مهمته بنجاح فيحفظ القرآن الكريم، تقيم له الأسرة حفلة عظيمة بهذه المناسبة، يحضرها شيخه وزملاؤها وبقية أهل القصر، و تلبسه زاهية وتطلى يده، ورجليه بالحناء، ويجلسونه في مكان عال ليهنئه على هذه النجاح كل المهنئون. وتأتي بعد ذلك المرحلة التعليمية التالية، وهي أرقى من سابقتها وتتم في الزاوية، ويتولى التعليم فيها فقيه الزاوية، او إمام المسجد، والنظام الدراسي يسهل يعتمد على تلقي الطلبة دروسهم، على هيئة دائرة وتستمر الحلقة غالبا حتى وقت صلاة المغرب، وهكذا باقي أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة والأعياد الدينية.

أما مدة الدراسة في الزاوية فهي غير محدودة، بل تعتمد على مدى استيعاب الطالب للمواد المقررة عليه حفظا وتعلما.

وأهم ما يتلقاه الطلبة في هذه المرحلة الثانوية قواعد وآداب اللغة العربية، من نحو وصرف وبيان وعروض، ومنطق مع الحساب والجبر، ومن العلوم الشرعية : الحديث والتفسير والفقه على مذهب الإمام مالك، ويقام الطالب عند نهاية الدراسة امتحان يكرم بعده بحفلة رمزية من طرف شيخه وزملائه، وبعدما يودعه شيخه وزملائه ليعود إلى أهله فرحا بنجاحه.

وكان يلحق ببعض الزوايا أماكن لإقامة الطلبة الذين يأتون من هنا وهناك لتلقي العلم، وكان الموسرون يدفعون على أبنائهم مصاريف الدراسة إلى شيخ الزاوية، وأما الفقراء الوافدون فكانت تخصص لهم منحا دراسية من ريع الأملاك، التي أوقفها الأ ثرياء من التواتيين على الزوايا.

---

7 - راجع : اقليم توات خلال القرنين 18 و19، فرج محمود فرج، ص 85.

وكان بعض فقهاء توات يبنون الزوايا، ويتخذون أماكن للخلوة والعبادة ويخصصون جزءا منها للتدريس، فكان يقصدهم الطلبة من شتى بقاع الوطن لانتشار شهرتهم، وذيوع صيتهم الحسن، وذلك بملازمتهم مدة معينة من الزمن يتفرغون خلالها لحفظ واستيعاب دواوين الفقه الرئيسية في المذاهب، وغيرها من أمهات الكتب المنقولة والمعقولة.

وقد ساعدت كثرة الزوايا التابعة للطرق الصوفية على فتح باب فرص التعليم أمام طالبي العلم من التواتيين وغيرهم، فلم يخل قصر، أو مدينة من زاوية أو أكثر، بعضها رئيسي وبعضها فرعي.

وكانت الزوايا في هذا الإطار تمتلك خزانة من الكتب تضم عناوين متنوعة، وفي شتى التخصصات المعرفية، وخصوصا الدينية، وكانت هذه الخزانات مصدرا، ووسيلة مساعدة للرجوع إليها كلما سنحت الفرصة لتعميق المعلومات المأخوذة، وتوسيع المعرفة المعطاة.

وقد احتلت مدينة تمنطيط مركز الصدارة في النشاط الثقافي و الأدبي، وهذا راجع إلى وضعيتها التي كانت عليها في القديم، حيث كانت هي عاصمة الإقليم السياسي و الاقتصادي والثقافي، فقد كثرت بها المساجد والزوايا التي كانت آهلة بالمتعلمين، ثم أصبحت مقصدا لكثير من علماء المغرب، وتلمسان الذين نزلوا بها منذ القرن التاسع الهجري، من هؤلاء : الشيخ الفقيه المغربي ابن يحيى الذي نزح من المغرب الأقصى واستقر بتمنطيط عام 815 هـ ونظرا لعلمه أسند اليه أهلها قضاء الجماعة التواتية[1].

الشيخ العالم الفقيه يحيى بن بدير الذي وصل إليها عام 845 هـ فاستقر بها وانتفع بها بعلمه كبار فقهاء توات أمثال الشيخ سالم الحصتوني، وعمه الشيخ الفقيه عبد الله الحصتوني[2].

1- النيل البسيط في أخبار تمنطيط ابن بابا حيدة ص 7.

2- نفس المصدر.

الشيخ بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، الذي وصل إلى تلمسان عام 882 هـ. وهو من كبار علماء القرن التاسع، وقد اتخذ رحمه الله من توات مركزا مركزا لنشاطه العلمي، ومنطلقا لنشر الإسلام في بلاد السودان الغربي الذي انتشرت فيه الوثنية.

وأهم عامل ساعد على توقد الحركة الأدبية، والثقافية، والعلمية بتمنطيط بناء الزاوية البكرية إلام بها، وذلك في بداية القرن الثاني عشر الهجري. واشتهر منهم علماء، وأسست الطريقة البكرية، ومن علمائها عبد الكريم بن محمد والد الشيخ البكري مؤسس الطريقة.

وفي قصر أولاد ملوكة بمقاطعة تيمي، كانت زاويته من أنشط الزوايا وأغناها بالكتب وبرز بها علماء مشاهير أمثال :

الشيخ محمد عبد الرحمان البلباني، وابنه الشيخ عبد العزيز البلباني، وقد ترك هذا الأخيرة ديوانا ضخما في نوازل المنطقة يسمى الغنية البلبانية، والتي هي عبارة عن أحكام وفتاوى لمجموعة من القضايا التي كانت ضمن سجلات شورى القاضي عبد الحق، وقد تولاه البن عبد العزيز بالتهذيب والتبويب على حسب أبواب خليل بن إسحاق المالكي، وأصبحت مرجعا هاما، ومصدر غنيا بالأسئلة والأجوبة [10].

وقبل أن نترك هذه المقاطعة نشير الى فقهاء تنلان، وخاصة الفقيه :

عمر بن عبد القادر : الذي أشاد بعلمه ومكانته الأدبية صاحب كتاب جوهر المعاني حيث قال عنه : إكان رحمه الله أجل الأعلام، إماما في المذهب، فقيها نحويا لغويا عروضيا، من حفاظ المذهب المقتدى بهم كبير القدر، وافر الهمة، عظيم الحرمة.»[11].

وقد اشتغل هذا العالم بالتعليم طول حياته، وتولى القضاء للجماعة التواتية فترة من الوقت، وفي آخر أيامه مال إلى التصوف واحتجب عن الناس إلى أن توفي في 03 ربيع الأول 1152 هـ.

---

10 – راجع : إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، فرج محمد فرج 94.

11 – ابن عبد الحكيم، ص 31.

ومن علماء قصر تنلان الشيخ الأديب عبد الرحمان بن عمر، الذي اختاره القاضي عبد الحق ليكون من بين مستشاريه، وكان يتولى هو الآخر التدريس في تنلان بإحدى زواياه.

وإذا انتقلنا الى مدينة قورارة، برزت تيميمون، وقصر أولاد سعيد كمركزين نشيطين للحياة الثقافية والأدبية والعلمية، وهذا بفضل كثرة الزوايا، والمدارس التي انتشرت فيهما إلى جانب ظهور بعض الشخصيات والإعلام التي ساهمت في مجال الأدب والتعليم ومن هؤلاء :

الشيخ الفقيه محمد بن عبد العزيز بن محمد، الذي تولى التعليم بقصر أولاد سعيد، وكان كثير النسخ للكتب الأدبية.

الشيخ العروضي الفقيه محمد أب الزموري الذي كان من كبار أساتذة توات، ولم تتوقف جهوده على التأليف، بل كان يزاول التعليم في كافة منطقة توات بجهاتها الثلاث، حتى يعلم أكبر قدر ممكن من الطلبة التواتيين، والجدير بالذكر أن الكثير من مؤلفاته الأدبية، وقصائده الشعرية كانت تدخل ضمن مناهج التعليم بالمدارس التواتية[12].

وإذا جئنا إلى مقاطعة أقبلي بمنطقة تيدكلت كانت قبلة هي الأخرى يقصدها الطلبة، والرواد من الجهات المجاورة، لما تميزت به من نشاط ثقافي وأدبي، وعلمي رائد في توات بواسطة ما قام به علماؤها الذين تصدوا للتدريس والإفتاء، ومن هؤلاء :

الشيخ الأديب الفقيه محمد بن محمد، والشيخ القاضي محمد الحسن بن محمد الذي كان قاضيا، وأستاذ في آن واحد، ومن أهم تأليفه كشف الغيوم على متن بن آجروم.

والشيخ محمد بن عبد الرحمان بن محمد السكوتي إذ تخرج عليه الكثير من الطلبة الذين صاروا من خيار[13]، والقائمة طويلة من العلماء والأدباء، والفقهاء وأصحاب التراجم، والتاريخ.

---

12 - إقليم توات، فرج محمود فرج، ص 99.

13 - نفسه : ص100 إقليم توات، فرج محمود فرج، ص 99.

وأهم ما يمكننا أن نستنتجه من هذا البعد الذي لعبته الزوايا في منطقة توات على المستوى المحلي والوطني ما يلي :

1- كانت توات ولا تزال محط أنظار العلماء والطلبة على مستوى الإقليم، أو على مستوى مناطق القطر الجزائري بكل أجزائه حيث كانت ترد جحافل الطلبة لتلقي الفقه والتفسير والعلوم الشرعية.

2- قيام هذه الزوايا في كل مناطق توات، بدور ثقافي وأدبي وفقهي هام، تمثل في نشر العلم والقضاء على الأمية وأوساط العامة، وتعريف المجتمع بدينهم وشريعتهم.

3- تولى التدريس، والتعليم، وكذا الإفتاء، في هذه الزوايا علماء وفقهاء كانوا محط أنظار الناس، موئلهم في كل ما يلاقيهم من مشاكل وعقبات.

4- ظهور ذلك التناسق العجيب بين مؤسسة الزاوية وباقي مؤسسات المجتمع التواتي، فقد كان القضاء يتولاه علماء وفقهاء أفاضل يتولون التدريس، كما رأينا عبد الحق، والقاضي عبد العزيز البلبالي.

5- كانت الزاوية تحظى في توات هي المحرك الأساسي لكل فعل ثقافي وعلمي على مستوى كل مقاطعات المنطقة. كما كانت تحظى في، آن واحد بالإحترام والهيبة، والعمل بكل ما يصدر عن أساتذتها من فتاوى وأحكام وتوجيهات.

الدور الإفريقي لزوايا منطقة توات

كانت الجماعة التواتية عبر تاريخها الطويل من أنشط الجماعات التي سكنت الصحراء فلم يقتصر جهد هذه الجماعة على النشاط الاقتصادي بل امتد إلى نواح أخرى، وكما مر بنا فان هذه الصحراء رغم صعوبة طرقها ومسالكها، فان التواتيين أوصلوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق الجنوب السوداني عن طريق قوافلهم الذاهبة والأدبية ن ومع هذه القوافل اطلع التواتيون عن كثب، على التيارات الثقافية والفكرية التي كانت شائعة عند أهل السودان الغربي، وجيرانهم سكان الصحراء،

وفي نفس الوقت قام علماء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف الى أهل تلك المناطق.

ولم يتحقق هذا كله إلا عن طريق سفر الكثير من علماء وفقهاء توات إلى الخارج، بالإضافة إلى استقرار جاليات تواتية بالسودان الغربي بقصد العمل والتجارة [14].

فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي -15- اعتبر الإقليم التواتي مركزا أماميا لنشر الإسلام بالمدن السودانية الواقعة بالقرب من الأطراف الجنوبية للصحراء الجزائرية.

ومن هنا بدأت مجهودات الشيخ المجاهد محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد أن استقر بتوات وبنى بها الزاوية القادرية، ووجد الجو مهيئا أمامه للمساهمة في نشر الدين الإسلامي بمناطق الحوصة، فأصبحت بذلك توات بالنسبة له قاعدة رئيسية ينطلق منها الى قبائل الحوصة ينشر الإسلام بين قبائلها، ويعلمهم مبادئ وأصول الدين، ويفتي لدى ملوك الأمرا في المسائل والقضايا المستشكلة عليهم، ثم كان رحمه الله يعود ثانية الى بلاد توات ليستقر في زاويته القادرية، وترك في بلاد الحوصة تلاميذ يحملون مشعل الإسلام بعده في تلك البلاد حيث توجد اليوم جماعة بتلك البلاد ينسبون أنفسهم إلى المغيلي، وقد عرف بين العامة والخاصة بـ الإمام المغيلي، وهو لقب لم يكن يحظى به إلا العلماء الراسخون في وقته.

وأثناء وجود المغيلي في كانو اجتمع بسلطانها أبو عبد الله محمد فقربه اليه، واستشاره في أمور السلطة، فألف له رسالة في موضوع السياسة الشرعية حثه فيها على إتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوضح له أحكام الشرع، وقواعده في كل ما يهم السلطنة والحكم، ثم فارقه الى بلاد التكرور[15]، فوصلها، واجتمع بسلطانها الأسقيا الحاج محمد وجرى على طريقته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل شتى في الرجلين المذكورين

---

14 - مجلة مركز الأبحاث والدارسات التاريخية لولاية أدرار.

15 - يقصد بها فوتو السنغالية على ضفة نهر السنغال.

الالسياسة الشرعية، ومن خلال ما كتبه المغيلي لكلا يتضح انه كان علي اطلاع كامل ومعرفة تامة بأحوال المسلمين في السودان الغربي وسياسة أمرائه وملوكه وعادات وتقاليد السكان هناك، كما اثبت المغيلي من خلال ذلك، حرصه الشديد علي ان يحكم المسلمون بحزم، وذلك الشريعة الإسلامية.

ومن مآثر المغيلي في بلاد الحوصة أنه نشر بها الإسلام، وتعاليمه حسب كتاب الله تعالى وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، كما أنه ساعد على إرساء قواعد المذهب المالكي في الأصول والفروع.

وتعتبر الوقيقة إلى أجاب فيها المغيلي على أسئلة الأسقيا الحاج محمد، ذات أهمية كبيرة لكونها تتناول الأحكام الشرعية للظواهر الإجتماعية والسياسة السائدة في بلاد السنغال، وحيث كان ذلك في سنة 1502 م، وهي نفس السنة التي دخل المغيلي بلاد السنغال [16].

وعليه فيمكن القول أن المغيلي كان أكبر رواد الحركة الإصلاحية في غرب إفريقيا التي تجول بها كثيرا، وعاش فيها زمنا طويلا مخلفا العديد من الآثار القيمة كمسجد الكرامة بالنيجر الذي لايزال قائما إلى اليوم ومكتوب على صومعته :« هذا المسجد الكرامة الذي بناه الشيخ المبارك محمد بن عبد الكريم المغيلي من صلاة العشاء الى مطلع الفجر ». [17].

ومن العلماء الذين انطلقوا من زوايا توات – سوى المغيلي – الى غرب إفريقيا، لنشر الإسلام، واللغة العربية وسط السكان الأصليين نذكر من يلي :

أبو القاسم التواتي : توفي هذا العالم سنة 935 هـ بمدينة تمبكتو، حيث تولى إمامة مسجد هذه المدينة، إضافة الى انه كان صاحب مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية، ويروى أن الأسقيا الحاج محمد أهدى تابوتا يحتوي على ستين جزءا من

16 – الشيخ بن عبد الكريم المغيلي، مهرجان التعريف بتاريخ منطقة الأوراس.

17 – مجلة الدراسات التاريخية لولاية أدرار.

القرآن الكريم كوقف على هذا المسجد، ودفن بإحدى مقابرها رحمه الله، ويروى أن خمسينا من العلماء التواتيين دفنوا معه في هذه المقبرة[18].

محمد بن أبا : واسمه الكامل محمد بن أبا بن أحمد بن عثمان الزموري الذي مر معنا عند معرض الحديث عن علماء توات، والذي نبغ في الأدب وعلم العروض.

انتقل الى بلاد التكرور أروان ؟ تمبكتو ليساهم في نشر الإسلام واللغة العربية، وقد وظف ملكته وعلمه في العمل الحضاري، والرسالي الضخم، خصوصا تمكنه من اللغة العربية وآدابها حيث كان ابن أبا متضلعا في علم في علم العروض حيث أضاف بحرا شعريا جديدا أسماه بحر المضطرب، ونظم فيه قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مطلعها :

صل يالهي ثم سلم دائما على خير الأنام

ما دعاك أو لباك محرم قاصدا إلى بيت الحرام[19].

الطالب سيدي أحمد التواتي بن محمد بن عومر : كان من العلماء المعروفين بالعلم والتعبد، واشتهر بالتصوف على الطريقة النصرية، وكان له كثير من الأتباع الذين ساهموا في نشر الإسلام ببلاد التكرو، وتوفي رحمه الله بتشاد عام 1138 هـ.

الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي : كان من العلماء العاملين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قولا وعملا، وكان شيخ الركب القاصد بيت الله الحرام من بلاد التكرور الى بلاد توات، يروى أنه بنى بها مسجدا ودار للتلاميذ[20].

محمد بن أحمد بن محمد القبلاوي : توفي رحمه الله سنة 1296 م بأزواد، توجه غرب افريقيا وشرقها لنشر العلم والفقه وعلو الإسلام الأخرى، وكانت له اتصالات كثيرة بالعلماء والوجهاء، تجول كثيرا في تومبوكتو، وأروان، واستقر بأزواد حيث وفته المنية بها.

---

18 - نفس المرجع.

19 - مجلة الدراسات التاريخية لولاية ادرار.

20 - إقليم توات، فرج محمود فرج، ص 115.

وقد استمر تدفق الفقهاء التواتيين إلى تمبكتو حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فيذكر المؤرخون أن من الذين توجعوا إلى غرب إفريقيا مجموعة لا بأس بها من الفقهاء والعلماء منهم :

الفقيه أبو الأنوار بن عبد الكريم التينيلاني : الذي استقر فترة طويلة يعمل في ميدان الإفتاء والتدريس بمدينة تومبوكتو.

الشيخ الحسن بن سعد البكري.

الشيخ محمد بن احمد : الذي أمضى حياته في الإفتاء والتدريس ببلدة أزواد إلى أن توفي بها رحمه الله عام 1296 [21].

الشيخ الاديب الحسن بن محمد : الذي كان كثير التردد على مالي وجنوب ليبيا للعمل بها في التدريس والإفتاء، فلما استوطن بهما فترة لا بأس بها، ألف كتابا يترجم فيه لعلماء مالي وليبيا.

وقد ألف عالم التكرور الكبير أحمد بابا التمبكتي كتابة المشهور نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وخصصه لعلماء المالكية، وكان من بين من ذكرهم عددا من التواتيين الذي كانوا قد انتشروا هناك للإفتاء والتدريس، فنالت أعمالهم شهرة في كل بلاد السودان والتكرور، وتركوا وراءهم تلاميذ ومريدين وأتباع، كما رسخوا تعاليم الإسلام، وحاربوا الجاهلية في تلك الديار.

ويمكننا أن ننتهي إلى القول بأن التواتيين قد سلكوا مسلك الفينقيين القدامى، فكان دورهم عظيما في نقل حضارة العالم الإسلام الى مناطق السودان الغربي الوثني، ويرجع الفضل لهم الفضل أيضا في استمرار إمداد هذه المناطق البعيدة بالفقهاء والأساتذة، الذين ساهموا في تغذية الشعوب الإسلامية هناك بالثقافة والأفكار الإسلامية فوقفوا بذلك، كسد منيع، أمام التيار التبشيري المصاحب للإستعمار الأوربي، والذي كان يخطط لإحتواء شعوب شعوب هذه المنطقة بكاملها.

---

21 - منطقة توات، فرج محمود فرج، ص 115.

كما ان العمل مظهر من مظاهر مبدأ التكامل والتعاون والتواصل الحضاري والثقافي بين زوايا منطقة توات وشعوب منطقة السودان بكل أقاليمها.

الدورالمغاربي والاسلامي لزوايا توات

سيتمثل هذا البعد المغاربي في ذلك الامتداد علي مستوي دول المغرب العربي من توات كالمغرب الأقصي وتونس وليبيا.

وكما يتمثل البعد الإسلامي في ذلك الامتداد علي مستوي دول العالم الإسلامي خصوصا في المشرق العربي.

فعلي المستوي المغاربي كان لزوايا توات امتداد بارز تمثل فيما قامت به الجالية التواتية في مدينة فاس من عمل كبير خصوصا في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وأصبح لها وزن كبير في كافة المجالات، فكان منهم التجار و الفقهاء و الأساتذة.

و قد أورد صاحب كتاب " تعريف الخلف برجال السلف " أسماء أكثر من عشرين شخصية تواتية من أهل الولاية و الصلاح و الفقه.

فكان الشيخ الفقيه " عمر بن عبد القادر التنيلاني التواتي " من أشهر أساتذة جامع القرويين [22].

و في مدينة تونس استقر الكثير من التواتيين، و كان منهم المثقفون و الأساتذة و الفقهاء، أمثال الشيخ عبد الله محمد التواتي، الذي كان من أشهر معلمي مدرسة " الباي أبي الحسن علي باشا "، و كان كثير التأليف و الكتابة.

ورأينا كيف أن الشيخ الأديب الحسن بن محمد قد أكثر التردد على ليبيا، حيث درّس فيها، و أفتى، ثم ألف كتابه في تراجم علماء الجنوب الليبي.

فالاحتكاك بين علماء و أساتذة منطقة توات، و دول المغرب العربي المجاورة أمر أملته الوحدة الدينية، و المذهبية لشعوب المنطقة، و كرسته سهولة تنقل العلماء

22 - راجع : الحفناوي / ج01، 01، ص 22، وج 2، ص : 216، 111، 109، 108.

و الأساتذة بين أجزاء المنطقة، و كذا الحالة السياسية لدول المغرب العربي و التي كانت مشجعة و ميسورة.

أما في المشرق العربي فان هذا الامتداد و التأثير تجسّد في تلك البعثات المتوجهة إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج من حين إلى آخر.

فهذا الشيخ البكري بن عبد الكريم، الذي أسس الزاوية البكرية الكبيرة في مدينة تمنطيط، يقصد الحجاز لأجل الحج، و بعد تأديته الفريضة، توجه إلى مدينة أريحه بالشام و بنى له زاوية هناك، و عند مروره بمصر أعطى العهد للفقيه المصري الشيخ : محمد القادري، ثم توجه الى تونس وبنى بها زاوية، ثم انتقل إلى منطقة الزاب واستقر بها طويلا، وبعد الحاح من أخيه بالعودة الى مسقط الرأس توات، عاد وتولى منصف قاضي الجماعة التواتية، ثم بنى زاوية كبيرة بتمنطيط، هي الزاوية الأم، وتسمى باسمه وظل يسهر عليها حتى توفي رحمه الله سنة 1133 هـ، ثم أشرف عليها من بعده أبناؤه وأحفاده وهي ما تزال قائمة بدورها إلى اليوم (23).

وهذا المغيلي، يجري سجالات شعرية، وكلامية مع إمام مصر جلال الدين السيوطي في موضوع استعمال المنطق، حيث كان السيوطي من الرافضين لعلم المنطق، واستخدامه في علوم الشريعة، متأثر، بتقوى أبي عمر وبن صلاح الرافضة للمنطق، والاشتغال به.

أما نظرة المغيلي الى المنطق، فهي النظر اليه على أساس على أنه أداة ووسيلة تؤدي الى الحق وتعصم الفكر من الزلل، ويبدو أن المغيلي ?رحمه الله ? قد تأثر بالفيلسوف الإسلامي ابن الرشد الحفيد صاحب بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وتهافت خصوصا وهو مالكي المذهب.

فلما بلغ المغيلي أن جلال الدين السيوطي ينهى عن علم المنطق قال ناظما قصيدة مما جاء فيها :

---

23 – راجع : الحفناوي / ج01، 01، ص 22، وج 2، ص : 216، 111، 109، 108.

سمعت بأمر ما سمعت بمثله ... وكل حديث حكمة حكم أصله
أيمكن أن المرء في العلم حجة ... وينهى عنه الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعنى الا عبارة ... عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام وهل ترى ... دليلا صحيحا لا يرد لشكله
أرني هداك الله منه قضية ... على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ما أيدي كفور ودمه ... رجال وان أثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولاتقم ... دليلا على الشخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبين ... به لا بهم اذهم هداة لأجله

فهذه الأبيات تبين تحرر المغيلي، وتبينه لعلم المنطق، و لو كان من صناعة أهل الكفر المخالفين لنا في الملة، ويشير الى قضية هامة مفادها : معرفة الرجال بالحق، وميزاته، لا العكس، كما يلفت النظر إلى أن الاستعانة بالمنطق قال به علماء راسخون في الشرع، وممن يقصدهم بهذا ابن الرشد الحفيد المالكي[24].

ولما سمع السيوطي - رحمه الله - بهذه الأبيات رد عليه مدافعا عن رأيه بهذه الأبيات :

حمدت اله العرش شكرا لفضله ... وأهدي صلاة للنبي و أهله
عجبت لنظم ما سمعت بمثله ... أتاني عن حبر أقر بنبله
تعجبت مني حين ألفت مبدعا ... كتابا جموعا فيه جم بنقله
أقرر فيه النهي عن علم المنطق ... لما قاله الأعلام من ذم شكله
وسماه بالفرقان يا ليت لم يقل ... فذا قرآن، كريم بفضله
وقال فيه فيما يقول رأيه ... مقالا عجيبا نائيا عن محله
دع عنك ما أبدى كفورا وبعد ذا ... خذ الحق من كفور بختله
وقد جاءت الآثار في ذم من حلوى ... علوم يهود ونصارى لاجله

24 - نيل الإبتهاج، أحمد بابا ص 578.

يعـزز به علـما لديـه وأنـه ... يعـذب تعذيبا يليـق بفعلـه
وقـد منـع المختـار فـاروق صحبـه ... وقد خـط لوحـا بعد توراة أهلـه
وقـد جـاء من نهي اتباع لكفـار ... وان كـان الامـر حقـا بأصلـه
أقمـت دليلا بالحديـث ولـم أقـم ... دليلا على شخـص بمذهـب مثله
سـلام علـى هذا الإمـام فكـم له ... لـدى ثـاء واعتـراف بفضلـه [25]

ولهذا الكلام مع ما فيه من معارضة لرأي المغيلي في قوله بعلم المنطق، فهو يتضمن اعتراف بفضل، وعلم هذا العالم الذي ذاع صيته من بلاد توات، وانتشرت آراؤه في المغرب والمشرق، كما أنه يتضمن ذلك التواصل العلمي والفكري وبين علماء الأمة من أجل خدمة الحقيقة العلمية، وإظهارها خالية من الهوى، والتعصب لرأي دون دليل ولا برهان.

فهذا باختصار الدور الذي لعبته الزوايا على المستوى المغاربي والإسلامي وقد حشد هذا الدور في أرض الواقع، أولئك العلماء، والأساتذة والطلبة الذين اتخذوا من التجوال والسياحة في أرض الإسلام دينهم، ونشر العلم و الإحتكاك بالعلماء هدفهم ومقصدهم.

أهم ما يمكننا أن نسجله في هذه المباحث الخاصة بالدور الذي لعبته الزوايا على المستويات الثلاثة المذكورة : الوطنية والمغاربية، والإفريقية، والعربية والإسلامية، النقاط التالية :

1/ الأهمية الإستراتيجية والإقتصادية، التي يحظى بها إقليم توات فهو همزة وصل بين كل مناطق الجزائر وهو مفترق الطرق التي تربط الشمال بالجنوب ودول افريقيا.

2/ الزاوية في منطقة توات مؤسسة، أثبتت جدارتها بقوة في المحيط الداخلي والخارجي.

---

25 - نيل الإبتهاج، أحمد بابا التمبكتي ص 579.

3/ القائمين بالزاوية بالزوايا في توات هم علماء، وفقهاء المنطقة استطاعوا، بتقواهم، وصلاحهم، وعلمهم أن يصلحوا مجتمعاتهم ويتطلعوا إلى نشر الإسلام والعربية في بلاد افريقيا، ويكونوا سدا منيعا في وجه الوثنية والتبشير في الصحراء بأكملها.

4/ تخرجت من الزوايا في توات رجالا وطلبة، وعلماء، زحفوا بعلمهم، وأدبهم على كل منطقة احتاجت إليهم، فدرسوا وأفتوا وألفوا كتبا ورسائل ودواوين واشتهر خبرهم، وعرفوا بالتواتيين.

5/ الزاوية كانت تمثل في المجتمع التواتي حجر الزاوية، أو النقطة المركزية فيه، فقيها العبادات، وفيها يفصل في الخصومات، ومنها تؤخذ الإعلانات والمساعدات.

الفقارة كموروث ثقافي لمنطقة توات

هي من أقدم مصدر مائي للإستعمال الفلاحي بالدرجة الأولى، وهي عبارة عن سلسلة من الآبار يتصل بعضها ببعض تنحدر مياهها من مستوى أرضي عالي إلى مستوى منخفض، يشرف على تربة صالحة للزراعة، فيجرى عليها منسوب ماء الفقارة.

أما عمق الآبار فمن 3 أمتار الى 40مترا في بعض الفقاقير تبلغ مسافة امتداد أبار الفقارة الكبيرة حوالي 10كلم.

اختلفت الأراء حول أول من أنشئ الفقارة فصاحب كتاب البسيط يرجع إنشائها الى الأنباط والسيد عم بن عبد الرحمان المهداوي يقول : «ان اليهود هم أول من أسس الفقارة» أما صاحب درة الأقلام فيقول : «نزلت بعض القبائل البدوية ببودة فوجدوا مياه الوادي قد جفت فاختبروا الوادي، ثم حفروا سلسلة من الآبار وربطوها ببعضها وزرعوا بعض أراضي الوادي» ويبدوا أن الإحتمال الأخير هو المعقول وهي النواة الاساسية لنشأة الفقارة، وان قصور بودة فعلا هي أقدم قصور توات.

واشتق اسم الفقارة من الفقر و قيل من التفجير لأن الماء يتفجر منها ومن المؤرخين أن اسمها مؤخوذ من الفقارات – فقاقير الظهر – لان آبارها تشبه فقاقير الظهر، بينما يرى البعض الآخر من الفقر الذي هو الحفر من قولك فقر كذا أي حفره وماء الفقارة ملك جماعي توزع حصصه بطريقة عادلة حسب ملكية الأفراد والجماعات لحبات الماء.

استغلال المياه الجوفية وممارسة الزراعة بإقليم توات

يقوم النشاط الزراعي بواسطة إقليم توات على استغلال المياه الجوفية عن طريق الفقارة[26] التي يمكن تعريفها بأنها ساقية من الماء تأخذ ماءها من تحت الأرض قبل ان تظهر على السطح عندما يسنح ذلك مستوى انخفاض الأرض، مما يجعلها دائمة الجريان وقد ساعد ذلك وطبوغرافية تادميت المنحدرة نحو منخفض توات وهذا ما مكن التواتيون من أن يستغلوا العديد من الفقارة[27].

---

26 – يرجع تأسيس الفقارة بإقليم توات إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي حسب دراسة النقيب لو الذي أورد عدة آراء حول من أدخلها إلى منطقة توات نمها رأي يعود الى ما أورد السبوطي في الفوازل العشر إلى أنصاف الميسور لمولاي حسن القبلاوي والتي مفادها أن أحد الأشخاص كان مطاردا من طرف أحد ملوك المغرب في نهاية القرن الأول الهجري فنزل بقصر تمنطيط وحفر بها أول فقارة يذهب إلى القول بأنه بعد (AGP Martin المسماة حاليا (هنو). ومنها رأي أخذه عن أ، ج. ب، مارتن) سقوط دولة العبيدين بمصر هاجر عدد من السكان إلى إقليم توات فتملكوا الأراضي أقاموا القصور ونظموا طريقة السقي بأسلوب حفر الترع تحت الأرض فأخرجوا المياه من باطن الأرض إلى سطحها فسموا هذه الطريقة بالفقارة. ورأي آخر يتخلص في ان أحداث الفقارة يعود الى فرار جماعة من البرامكة ببغداد نكبتهم على يد الرشيد قدم بعضهم الى قصور توات السفلي وواحة سالي فنقلوا طريقة حفر الفقاقير التي كانت مشابهة في هندستها ما كان جاريا به العمل بإيران هذا وأن هذه الراوية لا تستن إذا من الراجع أن أحداث الفقارات يعود إلى عبقرية الإنسان الصحراوي بتوا وتلاؤمه مع وسطه الطبيعي وظروفه المحلية.

أنظر :

Lo (capitaine) Les Foggaras Du Tidikelt Travaux De L Institut De Recherches Sahariennes (Alger) ,T ,11 2e Semes – Tre 1954 ,P142 ,143 .'

27 – يعتبر نظام الفقارات بالمناطق الصحراوية، فقد أشار ابن خلدون اليها بقوله : «إن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها الى أن تصل الحفر إلى حجارة صلبة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويتدفقون عليها الزبرة من الحديد وتكسوا طبقها عن الماء، فينبعث صاعدا فينعم البئر ثم يجري على وجه الأرض».
ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطبعة 1968، ج6، ص 119.

ومن اهم هذه الفقارات المنتشرة بتوات الوسطي فقرات مختار-انجتان او تاعلو - سيدي لحسن - تسادت توشن - فقارة الزاوية -باسراكا - اللوز-واغزل-العايش - سيدي محمد ولد سيدي بابا - البور- ابنكور[28].

إلا أن الفقاقير الوسطي تختلف فيما بينها من حيث طولها فقد تزيد عن الكيلومتر الواحد او تنقص كما تختلف في مردودها من المياه و قد قدر بعض العلماء أن الحبة الواحدة تعطي أربعين لترا في الدقيقة وهذا المقدار غير ثابت ما بين فقارة و أخرى بل و حتى في نفس الفقارة التي يزيد مردود مياهها او ينقص تبعا لصيانتها و رغم هذا فالفقاقير التواتية تشترك جميعها في الاتجاه الواحد بزاوية كنته لتحفر من الجهة الشرقية وتخرج في المنطقة الغربية بحيث تأخذ القصور الكنتية شكلا هلاليا منفتحا علي الشمال ومغلقا نحو الجنوب بمحاذاة هضبة تدمايت [29].

أما طريقة حفر وتهيئة الفقارة فتعود إلي أشخاص مختصين يعرفون بمعلم القصر الذي يشرف علي جر المياه في الفقارة الي مستوي القصور وذلك باستخدام العبيد الذين جلبوا من إفريقيا وعادة ما يبدأ التواتيون حفر الفقارة في أعالي القصر فيحفر عدد من الآبار ثم يقومون بالربط فيما بينها برواق على ساقية جوفية تحت الأرض تنساب فيها المياه لتظهر على السطح وعلى طول هذا الرواق الباطني تقام عليه فتوحات عمودية تتمكن من تجديد الفقارة ودخول العمال إليها لصيانتها ورفع الأتربة المتراكمة فيها ويتم عادة تنظيف الفقارة عند موسم الخريف أو كلما اقتضت الضرورة لذلك.

وعند إخراج المياه على سطح الأرض من الفقارة توزع بحسب المساهمين فيها[30]. فتقسم مياهها في عدة سواقي بحسب ملكية كل شخص لينتهي الماء

---

28 - Lettre De Mr Zaouche Chef Du C, A, ,S De Zaouiet Kounta A Mr Le préfet De La Saoura Division Economique Et Sociale .Colomb béchar Le 28/11/1960 L opjet De La Lettre Portait sur La : Ommission Des Foggaras .'

29 - أنظر صورة لفقارة من فقاقير توات.

30 - أنظر : مخطط توزيع المياه المتعارف عليه باقليم توات.

بالماجن المبنى من المادة الطينية وعادة ما يأخذ شكلا مستطيلا تزيد مساحته أو تنقص حسب كمية الماء وهو موجه للأغراض الشخصية[31].

هذا وقد ترتب عن التقاليد المحلية لدى التواتيون أن أصبحت الفقارة عمل جماعي يعكس صورة للمجتمع في التعاون فحق الانتفاع من مياه الفقارة مضمون لكل سكان القصور التواتية بدون تمييز سواء كانوا ملاكا أو سكانا فالمالك ينتفع من كنية الماء المخصصة له والتي توجه مباشرة من القسرية إلى الماجن وله الحق في توسيع بستانه عند توفر الماء وملائمة الأرض، أما المقيمون بالقصر فلهم حق الانتفاع من مياه الفقارة في الاستعمال الشخصي من شرب وتنظيف وغيره[32].

مقابل ذلك فكل أفراد القصر مطالبون بالمساهمة في الأعمال الجماعية الخاصة بالفقارة لا سيما أثناء حدوث الكوارث الطبيعية التي تؤدي إلى هدم الفقارة وانعدام الماء وقد جرت العادة على أن يتم العمل بسرعة فيطالب السكان بالعمل الجماعي المعروف بالتويزة فكل فرد ملزم بتأدية عمل يناسبه، فالأعيان يراقبون العمال ويوجهونهم، أما النساء فمهمتهن طبخ الطعام وإحضار الماء، أما الحرفيون فيهيئون ويصلون أدوات العمل من فؤوس ومعاول فيستمر العمل لمدة يوم أو يومين إلى أن ترجع المياه إلى مجاريها، وأما كان العمل يتطلب أعداد إضافة من العمال فعادة ما يستنجد سكان القصور بسكان القصور المجاورة ليشاركوهم العمل حتى تعود مياه الفقارة إلى التدفق من جديد، أما المتغيبون من السكان فيدفعون مقابلا ماديا لجماعة القصر ليشتروا بها أدوات العمل.

وعند موسم الحرث تراجع مياه الفقاقير بحضور كيال الماء [33] الذي يمتلك زمام الفقارة [34] يوثق فيه كل عملية تتعلق بالمياه من بيع أو كراء أو قرض للماء، فالماء

---

31 -Elye (sqinte - narie) Le Commerce Et L'agriculture Au Touat Société De Géographie De L'province D'oron, T, 24 ,1904, P, 381.

32 – أنظر : صورة لمجرى فقارة بتوات.

33 – كيال الماء : شخص من أعيان القصر توكل له هذه المهمة فيقوم ماء الفقارة عند كل بيع أو شراء أو اقتراض للمياه وله عائد من هذه الوظيفة بإقليم تيدكلت قصعتين من التمر وقليل من القمح والذرة عند كل موسم فلاحي.

34 – زمام الفقارة عبارة عن سجل يبين تاريخ بداية الفقارة وعدد المساهمين فيها تدون فيه عمليات البيع والشراء والإقتراض فهو مهم من الناحية الإقتصادية لكونه يعكس ثمن حبة الماء وكمية مياه الفقاقير عند جريانها.

خائض لقانون العرض والطلب[35] هناك شروط طبيعية يجب أن يراعيها كيال الماء قبل إجراء أية عملية حسابية تساعده على دقة الكيل اذا يختار اليوم الذي ليس به رياح أو حر شديد حتى يحضر جماعة القصر إجراء عملية الكيل بواسطة صفيحة من الناس تسمى محليا بالشفقة.[36].

ونظرا لإنتشار الفقاقير بإقليم توات باعتبار أن الفقارة الوسيلة الوحيدة للسقي فان عددها اليوم يصل في منطقة توات الى أكثر من 800 فقارة ولأهمية هذا المورد عبر الزمن مازال السكان الى اليوم خاصة في مناطق توات الوسطى يشقون فقارات جديدة وتحظى بالصيانة من طرف الدولة والملاك ويحتوي هذا الموروث الثقافي الإقتصادي على المصطلحات الخاصة نوردها في الجدول التالي :

المصطلح	شرحـــــــه
الفرع أو الكراع	- قد تبلغ الفقارة منتهى الإرتفاع قبل الحصول على كمية الماء المرغوب فيه، أو يصعب الحفر في الإتجاه المستقيم للفقارة فيضطر الخبير الى توقيف الامتداد، فيخطط سلسلة آبار أحد جانبي الفقارة تسمى (الكراع).
تابجوط	- في بعض الأحيان يعترض العمال أثناء الحفر حجر صلب فيضطرون لفتح ثقب صغير بالحجرة المعترضة فينفذ منه الماء ويسمى ذلك (تابجوط).
أغوسرو	- عند اقتراب ماء الفقارة من أراضي الزراعة يمر بآبار قريبة من سطح الأرض تسمى هذه الآبار أغوسرو.
الساقية	- وهي ممر يمر به الماء إلى مدخل القرية أين يتم توزيعه
القسري	- هو عبارة عن ممرات مستطيلة تتحت بعناية وحسابات على قطعة حجر مستطيلة تسمح بتوزيع الماء حسب الحصص المطلوبة وينصب القسري عند نهاية الساقية.

35 -Elye (S E);Op.Cit ,p 38.

36 - الشفقة : صحيفة من نحاس مستطيلة الشكل بها ثقب مقعرة بمختلف الدوائر تستعمل في قياس ماء الفقارة شكلها دائري بإقليم تيدكلت ومستطيلة بزاوية كنتة.

الحلانة	– هي آلة قياس الماء وهي صفيحة معدنية مستطيلة بها ثقب دائرية الشكل بأحجام مختلفة وفي بعض الجهات تسمى الصبارة، الشققة.
وحدة قياس ماء الفقارة	– الوحدة الأولى تسمى قيراط نحاس وتقاس بالحلانة ويتم بها قياس إجمالي ماء الفقارة. – الوحدة الثانية لها عدة أسماء حسب المناطق : الماجل، الحبة، الصع بهذه الأخيرة تعد حصص الأفراد، والماجل تجزأ الى 24 جزء كل جزء يسمى قيراط والقيراط بدوره يجزأ إلى 24 جزء ويسمى قيراط القيراط، والقيراط الكبير يكون صحيحا أو كاملا كلما كان ماء الفقارة غير ناقص من أصله وينقص كلما نقص ماؤها.
النافوخ (بمعنى التضخم)	– قد يظطر أرباب الفقارة إلى بيع كمية من مائها بهدف صيانتها لزيادة مائها وهذا التغيير يمس الجميع لأن الفائدة من ورائه قد تهم الجميع فتباع مثلا المواجل من أصل الماء فتحسب للمشتري دون أن يتغير العدد الأصلي هذه العملية تسمى بالنافوخ وهو زيادة عدد العمي.
الكيال	– هو رجل امين خبير بأسرار الماء يجيد الحساب والخطوط المختلفة يكلف بعمليات توزيع وتقسيم الماء بمساعدة أرباب الفقارة
الخبير	– يتدخل عادة عند إحلال عطب بالفقارة، لان الماء ينقص من جراء سقوط أجزاء منها وعموما ان مياه الفقاقير تنقص سنويا بمعدل06% ولذا يستوجب تدخل الخبير لمعالجة التغيرات والضرر ومن مشاهير المنطقة التواتي الكبير الشاذلي الأوشاني الذي عاش إلى أواخر القرن 13 هـ.
الزمام	– وهو السجل الذي تقيد فيه عمليات التوزيع والكيل ويعرف بجريدة الفقارة.

37 – لمزيد من الإطلاع أنظر :

capitaine) Les Foggaras Du Tidikelt Travaux De L Institut De Recherches Sahariennes (Alger) ,T ,11 2e Semes ? Tre 1954 ,P142 ,143 .'Lo (

2 - كنتة وحركة التصوف ونشاط الطرق الدينية

انتشر التصوف في المغرب الإسلامي مع نهاية حكم الموحدين، وعرف توسعا وانتشارا في بلاد السودان في العصور التالية، وقد عزز ذلك التبادل التجاري والإحتكاك الثقافي بين حواضر المغرب، وخاصة تلمسان وفاس وحوض نهر النيجر في عهد الزيانيين والمرينيين والسعديين وحكام الجزائر في العهد العثماني، وقد سار في وسط الصحراء بين الكنتيين، فتأثروا بحركة التصوف الآتية من الشمال، وتفاعلوا مع الطرق الدينية التي انتشرت في الجنوب وقد كان لكل من الطريقتين : القادرية والتيجانية دور كبير في ذلك، وقد ساهم شيوخ كنتة في تعميق الطريقة القادرية خاصة في أوساط السكان وفي نشرها خارج بيئتهم الصحروية، وفي طبعها بطابع خاص من حيث الأوراد، والذكر والحلقات فالطريقة القادرية[1] وصلت إلى إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر ميلادي وقد قام بالدعوة لها بمنطقة الأزواد الشيخ سيدي المختار الكبير وأدخلها إلى السنغال الشيخ سيدي أحمد البكاي[2].

لقد تناول الكنتيون الطريقة القادرية في العديد من مخطوطاتهم، ويعتبرون أنفسهم مرتبطين بعبد القادر الجيلاني من ناحية الذكر، لهذا ظهر منهم مشايخ

أتصفوا بالكمال من الناحية الدينية والروحية، فحازوا على المراتب بين قبائلهم فأوكلت لهم مهمة الإشراف على الطريقة لينسقوا بين المردين، ويحيوا المناسبات ويدخلوا الطريقة القادرية العديد من الاقطار، فقد أستطاعوا عن طريق تكوين

---

1 - تنسب الطريقة القادرية إلى الولي الصالح الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني نسبة إلى موطنه في منطقة جيلان بفارس حيث ولد عام471هـ - 1077م عرف ببغداد حيث استقر سنة 489 هـ1095-م، وتعلم على علمائها مثل السعيد المحرمي وقد اشتهر أمره بين الناس، واعتكف للعبادة حتى وافته المنية سنة 560هـ - 1166م وقد ترك كتبا في التصرف منها : فتح المغيث، والفيوضات الربانية، انتشرت طريقته في شمال إفريقيا وفي الأزواد عن طريق الكنتيين
أنظر :أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ط4.ج06. القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ ص211.

2 - الدكتور صمبا (عامر)الأدب السنغالي العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٨، ج١، ص٣٣.

(مقدمين)مهمتهم نشر الطريقة حسب ما جرت بـه العادة التي تكلف المقدم أو خليفته بالعمل مباشرة بعد ما يستلم السجادة أو السبحة أو العكاز الشيخ الذي يأخذ عنه الورد[3] ولقد انقسم شيوخ كنتة المرتبطون بالطريقة القادرية إلى قسمين:القسم الأول يتألف ممن كانوا يحظون بسمعة كبيرة لدى العامة، تنسب لهم كرامات وأقوالاً كانت محل تصديق الجميع، وقد جمع أصحاب هذا الصنف من شيوخ القادرية الكنتيين بين التصوف والتأليف والتعليم والفتوى، ولهذا نجدهم قدموا أعمالاً جليلة في الدعوة للطريقة القادرية بالمناطق التي عاشوا بها، والمحاذية لهم مثل الشيخ سيدي المختار الكبير الذي عرف بعلمه وتآليفه العديدة في علوم الشريعة، وتعمقه فيالطريقة القادرية فقد ألف فيها كتابة سماه (الكوكب الوقاد) ونظرا لأهيته في الطريقة قال فيه : ((يجب ان يسمى بأسماء عديدة وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى)) تناول في بدية مخطوطه أسس الطريقة القادرية ومؤسسها (عبد القادر الجيلاني وتناول كراماته، ومزايا ورده بالإضافة إلى فضل الأذكار وأهميتها في الحياة الدنيا والأخرة، فالورد القادري متصل بالسلسلة النبوية وذلك لما أظهر عبد القادر الجيلاني من كرامات وصل إليها عن طريق تربية النفس المرتكزة على الإذلال،

القلب، والتذرع بالجوارح والإبتعاد عن الناس والتقرب إلى المولى عز وجل بالأذكار والأوراد المعلومة في الورد القادري[4].

هذا ولقد ترك سيدي الشيخ المختار الكبير العديد من التصانيف في الأذكار، أبرز من خلالها مناهج التربية الصوفية السلمية – كما يراها هو – تلك المبنية على عنصر المحبة ويقسمها إلى قسمين رئيسيين : المحبة المفروضة، وتتمثل في الامتثال لأوامر وعدم ارتكاب المعاصي، وأي تقصير في الواجبات معناه الوقوع في المحرمات والتقصير في العبادات، فعلى كل مبتدئ ان يوازن ما بين الناحيتين

3 – الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار الكبير، الطرائف والتلائد، زاوية كنتة المكتبة الكنتية ص184.

4 – الشيخ سيدي المختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وحقائق الأوراد ،أقبلي المكتبة العقباوية، ص112.

حتى يستطيع إدراك المحبة المفروضة والقسم الثاني المحبة المندوبة التي يصلها كل من حقق القسم الأول (المحبة المفروضة) وأعطاها جميع حقوقها، عندها يدخل المريدون في المرحلة الثانية في المحبة المرتكزة على القيام مع الواجبات مع الإكثار من النوافل والإنتهاء والإقلاع عن المحزمات جميعها مع عدم الوقوع في الشبهات.[5]

وبهذا خلق الكنتيون ثورة ثقافية كبيرة في علم التصوف تتمثل في القصائد والرسائل والمخطوطات، وللشيخ سيدي المختار الكبير قصيدة في سلسلة القادرية ونازلة في التصوف وإجازة في الأوراد والأحزاب وإجازة في الورد ورسالة إلى أحد مريديه، علماً بانه تناول هذا اللون الديني في معظم مخطوطاته ن وقد نهج على منواله الشيخ سيدي محمد الذي ترك إجازة في الأوراد والأحزاب القادرية ومخطوطاً في الأدعية والأذكار وقصيدة الابتهال وجوابا على ثلاث مسائل في الورد القاري، وقصيدة في الأدعية والتوسل، وبهذا فقد تفاوت هذه المصنفات في محتوياتها، وعدد صفحاتها إلا ان القاسم المشترك بينهما أضافت تراثا روحيا جديدا لهذه الطريقة العريقة، المنتشرة في الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا

والقسم الثاني من شيوخ كنتة المرتبطين بالطريقة القادرية، يضم الصلحاء من الشيوخ الذين اشتهروا بالزهد في الحياة وكثرة الأذكار، وخدمة العامة، ولهم كرامات مقومات، وأكتفوا بالعبادة والأوراد، ولم يتركوا مؤلفات في الميدان الادبي والفقهي وأنها خلدت أسماؤهم في الذاكرة الشعبية بتوات، والأوراد نظراً لما اشتهروا به من اعمال خيرية قاموا بها للصالح العام، وأفنوا حياتهم في الزهد وضحوا بآمالهم، وأعمارهم في سبيل إصلاح ذات البين وإغاثة الفقراء والمحتاجين في الزوايا التي أسسوها وساهموا في تسييرها لتؤدي دورها الخيري لكل المسلمين وابناء السبيل، وبعد وفاتهم خلدت قبورهم بأضرحة (وزيارات) سنوية يتوافد عليها الناس قاصيهم ودانيهم من ابناء منطقة وتوات، وهكذا نجد اليوم ضريح الشيخ سيدي المختار بن

5 – الشيخ سيدي المختار الكبير، الجرعة الصافية ن اولف، مكتبة الشيخ باي للعلم،ص١٦.

محمد بن عمر بلوافي بقرية (القصر الجديد) ونجد في زاوية كنتة ضريح أحمد بن محمد المعروف بالرقاد، وفي قصر زاوية اقبلي ضريح الشيخ سيدي امحمد بونعامة شيخ الركب وهم كثيرون بإقليم توات.

هذا وحتى نتعرف على مساهمة الكنتيين في حركة التصوف من خلال نشاط الطريقة القادرية يجدر بنا إلى ما كان يتوجب توفيره في المريد والطريقة الورد القدري الذي أخذ به شيوخ كنتة، فالمريد القادري حسب ما سجله شيوخ كنتة عليه ان يتحلى بسلوك و آداب الطريقة المتمثل في اربعة أشياء :إتباع الرسوم- وترك الأغراض - ودوام الملازمة-والسعي في أغراض، فهذه الأسس الأولى للطريقة القادرية يمارسها كل مريد في حياته اليومية، بها يعرف مقدار صبره ومدى انضباطه، ثم بعدها يتدرج ويمتحن بالأذى، والإكرام، والإساءة والإحسان، فعليه أن يقابل الأذى بالصبر و الإكرام بالثناء، و الإساءة بالعذر والإحسان بالمرافقة عندها يكون مريدا مخلصا تتجسد فيه معالم طريقته، فيصبح يدعى فيستجيب، ويؤمر فيطيع، وفي المناسبات (يحضر) م عند التبرعات يدفع، و يجمع، والانتقال من درجة إلى أخرى في علم التصوف مرتبط بشيخ الطريقة القادرية فقد تناولها معظم المشايخ ورجال التصوف الكنتيون قبل الشيخ سيدي المختار الكبير والشيخ باي الكنتي ولمقدمي الطريقة أوراد معينة يأتي بها المريد مرة في اليوم والليلة يكون حين أدائها طاهرا و مستقبلا القبلة.

ويتشكل الورد القادري من عدد معين من الركعات، يقرأ في أولها فاتحة الكتاب مع سورة محددة، بعد التسليم من الصلاة يقرأ آيات معينة من القرآن، و يصلي على النبي، ويدعو دعاء عاما، يخص في نهايته مؤسس هذه الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني وعندها ينتهي الورد ومن مزايا ورده أنه يغني عن جميع الأوراد و لايغني عنه أي ورد[6] وذلك عملا بنصيحة الشيخ باي الكنتي الذي يقول : ((فلنتمسك بالسلسلة القادرية، لأنها من أعظم الأوراد، وإن من أعظم فوائدها أن القائم بشروطها يموت على أحسن خاتمة))[7].

6 - ماء العينين، فتح البدايات وتوصيف النهايات، القاهرة، شركة الطباعة الفنية المتحدة ص 204.

7 - الشيخ باي الكنتي، النوازل زاوية كنتة، المكتبة الكنتاوية، ص 831.

ويعتبر الورد القادري من أوراد الطرق الصوفية التي يتبع مريدوها الكيفية التالية في عبادتهم، يقرؤون في الركعة الأولى ((الكوثر)) ستا و في الثانية ((الكافرون)) ستا وفي الثالثة ((الإخلاص)) ستا و في الرابع ((المعوذتين)) مرة و في الخامسة آية الكرسي و في السادسة ((لو أنزلنا هذا القرآن)) مرة و يذكرون في السجود، قوله تعالى ((ربي اشرح لي صدري و يسر لي أمري)) ثم يقولون ((اللهم أني أستودعك ديني و إيماني، فاحفظهما لي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي)) رحمة أنت أول للأولين والثاني للوسطين والثالث للآخرين، كما سجل أتباع الطريقة القادرية ما حث عنه الرسول - صلى الله عليه و سلم - عمه العباس في صلاة التسبيح و أخبره أن مصليها يغفر له ذنبه صغيره و كبيره أوله وآخره و هي أن يصلي أربع ركعات في كل ركعة يقرأ الفاتحة وسورة ويقول بعد قراءة السورة سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر خمسة عشر مرة في كل ركوع و الرفع منه و في كل سجود و الرفع منه و بعد السجدتين في كل ركعة عشرة ومن نسي بعض ذلك جاء به في الركن الذي بعده و إن شاء الله سلم من الركعتين وإن شاء الله لم يسلم وهذا المتبع، وليس لصلاة الشيخ وقت معين بل تصلي في كل وقت يجوز فيه النفل من الليل والنهار، وبعضهم يستحب صلاتها عند الزوال من يوم الجمعة هي مستحبة في كل جمعة وإن تعذر في كل شهر أو في كل سنة أو مرة في العمر و لها أحكام كثيرة.

واستحب بعضهم القراءة بـ (ألهاكم) في الأول و(العصر) في الثانية، و(الكافرون) في الثالثة و (الإخلاص) في الرابعة، و يقول في الركوع، سبحان ربي العظيم وبحمده ثلاثاً، وفي المسجد سبحان ربي العظيم الأعلى ثلاثا من التسبيح المعروف فيهما ثم يدعو بهذا الدعاء قبل أن يسلم وهو ((اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى وأعمال أهل اليقين، ومناصحة أهل التوبة، وعزم أهل الصبر وحزم أهل الخشية، وطلب اهل الرغبة، وتعبد أهل الورع، وعرفان أهل العلم حق أخافك، اللهم إني أسألك مخافة تحجزني عن معاصيك)) [8] هذا ومن مميزات الطريقة القادرية في وسط الكنتيين،

8 - الشيخ باي الكنتي، نفس الصدر، ص ١٨٢

أنها كانت تتحاشى ما كان شائعا، فتمتنع رفع الأصوات عند الذكر الجماعي[9] فتتم عملية الأذكار عند التقاء المريدين بطريقة هادئة، سواء كانت فردية أم جماعية تحت إشراف مقدم الطريقة.

و لقد كثر الدعاة القادريون من الفقهاء والمعلمين بين الشعوب السودانية حيث كانوا يدعون إلى العلم وخاصة الوثنيين الذين رحبوا بهم باعتبارهم فقهاء ومتعلمين[10] كما نزح عدد من دعاتهم للقيام بمهمة الدعوة إلى الشعوب الوثنية وقد نجحت هذه الطريقة بانضمام أمراء ماسينا إليهم الذين اتخذوا من الكنتيين مستشارين لهم فقدموا لهم خبرتهم و ثقافتهم الدينية، لهذا حسب الزنوج أنفسهم بأنهم جزء من الأمة الإسلامية، واكسبوا الشعور بالثقة في النفس وساهموا في الدفاع عن الطريقة القادرية.

9 - الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، الطرائف، ص 184.

10 - قداح نعيم، حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربي، ط٢ الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1975، ص 84.

قائمة المصادر و المراجع

1- شلبي (أحمد) موسوعة التاريخ الاسلامي و الحضارة الاسلامية ط4.ج06، القاهرة مكتبة النهضة المصرية 1983.

2- الدكتور صمبا (عامر) الأدب السنغالي العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1978، ج1، ص 33.

3- الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار الكبير، الطرائف، زاوية كنتة المكتبة الكنتية.

4- الشيخ المختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ و حقائق الأوراد أقبلي المكتبة العقباوية.

5- الشيخ المختار الكبير، الجرعة الصافية، أولف، مكتبة الشيخ باي بلمعالم.

6- ماء العينين، فتح البدايات و توصيف النهايات، القاهرة، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

7- الشيخ باي الكنتي، النوازل زاوية كنتة، المكتبة الكنتاوية.

8- قداح نعيم، حضارة الاسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ط2 الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1975.

الفصـل السادس

السكان والنمط العمراني، ومظاهر الحالة الإجتماعية والعلمية لمدينة تمنطيط

I- السكان والنمط العمراني:

1- التركيبة الإثنية للسكان : لقد شكلت تنمطيط مجالا مفتوحا، أمام هجرة العديد من القبائل العربية والبربرية واليهودية الوافدة إليها عبر أزمنة مختلفة، إذ لم يمض وقت على توطنها حتى بدأت ملامح المجتمع تتشكل رويدا رويدا، بامتزاج العناصر الثلاثة، يهود، عرب، بربر والزنوج الذين أدخلوا كعبيد في بادئ الأمر.

1-1 – اليهود : من أقدم المهاجرين فعلى ما يذكر يعقوب اوليل «Jacob Aleil»، وصولهم سبق الهجرة بأربعة قرون، [1] وظلوا لفترة طويلة من تاريخ المدينة يمثلون الطبقة الأرستقراطية بحكم تحكمهم باقتصادياتها وسيطرتهم على حركة التجارة والأسواق ففي مجال صياغة الذهب لوحده كان هناك ما يفوق ثلاثمائة وستون [2]، صائغا يهوديا، نهيك عن المجالات الحرفية الأخرى، كصناعة الصابون والفضة.....الخ، ومع تنامي القبائل العربية والبربرية، التي جاءت إلى تمنطيط بعد الإسلام كثرت المناوشات بينها وبين اليهود مما حذا ببعض القبائل اليهودية كقبيلة أولاد نسلام [3] إلى اعتناق الإسلام تجنبا للمشاكل والحروب، وقد بقي اليهود يهيمنون على الحياة الاقتصادية إلى أن أجلهم الشيخ المغيلي عن المدينة في أوائل القرن العاشر هجري [4].

---

1 - aleil .cp.cit .p 15.

2 – بابا حيدة، المصدر السابق، ص 3.

3 – بكري، (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 20.

4 – البكراوي، المصدر السابق، ص 13.

بعد خروجهم ورحليهم نهائيا أسقطوا من التركيبة الإثنية للمجتمع التمنطيطي، و بفعل الامتزاج الحاصل بين العناصر الثلاث المتبقية بربر، عرب، زنوج وعلى مر الزمن تمت الصياغة النهائية للتركيبة الإثنية للمجتمع على النحو الأتي :

2- 1 – الشرفا: تتربع على قمة الهرم الاجتماعي، وينحدرون من الأسرة العلوية بالمغرب الأقصى، ويرجع نسبهم إلى آل البيت لهذا فهم يحظون باحترام وتقدير ومحبة باقي الطبقات الاجتماعية لأنهم كانوا يرون في طاعتهم ومحبتهم والولاء لهم طاعة ومحبة وولاء لرسول (صلى الله عليه وسلم) والخروج عنهم هو الضرورة عنه، مصادقاً لقوله صلى الله عليه وسلم :(من أبغض أهل بيتي فهو منافق)[5] إذاً الانتساب إلى آل البيت أكسبهم مكانة اجتماعية عالية، فأغلب بساتين المدينة بأيدهم، وهم أهل الحل والعقد والمشورة، يسهمون في حل الخلافات والخصومات وإصلاح ذات البين، ويقدمون في الأعياد والمناسبات الاحتفالية، وباعتبارهم سادة وأشراف وأغنياء المدينة فمهمة إيواء وإطعام الضيوف وعابري السبيل كانت ملقاة على عاتقهم بحيث يستقبلونهم في دار تسمى دار الزاوية [6] تم بنائها خصيصا لهذا الغرض، فبمجرد وصول الغريب إلى المدينة يقصد القصبة مقر الشرفا ويسأل عن هذه الدار ليتوجه إليها مباشرة فالأمر أشبه ما يكون بفندق ولكن دون أن يدفع النزيل أجرا لقاء استضافته، وفي الغالب كان أمر إدارتها يوكل إلى الوقاف وعلى ما يبدو كان هناك نماذج مصغرة لهذه الدار على مستوى كل قصر (القصبة). وفي عهد السلطان المغربي المولى سليمان وبناء على طلب منه أجري إحصاء لشرفا المدينة سنة 236هـ وقدر الرقم بحوالي 1076[7] شخص يمثلون شرفاء تمنطيط وفنوغيل وتدمايت جملة واحدة.

ومن أشراف المدينة قبيلة أولاد علي موسى وهو ما ذهب إليه الشيخ عبد الكريم بن أحمد صاحب تأليف « مزيل الجفا في نسب بعض الشرفاء » وعضد قوله الشيخ محمد البركة أحد أكبر وأهم نسابة المدينة وقد تمكن هذا الأخير من وضع شجر

---

5 – أحمد (عبد الكريم)، مزيل الخفا في نسب بعض الشرفاء، 23 ورقة، خزانة بومدين، ص 2.

6 – الايدريسي، المصدر السابق ص 34.

7 – العماري، المرجع السابق ص 33.

توضح النسب الشريف لأولاد علي بن موسى بفروعها الثلاث أولاد الحاج محمد، أولاد باعمر، أولاد باحمو.

أولا: أولاد باحمو :

ينتسبون إلى محمد البركة بن الحاج محمد بن عبد الرحمان بن الطيب بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمان بن الحاج محمد السالم بن أبي القاسم، ابن يوسف بن أعمر بن علي بن موسى بن يوسف بن مامة بن عيسى بن عبد الرحمان بن علي المكنى بأبي يعلى بن إسحاق الملقب بعبد العلا بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو عمهم بفجيج يقال لهم المناصريون أولاد محمد بن أحمد بن محمد ابن المنصور بن باديس بن علي بن عثمان بن علي الخلوفي بن ودنان بن لومان ابن يداس بن مناصر بن عيسى بن عبد الرحمان[8]

ثانيا : أولاد الحاج محمد :

وينسبون إلى محمد بن الحاج الحسن بن سيد العربي بن الحاج محمد بن الحاج الصديق بن أبي مدين أبي بكر الحاج محمد بن الحاج أبو بكر عبد الله بن علي ابن الشيخ أعمر بن عبد الرحمان بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف بن محمد ابن علي بن موسى بن يوسف بن محمد بن مامة بن عيسى بن عبد الرحمان بن علي بن المكنى ابن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[9].

ثالثا : أولاد باعمر :

ويرجع نسبهم إلى الحاج عبد الكريم بن الحاج سالم بن محمد بن عبد الغفار بن عبد المالك بن عبد الله ابن اعمر بن محمد بن اعمر بن عبد الرحمن بن يوسف بن أبي

8 - البركة (الحاج محمد)، شجرة أولاد علي بن موسى، 3 ورقات، محجوبي عبد العزيز، ص 3.

9 - نفسه، ص 3.

القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن موسى بن يوسف بن مامة بن عيسى بن عبد الرحمن بن علي المكنى بأبي يعلا بن إسحاق الملقب بعبد العلا بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إدريس أبن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن علي. رضي الله عنه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.[10]

وهناك من يشكك في صحة انتسابهم إلى آل البيت مع أن مكانتهم الاجتماعية الرفيعة المميزة داخل المجتمع التمنطيطي ودورهم السياسي البارز في قيادة البلاد لعدة سنوات وكرمهم ونبل أخلاقهم يدل على همتهم وعلو شأنهم يقول بابا حيدة : « لا شك ولا ريب وأن همتهم وحالتهم ومروءتهم تدل على علو نسبهم لأنهم وأن لم يكونوا شرفاء فهمك من أكابر الناس دلت على ذلك حالتهم وسيرهم فهم أهل سنة ومروءة ورياسة»[11].

3- 1- المرابطين : تحتل هذه الطبقة المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي[12] يتمتعون بوضع اجتماعي ومادي مريح ولهم نصيب في البساتين ومياه الفقارات، دورهم لم يكن سياسي بقدر ما كان دينيا، فهم أهل علم وصلاح وتقوى، نذكر منهم على سبيل التخصيص عائلة البكريين وهي عائلة مشهورة بتمنطيط أمدت المدينة بكثير من العلماء[13] والفقهاء، أحفادهم مازلو إلى حد الساعة يقطنون بموضع يعرف باسم جهة المرابطين ويشرفون على الزاوية التي أساسها أجدادهم، ومنهم أيضا عائلة الشيخ سيدي محمد بن عمر والذي يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب وكان هو أول من أدخل الزاوية الطيبية إلى المدينة، وعلى ما يبدو حملهم لواء العلم وحماية الدين أكسبهم ود وحب واحترام كل الطبقات حتى الأشراف، وكان يحق لهؤلاء المرابطين الاستقرار في القصبة إلى جوار الشرفاء[14] فمن الواضح بأن

---

10 - نفسه، ص 3.

11 - البركة، المصدر نفسه، ص 14.

12 - مقدم، الاستيطان، ص 16.

13 - بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 12.

14 - مقدم، الاستيطان، ص 17.

القصبة في عرف المجتمع التمنطيطي كانت تعبر عن المركز والوضع الاقتصادي والاجتماعي لساكنيها.

4- 1- الأحرار : يمثلون الطبقة الوسطى في المجتمع،[15] قلاهم من الطبقة الأرستقراطية (الشرفا، المرابطين) ولا من الطبقة الفقيرة الزنوج (أي الحراطين)، وقد تشكلت من أولئك الأفراد الدين تم تحريرهم وعتقهم من قبل أسيادهم (الشرفا والمرابطين)، ولا توجد قرائن تاريخية تدلل على نسبهم، ما إذا كانوا عرب أو بربرا، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الأحرار مولدين فأباهم من فئة الشرفا والمرابطين، أما أمهاتهم فمن الجواري اللاتي كن مملوكات لأحد الطبقتين، ولم تكن هذه الطبقة مجردة تماما من الأملاك فهي كانت تستحوذ على بعض البساتين ولكن لم يكن ما تملكه في ليقارن بما تملكه الطبقتين الأوليتين،حتى أماكن إقامتهم كانت منفصلة عن أماكن إقامة الشرفا والمرابطين، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة، أما ميدان نشطاهم البارز فكان التجارة[16].

5-1-الحراثين أو الحراطين : تمثل الطبقة الدنيا في الهرم الاجتماعي جيء بأجدادهم الأولين كعبيد من بلاد السودان للقيان بخدمة الشرفا والمرابطين[17]، فعلى عاتقهم تقع مسؤولية زراعة البساتين ورعي الحيوانات وحفر الفقاقير وبناء المنازل كما يشتغلون في قطاع الحرف والأشغال اليدوية كالحدادة والأواني الطينية،[18] ونسائهم يقمن بأعمال المنزل من طهي وتنظيف كما يساعدن الرجال في البساتين خاصة في أوقات جني التمور والحصاد، ويتكفل السيد بتأمين طعامهم وشرابهم ولهم أحياء خاصة بهم تسمى جهة الحراثين[19].

---

15 - فرج، المرجع السابق، ص 13.

16 - مقدم، الاستيطان، ص 16.

17 - المرجع السابق، ص 13.

18 - بابا حيدة، المصدر السابق، ص 8.

19 - عبد الله (عباس)، التأثيرات الحضرية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي، مذكرة السنة الأولى ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف موسى القبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية (1997- 1998م)، ص 31.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن لفظ حرثاني مشتق من لفظ أحرطان بالبربرية ومعناه هجين بالعربية[20]، و البعض الآخر فسر الكلمة وفق معناها الحرفي، فالحرثاني تعني حر ثاني أي أنهم نصف أحرار، كانوا ثمرة العلاقة الحاصلة ما بين الجواري الزنجيات وأسيادهن من الأحرار[21].

وقد كان التواصل بين الطبقات الأربع في البداية يتم بواسطة اللهجة الزناتية [22]، ولكنها تراجعت لصالح العربية الممزوجة بالكثير من المصطلحات البربرية. ويتضح من خلال عرضنا للتركيبة الإثنية للمجتمع التمنطيطي إن تقسيم المجتمع كان يتم على أساس عرقي وديني، ولا نقصد بالديني الملة لأن كل سكان المدينة مسلمون بعد جلاء أهل الذمة من اليهود عنها، وإنما عنينا بالديني الإنتساب إلى آل البيت فكان هذا هو العامل الأساسي لتبجيل الشخص وتعظيمه ورفعه إلى أعلى قمة الهرم الاجتماعي، والطبقية أيضا ملامحه جد واضحة ففي أعلى الهرم توجد طبقة تمتلك كل شيء المال والجاه، وأخرى في أسفل الهرم محرومة من كل شيء.

II- النمط العمراني:

كانت القصور والمباني مشيدة بشكل يتناسب وطبيعة المنطقة وظروفها المناخية القاسية، ومجهزة بمختلف التحسينات الدفاعية والوقائية، وهي نوعين قصور مبنية على صخور مرتفعة لدواعي أمنية، كقصر أولاد أهمالي وتايلوت وأخرى على أرض منبسطة ومحاطة بخندق كقصر أولاد علي بن موسى وأولاد أمحمد، وفي كلا النمطين نجد القصر مسيج بأسوار مرتفعة به ثقوب تستخدم للدفاع عن النفس عندما يكون هناك غزو من قبل إحدى القبائل المعتدية، وهو أمر كان شائع الحدوث في تلك الفترة، كما زود السور في أركانه الأربع بأبراج عالية للمراقبة [23].

---

20 – الصديق، المرجع السابق، ص 44.

21 – نفسه.

22 – بوعلاقة، المرجع السابق، ص49.

23 – مقدم، الاستيطان، ص 32.

وكان لكل قصر مسجد ومقبرة خاصة وبوابة رئيسية تغلق في الليل وتفتح في الصباح، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القصور كانت مستقلة عن بعضها ولكل منها كيانه وتمثيله الخاص مع أنهم في النهاية يجتمعون تحت سلطة زمنية وروحية واحدة.

وعلى العموم فالقصور في مجملها كانت تشترك في طابعها الهندسي العام، وفي المواد المستخدمة للبناء والمكونة من أحجار أغارف وجذوع النخل التي تستعمل لتسقيف المنازل ولصناعة الأبواب ويمكن إن نميز في القصر ما يلي :

1-المسجد :

أهم عنصر في القصر وأول ما يتم إنشاؤه بعد الاستقرار مباشرة، تراعى فيه البساطة والتقشف [24] يحتوى على طابقين سفلي يستغل في أوقات البرد وعلوي في أوقات الحر كما يحتوي أيضا على محراب وصومعة قليلة الإرتفاع كبقايا صومعة مسجد سيدي سالم العصنوني بقصر غمر اقبور، ولكن ما يشد انتباه الزائر لبقايا مسجد سيدي سالم العصنوني أو ضريح سيدي محمد والذي كان في الأصل مسجدا هو الوضعية التي بني المحراب عليها، فارتفاعه قليل بحيث انك عندما تدخله لن يكون بإمكانك الوقوف مستقيما وإلا ارتطم رأسك بالسقف، و إلى جانب الوظيفة الدينية للمسجد كمؤشر لقلة القوم أو كثرتهم،و مقايس لقوتهم أو ضعفهم يقول بابا حيدة : « ... و قصر القوم ومسجدهم يدل على عددهم من قلة أكثرة لان الناس لا تبني إلا على قدر عددها غالبا ». [25]

2-المنازل :

كان الناس يبنون منازلهم بطريقة بسيطة معتمدين على مواد محلية وهي أحجار أغارف يجلبونها من منطقة السبخة شمال المدينة، وتمتاز بصلابتها وقدرتها على

24 – بوعلالة، المرجع السابق، ص 33.

25 – بابا حيدة، المصدر السابق، ص 14.

المكتبة الوطنية ثورة أول نوفمبر 54

امتصاص المياه في حالة سقوط الأمطار، و لسقف يستعملون جذوع النخيل وحتى الأبواب كانت صناعتها محلية من جذوع النخيل، أما الأقفال فصنعت من الخشب تسمى "أفكر"، تتكون من قطعتين منفصلتين تثبت الأولى على الباب الخشبي والثانية في شكل مستطيل عند الإغلاق يدخل جزأ منها في ثقب يتم إحداثه على مستوى الحائط والجزء المتبقي يوضع على قطعة مثبتة على الباب وبهذه الطريقة يغلق الباب من الجهة الأمامية، أما من الجهة الخلفية فيغلق بقفل خشبي اسمه "تقلاب" وجل المنازل كانت تبنى بنمطية واحدة وتتشكل في الغالب من ثلاث مستويات :

1 - 1- **الدهليز:** شبه بسرداب يحفر تحت أرض المنزل مما يجعله باردا، يستغل لقضاء القيلولة في فصل الصيف وكمبرد لحفظ بعض المواد الغذائية من التلف.

2 - 2 - **الطابق الأرضي** : يحتوي على الفضاءات التالية :

1 - 2 - 2 - **فم الدار** : يقصد به المدخل الرئيسي الذي يفضي إلى باقي أجزاء المنزل بني بطريقة متعرجة بهدف كسر زاوية الرؤية من خارج الدار إلى داخلها، حفظاً على حرمة العائلة [26].

2- 2- 2 - **الصالة** : وهي غرفة مخصصة لاستقبال الضيوف والزائرين يحرص صاحبها على وضع مدخلها عند فم الدار لحجب رؤية باقي أجزاء المنزل الأخرى.

3-2-2- **القوس** : غرفة متعددة الوظائف فهي مكان للجلوس ولطهي الطعام، وفي الليل تتحول إلى غرفة نوم.

4- 2- 2- **بيت الحاسي** : وهي غرفة تحتوي على بئر تستخدم مياهه للشرب ولقضاء مختلف الأعمال المنزلية.

---

26 - بوعلالة : المرجع السابق، ص 31.

* قصور : جمع كلمة قصر وهي الأحياء التي كانت تتشكل منه تمنطيط قديما وتعرف في مناطق توات الأخرى باسم القصبة.

** حجارة أغارف : هي أحجار تمتاز بصلابتها كان الناس يستخدمونها في بناء المنازل.

5- 2- 2- **السباط** : رواق ينظم ويجمع أجزاء المنزل مع بعضها البعض.

6- 2- 2- **الرحبة**: باحة تتوسط المنزل عبرها تتسلل أشعة الشمس والهواء ليبدو المنزل أكثر إضاءة وتهوئة.

7- 2- 2- **الزربية** : هي المكان المخصص لتربية الحيوانات داخل المنزل، إضافة إلى وجود الحمام والكانيف (المرحاض).

3- 2- **السطح** : بمثابة طابق علوي يبقى مكشوفا دون سقف، يستغل لنوم ليلا في فصل الصيف، وللاستمتاع بأشعة الشمس الدافئة في فصل الشتاء، وغالبا ما يحتوي على غرفة إضافية، اسمها المنزه [27].

وترتبط الوحدات السكنية داخل القصر بواسطة الزقاق [28]، وهو شارع مغطى بجذوع النخل لإبقاء درجة الحرارة منخفضة في الصيف، و مرتفعة في الشتاء، وعلى أن تترك مسافة معينة دون سقف لدخول الضوء وضمان تجديد الهواء وبعض هذه الأزقة كان محفورا في الصخر، مثل أزقة قصر أولاد أمحمد وتايلوت وأولاد يعقوب وغيرها، وبعضها مجهز بأماكن معدة للجلوس تسمى (الدكانة) مثل أزقة أولاد علي بن موسى، ولزينة كان يتم تبليط الجدار بالطين، وترسم عليه أشكال هندسية قبل أن يجف، وقد تعلق على أسطح المنازل بعض الأشياء كالقدور القديمة أو قرون الماعز، أو حتى حبات من البيض تلصق على الجدران المقابل لفم الدار بهدف إبعاد العين والحسد.

3- المرافق العامة :

1- 3- **السوق** : هو مركز المدينة وقلبها النابض ومحطة التقاء مختلف القوافل التجارية الآتية إلى توات أو المغادرة منها، يمتد على مساحة واسعة في الجهة الشمالية الشرقية بجانب قصر أولاد داود وأولاد إهمالي، وأولاد يعقوب وتايلوت

---

27 - نفسه.

28- Wilaya d'Adrar , commune de Timimoun , élaboration de l'étude réhabilitation du ksar de Timimoun , Adrar , maître de l'ouvrage duc Adrar , (2001, août 2001) , p 16.

ويجبذ أن يكون على مقربة من مخرج المدينة، لتسهيل عملية دخول وخروج القوافل التجارية من وإلى المدينة [29].

2- 3- **الرحبة** : هي ساحة عمومية توجد على مستوى كل قصر، وهي على نوعين مدمجة مع غيرها من الفضاءات المجاورة لها مثل رحبة الزيتونة وبالعود، أو معزولة ر يربطها بهياكل القصر سوى ممر ضيق (الزقاق) مثل رحبة توفاغي وهي فضاء رحب لإقامة الاحتفالات ولعب الأطفال [30].

3- 3- **المقبرة** : تنشأ خارج القصر تمتد على مساحة واسعة، تحتوي ساحة كبيرة لتأدية الشعائر الجنائزية بها أضرحة الأولياء، وتدل أثار المقابر الممتدة على جانبي القصور، بأن أهالي كل قصر كانوا يدفنون في مقبرة خاصة، وتعتبر مقبرة اليهود ومقبرة أولاد باعثمان من أقدم المقابر [31].

4- 3- **الواحة** : تقع شمال المدينة يحتوي على منشآت الري (السواقي، القصرية، الماجن)، وبها تتركز بساتين البلدة لذا فهي المورد الأول والممول الأساسي لسكان.

III - مظاهر الحياة الاجتماعية:

1- العادات والتقاليد :

هي من أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية مستحكمة بصورة كبيرة في المجتمع وليس بوسع أي أحد التجرؤ عليها حتى وإن لم يكن مقتنعا بها، ويمكن أن نلمسها بوضوح في الاحتفالات الدينية كالمولد النبوي الشريف والاجتماعية كالأعراس، فمثلا عندما يحل شهر رمضان يستقبله الناس بالفرحة والسرور، وقبيل الشهر الفضيل تبدأ النسوة بالاستعداد فيطحن القمح والشعير ويفتل الكسكس ويصنع

29 - مقدم، الاستيطان، ص 35.

30 - بوعلالة، المرجع السابق، ص 25.

31 - مقدم، الاستيطان، ص 36.

السمن من لبن الشاة وتذبح الأغنام والدواجن كل حسب طاقته [32]، وخلال رمضان يزداد إقبال الرجال على المساجد فبعد إلا فطار مباشرة يتوجهون إلى المسجد لكي يقراو القرآن جماعة ويستمعون لحديث الديني ويقيمون شعرتي العشاء والتراوح، وفي بعض المساجد كان الناس يتسمعون في رمضان إلى شرح صحيح البخاري، من بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى ومن الظهر إلى المغرب، وختامه يكون في السادس والعشرين من شهر رمضان[33]، وحينما يأتي وقت السحور كان يطوف البراح في الشوارع وينادي بأعلى صوته معلنا بدخول وقت السحور.

أما ليلة القدر فالناس يحيونها بالصلاة وقراءة القرآن في المسجد، إذ يعمد إمام المسجد إلى تجزئة أحزاب المصحف الشريف على عدد الرجال الحافظين للقرآن الكريم، ويحدد نصيب كل شخص بخمسة أحزاب، فيبدأ الإمام بالقراءة من أول سورة البقرة حتى تلك الرسل [34] ويكمل الثاني من حزب تلك الرسل حتى تلك حزب المحصنات [35]، و هكذا إلى أن يختم المصحف مع طلوع الفجر.

وأهم ما يميز احتفالات عيد الأضحى وعيد الفطر، جلسات الحضرة الخاصة لمدح رسول صلى الله عليه وسلم والتي كانت تقام عقب صلاة العيد، وتعتبر احتفالات المولد النبوي الشريف من أطوال الاحتفالات فهي تستمر خمسة عشر يوما [36]، وتبدأ المراسيم كل يوم بعد صلاة المغرب إلى حين وقت صلاة العشاء، يعبر الناس خلالها عن محبتهم للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كلا بطريقته الخاصة، فالنسوة يجتمعن في البيوت لترديد الأغاني والمدائح الدينية المشيدة بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم، والرجال في المساجد يقرؤون القصائد والمدائح الدينية التي تتعرض

32 – السيدة سودي، (الزهرة)، (مقابلة) شخصية بتاريخ 2006/4/1م، تمنطيط، حي أولاد داود، على الساعة 19:30 ليلا.

33 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 26.

34 – سورة البقرة، الآية 253.

35 – سورة النساء، الآية 24.

36 –سودي، (الزهرة)، (مقابلة).

لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وتتناوله خصاله بالمدح والثناء [37]، وفي اليوم الذي يصادف مولد النبي تقام وليمة كبيرة يأكل منها كل أهل البلدة صغارا وكبارا، وأخرى تقام بعد مضي أسبوع على ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وهما ممولتان من قبل ثلاثة قبايا هي : أولاد باحمو، أولاد الحاج محمد، أولاد عمر، يقال بأنها كانت تمتلك نصيب كبير من مياه الفقارة، فأوقفت جزء منها كوقف على رسول صلى الله عليه وسلم ومن ريع هذا الوقف كانت تقام تلك الولائم [38].

وعند الحديث عن الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية، نجد الأعراس في المقدمة، فمراسمها تعج بالعادات والتقاليد المختلفة وإحياؤها كان يدوم سبعة أيام[39] ولكن المراسيم الفعلية للاحتفالات كانت تدوم يومين فقط (الأربعاء والخميس) ففي يوم الأربعاء يجتمع الرجال بعد صلاة العشاء في رحبة القصر لقراءة قصيدة البردة وتزيد يد العريس بالحناء، وفي المقابل تجتمع النسوة بدار العروس للقيام بمراسيم احتفال وضع الحنة للعروس بترديد القصائد والمدائح الدينية المصحوبة بإيقاعات الدفوف وزغاريد النساء، وفي صبيحة اليوم التالي يرسل العريس بالمشاطة التي تعني بتزيين وتجهيز العروس وعندما يحل الليل بعد صلاة المغرب يستدعي الأهل والأقارب وأعيان القصر ليحضروا كتابة عقد الزواج من قبل القاضي. وبالمناسبة تقام وليمة على شرفهم وفقا لمقدرة أهل العروسين[40]، ثم ينصرف الجميع لتأدية شعائر صلاة العشاء وبعدها تزف العروس إلى بيت زوجها، ويشترط عليها البقاء لمدة أسبوع كاملا لا يسمح لها بالخروج ولا بممارسة أي عمل من أعمال المنزل وتفرض عليها بعض القيود كان لا تقوم من مقامها إلا برفقة أحدهم بل حتى كلامها يجب أن يكون بمقدار، وبانقضاء الأسبوع يرفع عنها

---

37 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 25.

38 – سودي، (الزهرة)، (مقابلة)،

39 – السيد الهاشمي (بلحاج)، (مقابلة) شخصية بتاريخ 2006/04/02م، تمنطيط، حي مولاي العربي، 10:20، صباحا.

40 – نفسه

الحجر ويسمح لها العودة إلى حياتها الطبيعية، ومغادرة المنزل ويكون أول مكان تقصده قبل بيت والده هو المسجد[41]. وحتى الولادة كانت لها عاداتها وتقاليد وطقوس احتفالها، فما أن تضع المرأة مولودها حتى تسرع العائلة لذبح دجاجة إذا كان المولود ذكر وديك إذا كان المولود أنثى وتقوم القابلة بدق مسمار في الوضع الذي ولد فيه الطفل بهدف إبعاد الأذى والشرور عنه [42]، وبعد قطعها لسرة الطفل تدلك جسده بالتراب والسمن المستخلص من لبن الشاة، ثم تنظفه بالماء وتلفه في قطعة من الصوف ولا يرتدي أي نوع من الثياب طيلة الأسبوع الأول وبعد مضي أسبوع يؤتى بشخص يشترط أن يكون اسمه إما أحمد أو محمد ليؤذن في أذن الطفل اليمنى ويلفظ الإقامة في اليسرى[43]، ويلبس الطفل ولأول مرة منذ ولادته ملابس جديدة ويمنح له اسما وفي العادة المولود الأول يسمى على اسم جده لأبيه إذا كان ذكرا وعلى اسم جدتها لأبيها إذا كانت بنت، ويصحب كل ذلك احتفال بسيطا يحضره أقارب الطفل والجيران يوزع فيه الفول والخيز وتذبح العقيقة إذا كان أهل الطفل قادرين على ذلك [44].

وقد كان لكل مناسبة احتفالا من الاحتفالات الدينية أو الاجتماعية طقوس احتفالية خاصة، ولكن جميع الاحتفالات ومهما كان نوعها أو المناسبة الداعية إلى لإقامتها، فإن إحيائها يكون مرفوقا بفن من الفنون أو الطبوع الفلكلورية التالية : البارود - الحضرة - صارة.

- البارود [45] وهو رقصة قتالية كانت تستعمل قديما لدفاع عن القصور يؤديها الرجال في شكل حلقة حاملين بأيدهم البنادق والمسماة محليا (بالمكاحل)، وفي

41 - سودي، (الزهرة)، (مقابلة).

42 - نفسه

43 - بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص ٢٥.

44 - سودي، (الزهرة)، (مقابلة).

45 - دليمي بوجمعة ((رقصة البارود)) مجلة الأحياء، ع /1، أدرار، جمعية الدراسات والأبحاث التاريخية، ب، ت، ص 84.

وسط الحلقة يوجد رجلين، أحدهما يضرب على الدف والأخر ينفخ في المزمار وهي الرقصة الأكثر شيوعا ونجدها حاضرة في كل المناسبات.

- الحضرة [46] هي رقصة محلية تؤدى بالطارة فقط وتردد فيها القصائد والمدائح الدينية.

- صارة :[47] رقصة حماسية في القديم كانت ترقص عندما يكون هناك خطر محدق بالمدينة بهدف إثارة الحمية في نفوس السكان، ودفعهم إلى الاستماتة في سبيل الدفاع عن مدينتهم، وتحولت مع مرور الوقت إلى رقصات استعراضية يحي السكان بها مناسبة عاشوراء.

2- التكفل الاجتماعي :

لقد سبق لنا وأن أشرنا إلى أن المجتمع التمنطيطي مجتمع طبقي في تركيبته، ولكن هذا لا يمنع سيادة روح المؤاخاة والتعاطف والتآزر بين جميع أفراد المجتمع، وهذا راجعا إلى كون المجتمع التمنطيطي مجتمع متدينا بطبعه، فكثيرا ما كانت الأسر الغنية تمديد المساعدات للفقراء ولمحتاجين، بمنحهم كميات معتبرة من التمر والقمح والشعير، فضلا عن عناية شيخ ورئيس البلدة بجمع الصدقات للأسر الفقيرة [48]، وحتى في حدوث الوفاة، فإن كان الميت فقير معدما فإن أهل القصر يتكفلون بمصاريف الجنازة ويجمعون التبرعات لقضاء الدين عنه إذا كان مدينا، وتبقى التويزة من أبرز ومظاهر التلاحم والتضامن والتكفل الاجتماعي داخل المجتمع التمنطيطي، والتويزة معناه العمل الجماعي والتطوعي للقيام بعمل معين قد يكون إصلاح عطب ما أصاب الفقارة أو حفر بئر أو بناء مسجد أو حصاد غلة أو غيرها من الأعمال الجماعية التي ليس بوسع الإنسان القيام بها بمفرده [49].

---

46 - سرقمة (عاشور) الرقصات والأغاني الشعبية بمنطقة توات، وهران : دار الغرب للنشر والتوزيع (2004م)، ص 25.

47 - المرجع نفسه، ص 34.

48 - فرح، المرجع السابق، ص 45.

49 - عاشور، المرجع السابق، ص 36.

والإعلان عن التويزة يكون بواسطة البراح، الذي ينادي بأعلى صوته في الناس يخبرهم عن نوع العمل ومكان وقت بدأه، وما ينم حقيقة عن روح التضامن والتكفل الكامنة في المجتمع هي استجابة الناس وبعفوية لنداء البراح كباراً وصغاراً، أغنياء أو فقراء خاصة ماذا تعلق الأمر إلى بالفقارة، ومحافظة على ديمومة العمل اجتناب الملل كان يتخلل التويزة قرع الطبول وإنشاء المدائح والقصائد الدينية وإطعام الطعام والعملية تتكرر كلما دعت الحاجة إليها، واتسعت معاني التضامن لتشمل حتى الغرباء فالضيف وعابر السبيل كان مرحبا بهما في كل مكان وزمان، فإنك لتجد الرجل يحرم نفسه وعاليه ليكرم ضيفه، وهي حقيقة أقرها كل من عرف أهل تمنطيط وتوات عموما، فالعياشي وصفهم بأنهم أهل تقوى وصلاح [50]، والرحالة الألماني جيرهاردورول "JIRHORD ROLF" قال عنهم بأنهم مسالمون ويحيون الغرباء، ويحترمون رجال الدين [51]، والجميع مدح كرمهم ونبل أخلاقهم.

IV - الحركة العلمية والتعليمية بالمدينة:

شهدت تمنطيط مع نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع هجري قدوم الكثير من العلماء مما يجعل منها إشعاعا علمي وحضاري، ولكن بمفهوم تلك الفترة، إذ لا يخفى علينا ما كان عليه العالم الإسلامي من ضعف وانحطاط، فالحركة العلمية لم تتعد التقليد مع التغيب الشبه كلي للعلوم العقلية التجديدية، وباعتبارها جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي فهي لم تعرف حركة علمية تجديدية، وانما اكتفى علمائها بتناقل وتدارس مختلف العلوم الشرعية، والنقلية كعلوم القران، والحديث، والفقه مع تدوين بعض الشروحات، والتعليقات على عددا من المكتب فضلا عن إشتغالهم بالعلوم اللغوية كالنحو والصرف، مع وجود بعض المهتمين بعلم التاريخ والتراجم، ولكن هذا لا يجعلنا نلغي جهودهم ونغفل دورهم في إحياء العلوم الدينية، وبعث الحركة الثقافية في المدينة، وفي مايلي ذكر لأهم أعلام ومشايخ المدينة :

50 - العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 24.

51 - فرج، المرجع السابق، ص 37.

1- الشيخ سيد عمرو بن موسى سيدي محمد بن عمرو البازي :

وهو عالما من علماء فاس المشهورين انتقل إلى تمنطيط سنة 809هـ، ويقال هروبا وخوفا من بطش ملوك المغرب، بقي مدة من الزمن في تمنطيط، ثم غادرها مخلفا ورائه ولديه الشيخ سيدي ميمون والشيخ سيدي التهامي توفي رحمه الله سنة 872هـ[52]

2- الشيخ سيدي ميمون :

هو الشيخ سيدي ميمون بن عمرو بن سيدي محمد بن عمرو البازي، ولد بفاس وبها نشأ وتعلم على يد أبيه سيدي عمرو البازي، وشيخه ابن غازي المكناسي، رافق والده في رحلته إلى تمنطيط سنة 809هـ،واستقر بها بعد رحيل والده عنها، كان هو أول من أدخل مختصر خليل للديار التواتية توفي سنة 890هـ [53].

3-الشيخ سيدي يحي بن محمد المناري :

هو رجل صالح وفقيه عالم داخل أرض توات عام 815هـ، واتخذ من تمنطيط مستقرا له فلما رأى الناس حسن سيرته وابتعاده عن الأهواء، وانقطاعه للعبادة إتفقوا على توليته القضاء فلا زال مشتغلا بها حتى وافته المنية سنة 804هـ [54].

4- الشيخ سيدي يحي بن بدير بن عتيق التليسي :

أحد المشايخ الكبار والأعلام البارزين الذين وفدوا إلى المنطقة، كان ذلك سنة 845هـ عرف بغزارة علمه ونشاطه الذؤوب، ففي عهده شهدت المدينة حركية فكرية كبيرة فباتت مقصد للسائلين ووجهة للمتعلمين، ومجال خصبا لمناقشة العديد من المسائل والنوازل الفقهية وهو ما أسهم في إثراء الحركة العلمية، وإعطائها دفعا قويا، ومن أشهر طلبته الشيخ عبد الله العصنوني، الشيخ سيدي سالم العصنوني،

---

52 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 102.

53 – بعالم، المرجع السابق، ج1، ص 61.

54 – البكراوي، المصدر السابق، ص 10.

الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي، عاش في تمنطيط قاضيا، ومعلما إلى توفاه الله سنة 877هـ ودفن بمقبرة أولاد علي بن موسى [55]

5 - الشيخ سيدي عبد الله العصنوني :

قصد تمنطيط مهاجر إليها من تلمسان سنة 836هـ وكان قبل قدومه إليها قد أخذ العلم على يد أبي محمد عبد الله بن أبي بكر، وعن أبن زكري وأبي زكرياء يحي السويسي، وفي تمنطيط أكمل تحصيله على يد الشيخ يحي بن بدير وكان من أبرز تلامذته حتى أنه خلفه في منصب القضاء لما توفي سنة 877هـ، بزغ نجمه وذاع صيته في كامل الأرجاء التواتية ووصل حتى بلاد السودان، ومما يؤثر عن سيدي عبد الله العصنوني أنه كلما دخل مجلس القضاء للبث في قضية ما، يصحبه رجلان يقف الأول على يمينه والثاني على يساره وهما يرددان قوله تعالى :(إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)[56] صدق الله العظيم، توفي رحمه الله عليه سنة 868هـ ودفن بمقبرة أولاد علي بن موسى.

5- الشيخ المغيلي :

هو محمد بن عبد الكريم المغيلي، نسبة إلى قرية مغيلة بتلمسان، ولد سنة 821هـ ووصل تمنطيط سنة 882هـ، ونزل بقصر أولاد يعقوب، التحق بشيخ وعالم المدينة يحي بدير كانت له مقارعات ومضاربات مع اليهود القاطنين في تمنطيط الأمر الذي أدى إلى حدوث سوء تفاهم بينه وبين حاكم البلدة الشيخ عمر، فانتهى بيه الحال إلى الخروج من تمنطيط ليستقر بقصر بوعلي حيث توفي هناك سنة 909هـ [57]

7- الشيخ سيدي أمحمد بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون :

ولد بتمنطيط فتلقى تعليمه الأول بها ثم ارتحل إلى فاس، واخذ العلم عن اربع وعشرون عالما من علماء فاس منهم : أبو عبد الله محمد بن مجبر وسيدي محمد

55 – البكراوي، المصدر نفسه، ص 9.

56 – سورة الزمر، الآية 30-31.

57 – بلعالم، المرجع السابق، ج1، ص 120.

العدي وسيدي يعقوب البدري نبغ في النحو والحديث، والأصول والحساب والهندسة تميز بقدرته الكبيرة على الحفظ والاستظهار، إذ كان يحفظ عن ظهره قلب صحيح البخاري ومدونة مالك، وكثيرا ما كان يوصي أبنائه ويحثهم على الكد والاجتهاد فيطلب العلم قائلا:

إذا شط النهار فكن جليدا على درس العلوم بلا فتور

ولا تكسل بدرس في الكتاب فان الدرس يأتي بالسرور

كما كان يقول :«ينبغي لطالب العلم أن يكون أحرش كالعقرب» توفي بأرض السودان سنة 1108هـ [58].

8- الشيخ سيدي عبد الكريم بن أمحمد بن أبي التواتي

ولد بتمنطيط عام 994هـ[59] حفظ القرآن وأخذ مبادئ العلوم في سن مبكرة على يد والده، ولما قوي عوده واشتد ساعده بدأ رحلته في طلب العلم وتنقل بين العديد من المشايخ منهم : الشيخ سعيد إبراهيم قدوره، الشيخ سيدي سعيد المقري، الشيخ أبي زيان التلمساني، الشيخ أحمد بن بومعزى، الشيخ عبد الصمد بن عبد الرحمان، الشيخ سيد محمد عبد الحكم بن عبد الكريم الجراري، الشيخ سيدي الحسن بن أحمد بن أبي يحي الشريف، الشيخ أحمد بابا التمبوكتي، الشيخ سيدي الأجهوري المصري، وكثرة وتنوع شيوخه دليل على حرصه واجتهاده وغزارة علمه، فقد قال حينما أحس بقرب المنية : «ها أنا أموت بنيف وأربعين علما لم أجد لها سائلا ».

بعد الرحلة الطويلة في العلم عاد أخيراً إلى تمنطيط فتولى القضاء سنة 1022 هـ إلى جانب تعليم الطلبة الوافدين من كل حدب وصوب، ومن أشهرهم الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التلاني، محمد بن علي الوقروتي، محمد بن عبد الكريم. كانت وفاته سنة 1042هـ تاركا ورائه جملة من مؤلفات نذكر منها : غاية الأمل في

---

58 – البكراوي، المصدر السابق، ص 35.

59 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 11.

إعراب الجمل وهو شرح على لامية ابن المجراد، تحفة المختار إلى معالم أرض الحجاز، شقائق النعمان فمن جاوز المائة في الزمان، سفينة النجاة بأهل المناجاة، الرحلة في طلب العلم [60].

9 - الشيخ عبد الكريم بن البكري :

ولد سنة 1096هـ إبتدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم وهو لا يزال طفلا صغيرا على يد الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم، كما أخذ مبادئ الفقه والنحو على يد أبيه الشيخ سيدي البكري، امتاز بقوة ذكائه وحفظه فكان بحفظ مختصر خليل وصحيح البخاري وغيرهما من أمهات الكتب في الفقه المالكي فضلا عن ضلوعه في النحو والصرف، مما أهله إلى تولي خطة القضاء على الديار التواتية سنة 1133هـ وظل قائما عليها إلى أن أعياه المرض فعهد بها إلى ابنه عبد الحق بن عبد الكريم، توفي سنة 1174هـ [61].

10-الشيخ سيدي محمد بن سعيد العالم 1298هـ :

ولد 1229هـ بتمنطيط حفظ القرآن والعديد من المتون كمتن ابن عاشر والرسالة لأبي زيد القيرواني ومتن الاجرومية وملحة الإعراب في النحو وهو لا يزال صغيراً، لما كبر سنه قليلا انتقل به والده إلى قصر ملوكة فأخذ العلم عن شيخها ابي فراس سيدي عبد العزيز، فأخذ عنه المختصر والألفية والعاصمية وغيرها من المتون، وبقي في قصر ملوكة منكبا على العلم على أن حصل على الإجازة من شيخه فقفل راجعا إلى تمنطيط ليشتغل بالتعليم والإفتاء، وقد كانت له رحمه الله العديد من الشروحات والتعليقات والتحقيقات على جملة من المسائل الفقهية، والكثير من القصائد الشعرية توفي سنة 1298هـ [62].

60 - بكري (عبد الحميد)، المرجع نفسه، ص (114-123).

61 - بكري (عبد الحميد)، المرجع نفسه، ص 151.

62 - بكري (عبد الحميد)، المرجع نفسه، ص 167.

11- الشيخ سيدي محمد العالم بن سيدي محمد الجزولي :

ولد سنة 1227هـ وكما هي عادة مشايخ وعلماء تمنطيط، حفظ القرآن والمتون وتعلم مبادئ الفقه واللغة والنحو على يد أبيه وهو صغير، بعدها انتقل على حضرة الشيخ سيدي عبد العزيز بن سيدي الحاج البلبالي بقصر ملوكة لمواصلة تحصيله العلمي هناك، فدرس عليه في الفقه رسالة أبي زيد ومختصر خليل والعاصمة ومنظومة العمل الفاسي، وفي النحو درس الألفية ولامية الأفعال، بعد حصوله على الإجازة عاد إلى تمنطيط، برز في علم الفقه والأصول والنحو والتفسير، وله العديد من الحواشي والشروحات والتعليقات منها :حاشية علي أبي القاسم بن سعيد العميري وله حاشية أخرى على منظومة العمل الفاسي، أيضا على شرح علي بن عبد الرحمان المنجوري لكتاب المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب المالكي. تخرج على يده جملة من العلماء منهم سيدي البكري، وسيدي بوبكر البومدياني توفي سنة 1350هـ [63].

12-الشيخ سيدي بوبكر البومدياني [64]:

هو من أبرز طلبة الشيخ سيدي محمد العالم لم نتوصل إلى تاريخ ولادته ووفاته بالضبط، ولكنه عاش في حدود القرن الثاني عشر هجري، كان عالما بالعلوم الشرعية إلى جانب إتقانه اللغة العربية وتمكنه من ناصيتها، اشتهر بنظمه وقرضه للشعر، ومن الأقوال المشورة والمأثورة عنه قوله :

نحـن أنـاس للخليـل ننتمـو إن جـاد زدنا بكلامه السمو

و إلا فالعـذر لنـا مقبـــول لأننـــا بنـصه نـقـــول

كان معتادا على الخروج رفقه ديدي العالم في مواسم معينة إلى أنحاء مختلفة من توات لإلقاء الدروس وتعليم الناس إبتغاء مرضات الله، ويقال بأنه في إحدى المرات وأثناء تجوله في القصور التواتية إلتقى قاضيا فتجاذبا أطراف الحديث معا،

63 - بكري (عبد الحميد)، المرجع نفسه، ص 168.

64 - السيد محمد (بومدين)، (مقابلة) شخصية، بتاريخ 6 أفريل 2006 أدرار، حي عيسات ايدير، 17:35 مساء.

فإذ بالقاضي يستحضر بيتا من متن ابن عاشر وسأل الشيخ سيدي بوبكر إعراب البيت ولكنه عجز عن ذلك، ثم إنصرف كل منهما إلى حال سبيله، فلما التقيا مرة ثانية في طريق العودة دار بينها حديث مماثل، ولكن هذه المرة الشيخ بوبكر هو الذي سأل القاضي إعراب بيت من متن ابن عاشر مع إيضاح المنطق من البيان في البيت، و هو ما عجز القاضي عن القيام به فأنكر عليه الحاضرون فعلته، فمهما يكن فالقاضي له مكانته وهيبته بين الناس، ولم يكن كم داع لإحراجه، فرد قائلا أنا لم أفعل ما فعلت لإنتقام، أو لأظهر عجز وضعف القاضي وإنما الذي حملني على ذلك أن جعله يدرك بان العلم بحر واسع وليس بوسع الإنسان الإبحار في جميع شواطئه في آن واحد، فالعلم الكامل لله وحده وصدق الله إذ يقول :(وان الله قد أحاط بكل شيء علما) [65] صدق الله العظيم، وقد وافق رأيه رأي الشاعر حينما قال :

أيا من يدعي في العلم معرفة علمت أشياء وغابت عنك أشياء

13-الشيخ سيدي أحمد ديدي بن سيدي محمد العالم :

ولد سنة 1299هـ وبدأ مسيرته العلمية بحفظ القرآن على يد الشيخ محمد بن الطالب عبد الواحد، ثم مبادئ النحو والفقه على يد الشيخ سيدي البكري بن سيدي محمد العالم، انتقل إلى مدينة كوسام لأخذ العلم على يد عالمها سيدي عبد الله بن أحمد البلبالي، فقرأ عليه المختصر والعاصمية ومنظومة العمل الفاسي وغيرها من كتب الفقه، ودرس عنه أيضا النحو والصرف إلى جانب المنطق والحساب، وبعد انقضاء خمس سنوات عاد إلى تمنطيط حاملا معه إجازة شيخه عبد الله البلبالي، وهو ما أهله للإشتغال بالإفتاء والتدريس، أومأ إليه أحد مشايخ المنطقة وهو سيدي محمد بن عبد الرحمان شيخ وعالم مدينة أنزجمير بفتح مدرسة لإستقبال وتعليم الطلبة، فأخذ بنصيحته وأنشأ مدرسة كانت تقتصر في بادئ الأمر على تعليم الطلبة دون التكفل بإيوائهم وإطعامهم، لكن بعد اتساع نشاطها وإرتفاع عدد طلبتها أدخلت النظام الداخلي،الأمر الذي زاد عدد الوافدين من أشهرهم :الحاج احمد

65 – سورة الطلاق، الآية 12.

نومناس، الحاج محمد العالم، الشيخ الحاج محمد بلكبير والحاج عبد الكريم التلالي، وتوفي سنة 1370هـ [66].هذا ولا يزال هناك طائفة كبيرة من علماء المدينة لم نأتي على ذكرهم مثل الفقيه ديدي العالم، محمد عبد القادر أبي الأنوار، الشيخ سيدي الحسن ابن أبي مدين التمنطيطي، الشيخ الطالب سيدي العربي وغيرهم كثيرون أعجزنا إنعدام المصادر عن ذكرهم.

منهجية التدريس :

إعتاد أهل البلدة إدخال أبنائهم الكتاب في سن مبكر، فما أن يبلغ الطفل سن الرابعة [67]، حتى يعهد به والده إلى إمام المسجد لتعليمه، مقابل دفع حصة من التمر سنوية، وذلك بالنسبة للقادرين، أما الفقراء فكان يصرف على تعليمهم من أملاك الوقف.

وأول ما يبتدئ به الشيخ، تعليم الأطفال الحروف الأبجدية [68]، كمرحلة انتقالية نحو تعلم وحفظ القرآن الكريم، بدأ من سورة الفاتحة ووصولا إلى سورة البقرة، وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يتمون الحفظ في سن مبكر لا يتجاوز العشر سنين، فيقام لهم حفل الختمة أو ما يعرف محليا (بالحفاظة) كناية عن إتمام حفظ الطالب للقرآن، حيث تزين يداه ورجلاه بالحناء ويقوم الشيخ بتزيين ونقش لوحه، و يجلس في ردهة الكتاب محاطا بزملائه وهم يرددون قصيدة البردة، و بالمناسبة يتلقى هدايا وعطايا المهنئين.

بعد الانتهاء من حفظ القرآن، يباشر شيخ الكتاب تلقين طلبته مبادئ الفقه واللغة بتحفيظهم متن ابن عاشر والاخضري والاجرومية [69]، بتمكن الطالب من هذه المتون يكون قد أنهى المرحلة الأولى من تعليمه وبهذا يكون مؤهلا للإنتقال إلى الزاوية

---

66 – الصديق، المرجع السابق، ص 82.

67 – بلعالم، المرجع السابق، ص 262.

68 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 42.

69 – فرج، المرجع السابق، ص 36.

لأخذ العلم عن شيخها، في هذه المرحلة المتقدمة يدرس الطالب فيالفقه رسالة إبن زيد القيرواني ومختصر خليل، أما في النحو فيدرس ملحة الإعراب والألفية لابن مالك، والسلم في المنطق وكذا البيقونية في الحديث وشيئا من علم الحساب [70].

أما التدريس فيكون في ردهة المسجد، بحيث يجلس الشيخ وحوله الطلبة في شكل حلقة [71]، حاملين الألواح والكتب، معهم الدواة والأقلام المصنوعة من القصب للكتابة، ووقت التدريس مقسم موزع على حصص، فهناك حصة مخصصة للإستظهار وأخرى لإلقاء الدروس، والثالثة يستغلها الطلبة للمذاكرة والمراجعة، وفي الليل يجلسون لقراءة القرآن وبعض المتون، عادة ما كان الدرس يبدأ من صلاة الصبح ويستمر حتى وقت الضحى والعملية تتكرر كل يوم عدا الخميس والجمعة فهما يومي عطلة، ولم تكن مدة التعليم محددة فمتى حصل الطالب على الإجازة أمكنه المغادرة، ليزاول نشاطه كمدرس ومعلم للقرآن، أو يكمل تحصيله العلمي في أماكن أخرى [72].

ونجد من الضروري أن ننوه هنا، بأن التعليم قد اقتصر على الأولاد دون البنات، مما يفسر خلو الساحة العلمية من أي مساهمة نسويه.

وعموما فالمجتمع التمنطيطي كان نتاج إمتزاج مختلف القبائل الوافدة إلى المدينة عبر أزمنة مختلفة، والتي استطاعت أن تتعايش فيما بينها، لإيمانها بضرورة العيش المشترك، فاختطوا القصور وبنو المنازل وفق ما يتناسب والطبيعة الصحراوية، وقد كان لتوافد العلماء إلى المدينة واستقرارهم بها، الدور الكبير في تفعيل الحركة العلمية، حتى غدت تمنطيط قطبا حضاريا يؤمه الطلبة من كامل المناطق التواتية.

---

70 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 43.

71 – فرج، المرجع السابق، ص 86.

72 – بكري (عبد الحميد)، المرجع السابق، ص 44.

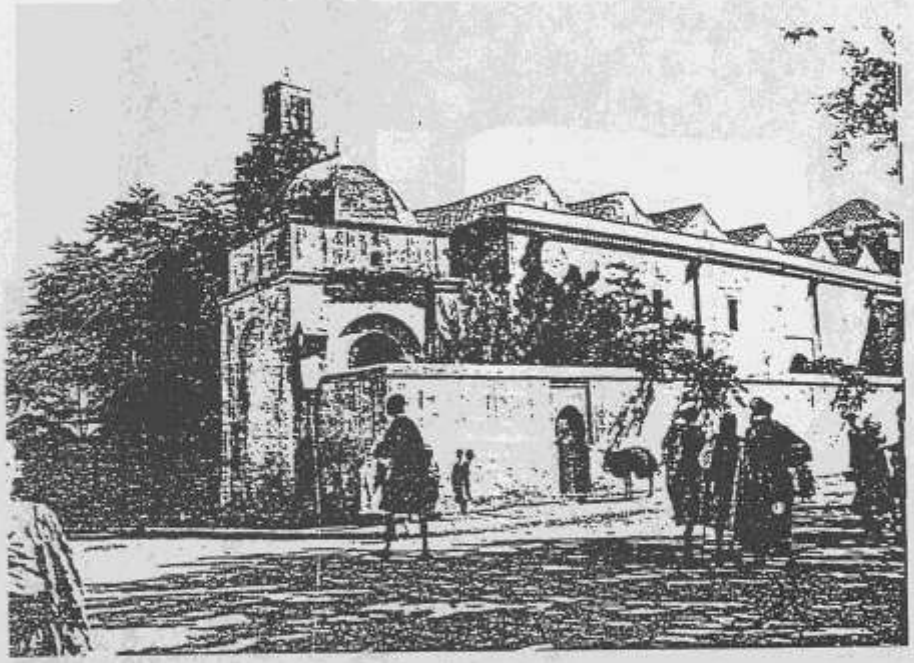

المسجد الأعظم بتلمسان

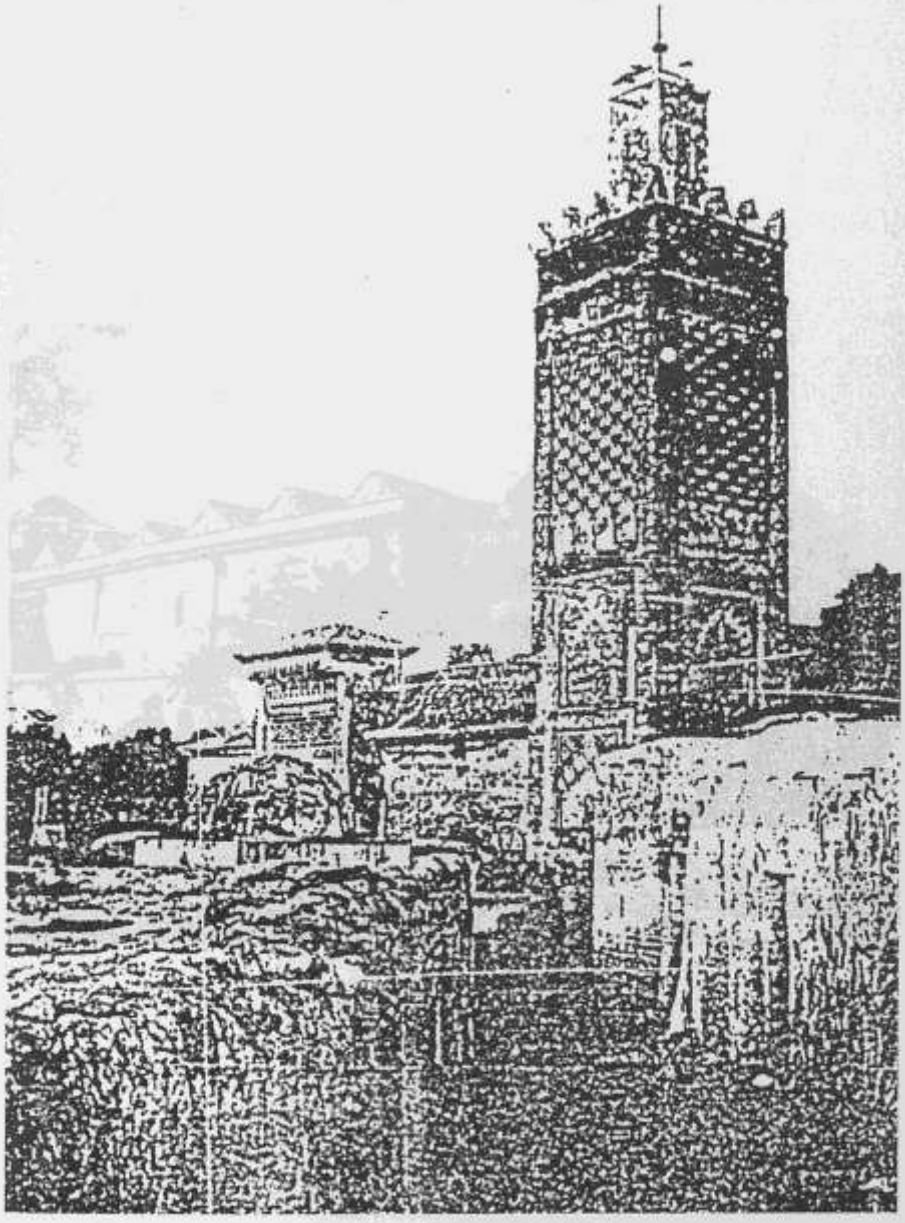

مسجد سيدي الحلوي

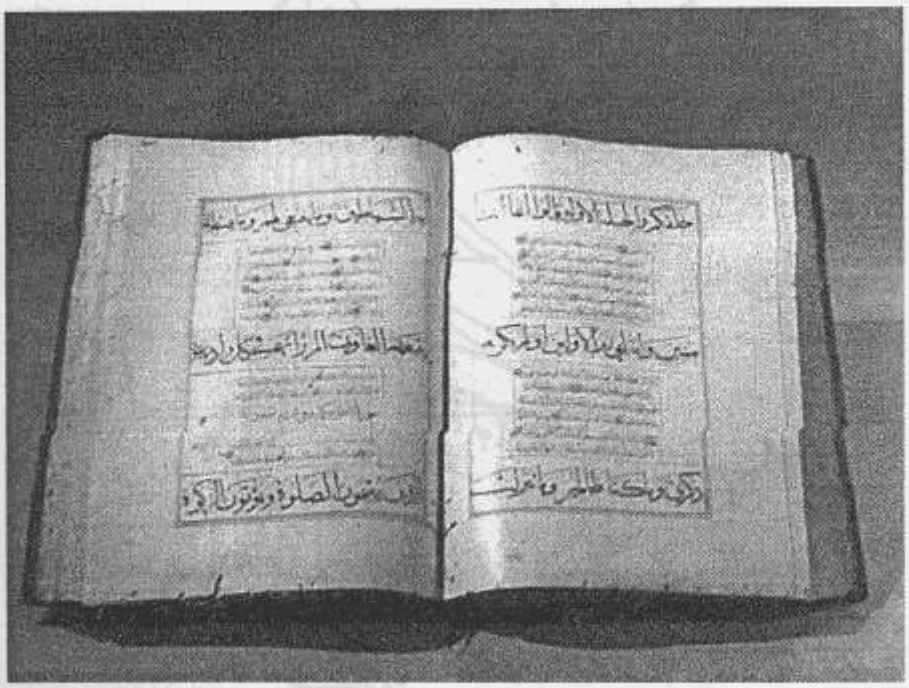

مخطوط للقران الكريم

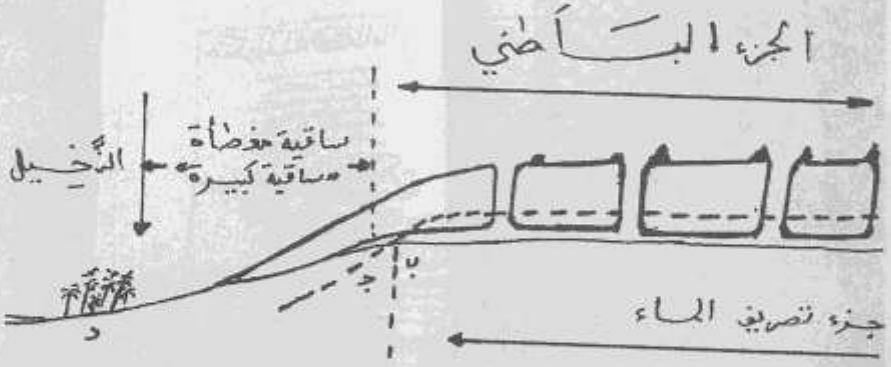

مخطط عام للفقارة

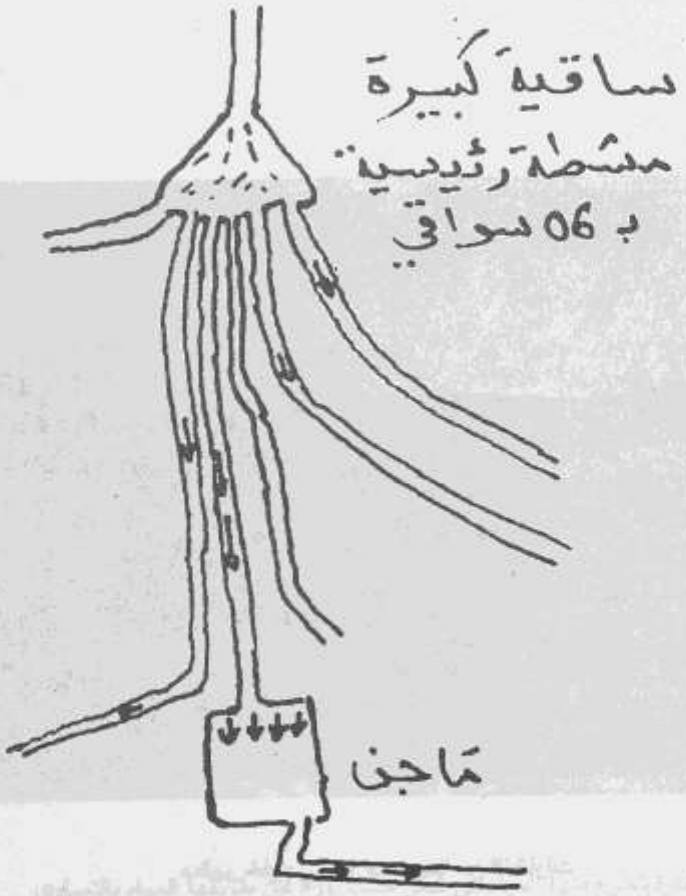

مخطط يوضح طريقة تقسيم مياه الفقارة

مظهر خارجي يبرز مجموعة من الفقارات

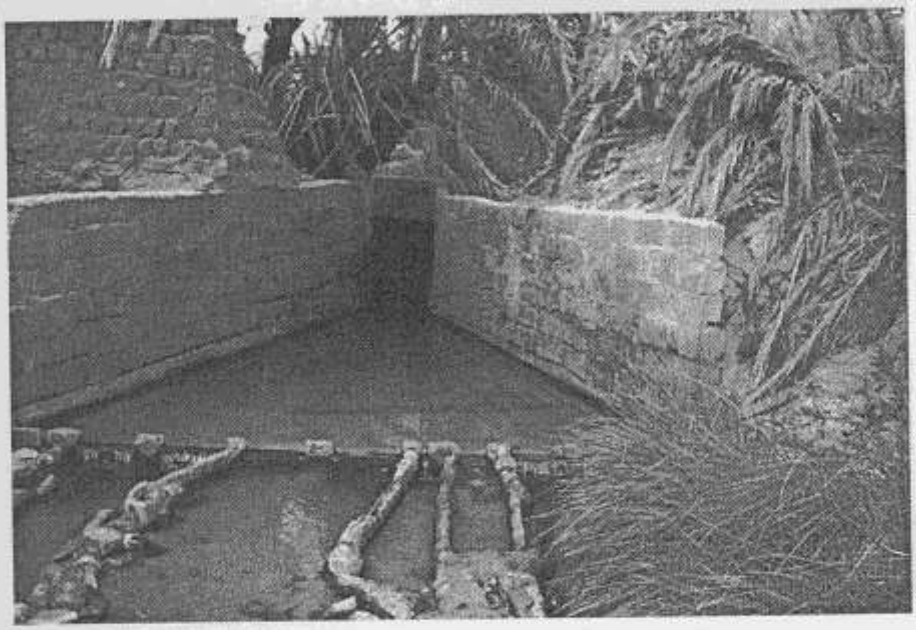

فقارة تخرج منها المياه في شكل مثلث توزع عن طريقها المياه بالتساوي

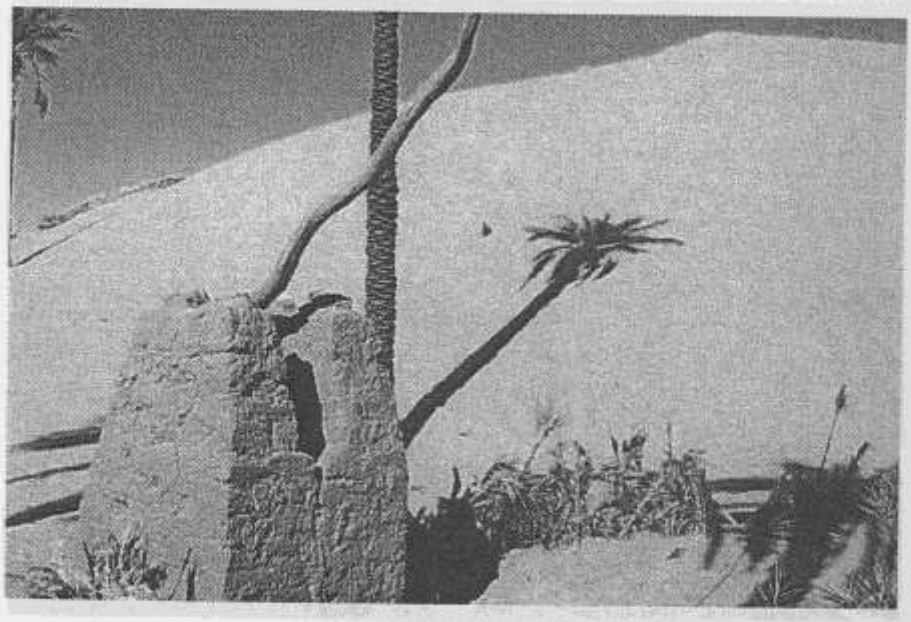

بئر خاص للسقي

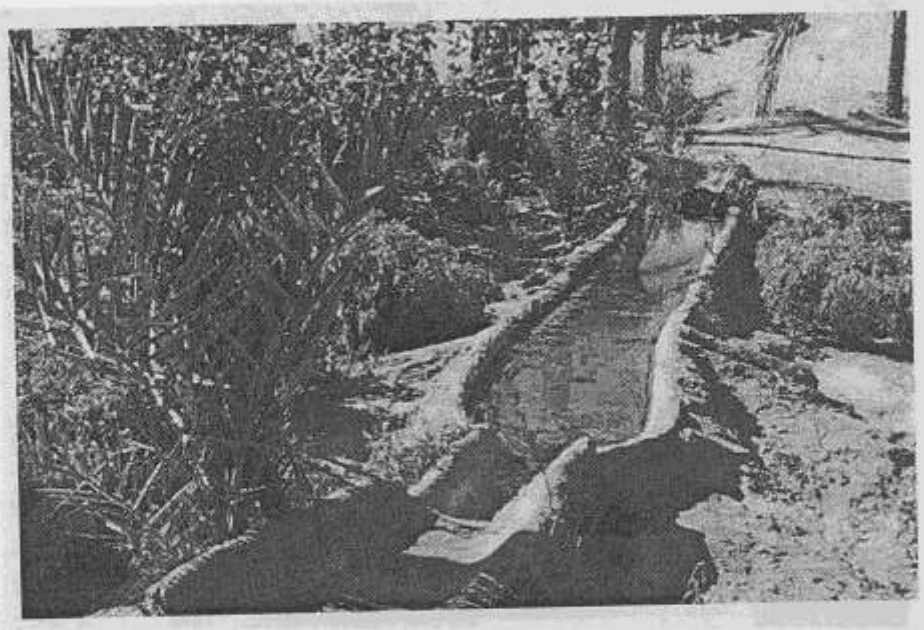

مياه الفقارة توضح طريقة السقي

الخاتـمة

وخلاصة القول فإن المرحلة العثمانية بالجزائر تعد مرحلة مهمة في جوانبها الثقافية وهي أحسن حال مما كانت عليه باقي الجوانب الأخرى خصوصا الإقتصادية منها حيث عرفت هذه المرحلة بروز العديد من الطرق الصوفية المتنوعة، وتعد المؤسسات الثقافية وإنتشارها في الحواضر والأرياف حيث مست معظم شرائح المجتمع بالرغم من بعده عن السلطة المركزية، وقد خلص أعضاء الفرقة إلى مجموعة من الإستنتاجات يمكن حصرها في النقاط التالية :

1 - غنى المرحلة العثمانية في الجزائر بالتنوع الثقافي ،وخصوصا الصوفي منه.

2 - ظلت الحركة التعليمية مقتصرة بالدرجة الأولى على التعليم الديني في الوقت الذي عرفت فيه الكثير من الدول الأخرى خاصة الاوربية منها إقتحام التعليم بوسائله الحديثة وتنوع مجالاته.

3 - يعد الوقف إحدى الركائز الأساسية في إستمرارية الحياة الثقافية والإقتصادية والإجتماعية سواء منها وقف السلطة أو أوقاف ذوي الإحسان.

4 - تعدد وظائف الزوايا بين التربية الروحية والمدنية والاجتما عية، وذلك بالحفاظ على مقومات المجتمع الجزائري، وهويته العربية الإسلامية.

5 - كانت الزوايا بمثابة مدرسة وطنية لتكوين النخب المتشبعة بالتكوين الديني الذي قاوم عبر العصور مخاطر التمسيح والإستعمار الحديث بمختلف أشكاله.

6 – وجود الدعم الشعبي اللا محدود للزوايا، وذلك بفضل الوازع الديني الذي تشبع به الشعب الجزائري بالرغم من بعض الفروقات في أذكار الطرق وسلوكات المريدين وغيرهم.

7 – مثلث الزوايا أهمية إستراتيجية باعتبارها همزة وصل بين مناطق داخلية وخارجية فعلى سبيل المثال نجد صدى الطريقة التيجانية قد وصل إلى إفريقيا السوداء ودول من آسيا، ولا يزال تأثيرها إلى يومنا هذا.

8 – تعد الزوايا بالجنوب الجزائري مؤسسة قائمة بحد ذاتها حيث أنها أثبتت تأثيرها على الجمع والربط بين مختلف المناطق الداخلية، كما كانت لها سمعة على مستوى المغرب الأقصى أو دل المشرق الإسلامي، والإفريقي، بل وصل صداها إلى إسطنبول باعتبارها عامة الخلافة الإسلامية.

9 – غالبية أعلام الجزائر من العلماء في العهد العثماني تتلمذوا في الزوايا نذكر سعيد بن قدور،و أبو راس الناصري والأمير عبد القادر، محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية.

10 – اتسم العثمانيون ببناء المساجد وتحبيس الأوقاف عليها ولم يهتموا بشيء آخر من حيث العمران كاهتمامهم بالمساجد والتعليم فيها إذ قدر هايدو الاسباني عدد المساجد في مدينة الجزائر سنة 1581 بمائة مسجد في حين لم تتجاوز اثنين قبل دخول الأتراك.

11 – تأسست في الجزائر العثمانية العديد من المدارس التي نالت شهرة عالمية حسب ما ذكره الرحالة المغربي حسن الوزان منها مدارس تلمسان وبجاية وقسنطينة ووهران ومازونة ومعسكر التي أشار إليها المؤرخ الناصري بقوله : هي المدينة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها.

12 – الزوايا في منطقة الجنوب وخصوصا منها في منطقة توات فكانت بمثابة مؤسسة إستراتيجية أثبتت جدارتها في محيطها الداخلي والخارجي اذ تعد همزة وصل بين كل مناطق الجزائر خاصة بين الشمال والجنوب من جهة والمحيط الخارجي من جهة أخرى.

13 – لعبت الزوايا بالجنوب الجزائري دورا أساسيا في نشر الإسلام وعلوم اللغة العربية في إفريقيا بجنوب الصحراء، كما كانت سدا واقيا في وجه التبشير ومحاربة الوثنية.

14 – تعد مدينة تمنطيط نموذجا حيا في تشكيل مجتمع انصهرت فيه مختلف القبائل الوافدة إليه، فلعبت دورا محوريا في تمكين الحركة العلمية التي جعلت من المنطقة قطبا حضاريا.

البيبلوغرافيا

أ- المخطوطات :

01 – محمد الطاهر التليتي، امتحان القارئ – مخطوط – رقم 1607.

02 – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية – مخطوط – رقم 01.

03- الدرعي الرحلة – مخطوط – بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1957.

04 – لوسياني السلم ،مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 622.

05 – محمود بن هوا زهر الآداب مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 893 .

06 – ابن سحنون، الثغر الجماني مخطوط رقم 12.

07 – العنتري محمد الصالح، تاريخ قسنطينة من دخول الأتراك إلى الفتح الفرنسي مخطوط رقم 2320 المكتبة الوطنية الجزائرية .

08 – محمد الزياني بن يوسف، دليل الحيران وأنيس الهران في إخبار مدينة وهران مخطوط محقق من طرف المهدي البوعبدلي .

09 – سالم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر مخطوط تحقيق رابح بونار .

10 – الشيخ سيد يحمد بن الشيخ المختار الكبير الطرائف واللائذ مخطوط زاوية كنتة .

11 – الشيخ سيدي مختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وحقائق الازدياد مخطوط اقبلي.

12 – نفسه ،الجرعة الصافية مخطوط زاوية أولف مكتبة الشيخ باي أدرار .

13 – الشيخ باي الكنتي، النوازل زاوية كنتة مخطوط المكتبة الكونتية .

14 – جليس الزائر وانيس السائر المخطوط .

15 – أحمد عبد الكريم، مزيل الخفا في نسب بعض الشرفاء مخطوط بخزانة بومدين .

ب - المصادر :

01 – عبد الحي الكتاني فهرس الفهارس .

02 – المفتي الجزائري ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

03 – أبو القاسم الحفناوي، تعريف السلف برجال الخلف، مؤسسة الرسالة بيروت 1983 .
04 – الوزير السراج الملل السندسية في الإخبار التونسية .
05 – أحمد بابا التمبكتي، الابتهاج بتطريز الديباج.
06 – محمد داود، تاريخ تيطوان، المجلد 3 – الدار المصرية –1962.
07 – حمدان بن عثمان خوجة ،المرآة – تحقيق محمد العربي الزبيري الجزائر – 1975.
08 – ابن القاسم الزياني ،الترجمانة الكبرى في إخبار المعمورة برا وبحرا.
09 – جمال الدين بوقلي، ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ط1، م و للكتاب الجزائر 1985.
10 – خير الدين الزر كلي، الرسالة الخالدة في آداب الطريقة النقشندية.
11 – خير الدين الزر كلي قاموس تراجم الإعلام ج 4 – دار للملايين – بيورت1981 .
12 – ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان .
13 – محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وإخبار الجزائر – وشرح وتحقيق ممدوح حقي – دار اليقظة العربية – بيروت – 1964.
14 – ماء العينين فت البدايات وتوصيف النهايات – القاهرة – شركة الطباعة الفنية المتحدة .
15 – محمد الشريف الزهار مذكرات نقيب إشراف الجزائر – ط 1 (ش.و.م.ن) الجزائر1974.
16 – محمد الزياني، دليل الحيران و أنيس الحيران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1979 .
17 – محمد الصالح بن العنتري، تاريخ قسنطينة، تعليق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية 1991.
18 – أحمد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج8،، الدار البيضاء 1956.
19 – مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب و المسافر، تحقيق رابح بونار، ط1، ش، و، ن، ت، الجزائر 1974.
20 – وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر1816/1824، تعريب إسماعيل العربي، ط1، ش، و، ن، ت، الجزائر1982 .
21 – سبنسر وليم، الجزائر في عهد الرياس، ترجمة عبد القادر زبادية، ش، و، ن،ت، الجزائر 1980.
22 – دمصطفى بن الخوجة، عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر، ط1، مطبعة فونطانا 1902 .
23 – رشيد رضا، تاريخ الأستاذ محمد عبده، ج1، مطبعة المنار مصر 1931 .
24 – الورتلاني محمد السعيد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، تحقيق محمد بن شنب، الجزائر 1908 .
25 – أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766/1761، الجزائر 1986.

26 – نفســه، هذه هي الجزائر، مطبعة النهضة المصرية .
27 – نفســه، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ط1، ش، و،ن، ت، الجزائر1974.
28 – كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج5، مطبعة الترقي دمشق 1957 .
29 – محمود الشنقيطي، قضية ليبيا، ط1، مكتبة النهضة المصرية 1951 .
30 – محمد خير الدين، مذكرات الشيخ خير الدين، ج1، مطبعة دحلب الجزائر 1985 .

ج – المراجع :

01 – أبو القسم سعد الله أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ج4، 1،–ط1–دار الغرب الإسلامي 1998 .
02 – أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 2، 3، 4، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1998.
03 – نفســه، شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1998 .
04 – نفســه، تاريخ العدواني، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت .2005
05 – نفســه، محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، ط3، م، و، للكتاب الجزائر 1983 .
06 – نفسه، رحلة بن حماد وش الجزائري، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1983.
07 – ساحي أحمد، أعلام من زواوة، ط1، طباعة الثورة الإفريقية .
08 – فرج محمود - إقليم توا ت– في القرنين 18و19 .، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 .
09 – ناصر الدين سعيدوني، دراسات التاريخية في الملكية والوقف والجباية – دار الغرب الإسلامي ط 1 – 2000– الجزائر.
10 – نفســه، دراسات في الملكية العقارية – المؤسسة الوطنية للكتاب – 1986 –الجزائر.
11 – ناصر الدين سعيدوني النظام المالي للأيالة الجزائرية – كلية الأدب – جامعة الجزائر 1997.
13 – أنيس محمد، الدولة العثمانية بالمشرق العربي – 1514– 1914 .القاهرة –بدون تاريخ .
14 – عبد الرسول علي،المبادئ الاقتصادية والبناء الاقتصادي في الدولة الإسلامية – دار الفكر العربي – القاهرة – 1968.
15 – عبد الجليل التميمي، فهرس موجز للوثائق العربية والتركية .
16 – نفســه، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر تونس ليبيا 1871/1816، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985 .
17 – هاب الدين يلس ،الفهرس التحليلي للوثائق التاريخية الجزائرية – الرصيد العثماني .
18 – ناصر الدين سعيدوني دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان 2000.

19 – جمال الدين بوقلي حسن، أيام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد – ط1 –المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – 1985.

20 – محمد طه الحاجري، جوانب من الحياة العقلية و الأدبية في الجزائر، معهد البحوث و الدراسات العربية القاهرة 1968.

21 – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1، المطبعة العربية بالجزائر 1971.

22 – مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، ش، و ،ن، ت، . الجزائر 1981 .

23 – فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا - ط 1– المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1985 .

24 – يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري – ط 2 – دار الفكر دمشق – 1964 .

25 – حميدة عميراوي، دور حمدان خوجة في تطوير القضية الجزائرية –1827 1840. دار البعث – قسنطينة – 1987 .

26 – تلمساني بن يوسف، الطريقة التيجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر(1782– 1900) . رسالة ماجستير جامعة الجزائر ما تزال مخطوطة

27 – أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، ط1، مطبعة دار هومة الجزائر 2007.

28 – إسماعيل العربي، حاضر الدولة الإسلامية في القارة الإفريقية - مؤسسة السياسة فلاش - الجزائر 1984 .

24 – بسام العسلي الجزائر والحملات الصليبية – ط1 –دار النفائس – بيروت 1980.

29 – يحيى بوعزيز، إعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة – ج 1– ط 1– دار الغرب الإسلامي– بيروت 1995.

30 – عبد القادر جغلول تاريخ الجزائر الحديث – دراسة سوسيولوجية ترجمة عيسى فيصل – ط2– دار الحداثة – بيروت 1982.

31 – محمد العربي الزبيري التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792– 1830–ط2 – المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 .

32 – مجاهد مسعود تاريخ الجزائر – ج1 – بدون سنة الطبع .

33 – عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام –ج4، ط4، دار الثقافة بيروت 1980.

34 – أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية –ط4– 062 مكتبة النهضة المصرية –القاهرة .

35 – الديجاني أحمد صدقي، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن 19، القاهرة 1988.

36 – علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1914/1798، الدار الأهلية للنشر و التوزيع بيروت 1980.
37 – عامر، الأدب السنغالي العربي – الشركة الوطنية للنشر والتوسيع –1978–الجزائر.
38 – نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة إفريقيا الغربية – ط2–(ش و ن ت) الجزائر.
39 – أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ج1، دار الرائد للكتاب الجزائر 2005.
40 – نسيب محمد، زوايا العلم و القرآن بالجزائر، دار الفكر الجزائر.
41 - عامر علي محمود، تاريخ الدولة العثمانية، مطبعة الدواودي دمشق 2003.
42- نفســـه، تاريخ المغرب العربي الحديث، ط2، منشورات جامعة دمشق 2004 .
43- منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، م6، دار البعث قسنطينة 1973

د:المجلات (الدوريات) :

01 – أبو القاسم سعد الله ،إجازة ابن عمار الجزائري الشامي – مجلة الثقافة ،العدد 45.
02 – المنهاج – مجلة – العدد 36.
03 المجلة التاريخية المغربية – العدد 07– تونس تونس 1977، دار الكتاب المصرية .
04 – مارسيل بودان ،مجلة جمعية وهران 1933.
05 – أبو القاسم سعد الله ،إشعار ومقاربات ابن حمادوش الجزائري – محلة الثقافة العدد 49.
06– نفســه، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، مجلة الثقافة، العدد 51، الموافق ل ماي جوان 1979.
07 – نفسه، الشاعر المفتي بن الشاهد واحتلال الجزائر، مجلة الثقافة، العدد61، جانفي فيفري 1981.
08 – الغالي الغربي، ثورة بن الأحرش الدرقاوية في الغرب الجزائري، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 10، جامعة الجزائر 1997.
09 – فيرو، المجلة الإفريقية 1828– العدد 96.
10 – أبو القاسم سعد الله، مجلة تاريخ المغرب – العدد 12– الجزائر 1974.
11 – عبد الحميد حاجيات، مجلة الثقافة - العدد 119– وزارة الثقافة والاتصال .
12 – ديفوكس، المجلة الإفريقية 1869–1870.
13 – شهاب الدين يلس، الفهرس التحليلي للوثائق التاريخية – الرصيد – (1862–1648) مجلة الوثائق الوطنية الجزائرية – الجزائر – العدد 08.
14 – العيد مسعود، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني – مجلة سيرتا – عدد10 أفريل 1988.
15 – نفســـه ،حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 3، ماي 1980.

16 – عبد الرحمان شيبان، مآثر محمد عبد الكريم المغيلي من أجل الوحدة الإفريقية والوحدة الإسلامية – مجلة الثقافة – عدد 08 جويلية 1985.

17 – حميدة بن سالم، الثقافة الإسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال – مجلة اللسان العربي – العدد 01 – المغرب – 1964.

18 – ناصر الدين سعيدوني، صفحات من ماضي الجزائر المجيد – مجلة الدراسات التاريخية – العدد 10 – جامعة الجزائر 1997.

19 – نفســـه، ثورة بن الأحرش بين التحول المحلي و الانتفاضة الشعبية، مجلة الثقافة، العدد 78، الموافق ل ديسمبر 1983 .

20 – ليلى الصباغ وضع الجاليات الأوربية في العالم الإسلامي إبان الحكم العثماني – مجلة الأصالة – عدد 25 ماي 1975.

21 – عمر بن خروف، ملامح عن الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 3، جامعة الجزائر 1987.

22 – مولاي بلحميسي، الثورة على الأتراك في الجزائر، مجلة الثقافة، العدد48، ديسمبر 1978.

23 – عبد المجيد مزيان، الأزمات الثقافية في الجزائر، مجلة المجاهد الأسبوعي، العدد7، الموافق ل جوان جويلية 1968.

24 – بن أبي شنب، النهضة العربية في الجزائر، مجلة كلية الآداب، العدد 1، جامعة الجزائر

25 – عبد الرحمان الجيلالي، الجامع الكبير لمدينة الجزائر معلما وتاريخا، مجلة الأصالة، العدد 8، الموافق ل ماي جوان 1972

26 – بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية في الجزائر1830/1871، مجلة الثقافة، العدد 61، جانفي فيفري 1981.

27 – إبراهيم مذكور، المرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة مجمع باللغة العربية، العدد 21، القاهرة 1966.

28 – علي الشامي، التغريب الثقافي و التربية الإسلامية في الجزائر، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، عدد 21، جويلية 1981.

29 – باعزيز بن عمر، الزوايا بالزواوة، مجلة الشهاب، ج1، م9، جانفي 1933.

30 – عبد الرحمان عبد الرحمان، دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث، القسم الثاني، المجلة التاريخية المغربية، العدد 12، الموافق ل جويلية 1978.

31 – مياسي إبراهيم، الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، مجلية حولية المؤرخ، العدد 1، الموافق ل 2000.

32 – أحمد مريوش، القضايا الوطنية في اهتمامات الإنتلجانسيا الجزائرية ما بين 1876//1927، مجلة حولية المؤرخ، العدد 2، الموافق ل 2002.

33 – فتحي عثمان محمد، السلفية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد 5، سنة 1981.

34 – ساحلي الرزقي، أساليب التعليم في منطقة زواوة، مجلة الشهاب، ج6، م5، جويلية 1929.

35 – عبد القادر عثماني، الزوايا في الجزائر عرضا و تحليلا، مجلة محاضرات المجلس الإسلامي الأعلى، العدد 1، الموافق ل 1999.

الأرشيفات :

01 – عن أوقات الأقاليم مدخولها ووكالاتها - دفتر 81–32 288.-2 m-j. ولاية الجزائر.

02 – محفوظات دار الولاية – الجزائر –البايليك – دفتر 231.

03 – محفوظات دار الولاية – الجزائر – سجلات البايليك – دفتر 22.

04 – محفوظات دار الولاية – الجزائر – سجلات البايليك – دفتر 240.

المصادر و المراجع الأجنبية :

01-brosselard ch .L es inscription arabes de Tlemcen -1859.
02-Estekhazy .notice historique sur le Maghreb/Oran-1849.
03-Emerit (M).L'état intellectuel et moral de L'Algérie en1830 K.H.M.C.T.I.1954.
04-Lutel(O)en problèmes foucirs dans l'empire Othman (A.H.S.T.X.1939) .
05- Feravd (L.CH) un vúu d'Hussein dey de Constantine 1807R.A .1863.
06- Blanqui : l'Algérie , rapport sur la situation économique, Paris 1840.
07- Mouloud Gayed: l'Algérie sous les turcs , édition Mimouni Algérie 1991.
08- Dépond (O): les confréries religieuses musulmanes -Alger 1891.
9- Rinn ;Marabouts et ékhouans ; Alger 1884.
10- Gehepal .P.J Andri (contribution a l'études des confréries religieuses musulmanes .la maison de livre ñ Alger 1956) .
11- Féraud , oued el kebir et Collo ,revue Africaine 1859.
12- Féraud;Zebouchi et Osman bey ; in ; revue africaine1862.
13- Ahmed henni, état surplus et société en Algérie avant 1850 C .Nationale du livre algérien 1984.
14- Mouloud Gayed : histoire de Bejaia et son région .Edition Mimouni -Alger-1991.
15- LO (Capitaine) : les foggaras du Tidikelt Travaux de l'Inatitul de recherches sahariennes (Alger)1954.
16- ELYE(squinte narine) Le commerce et l'agriculture au Touat .Société de géographie de la province d'Oran 1904.
17- Saidouni Nacereddine; L'Algérois rural à la fin du l'époque ottmane1791/1830; darlgharb al islami 2005.
18- Jean Mirant;La France et les œuvres indigènes en Algérie ; Alger 1930.

الفهرس

تصدير 3

تقديم 5

القدمة 7

الفصل الأول :

المؤسسات الثقافية وفن الرسم والفن المعماري

1 – المؤسسات الثقافية خلال العهد العثماني : 11

– المسجد 12

– المدارس العلمية 15

– الكتاتيب القرآنية 18

– المعمرات 20

– الزوايا 21

– المصادر المالية للمؤسسات الثقافية 22

2–الحياة الثقافية والفنية في المرحلة العثمانية : 24

– فن الرسم 24

– المساجد العثمانية في منطقة الغرب الجزائري 25

- الفن المعماري 26
- بناء الجامع الأعظم 26
- العناية بالوقف الثقافي 28
- تشجيع حركة النسخ والتأليف 30

الفصل الثاني :

تيارات التصوف والوقف

1- تيارات التصوف : 35
- مقدمة 35
- التصوف السني 43
- التصوف السني والفلسفي 44
- التصوف الفلسفي 44
2-الـــوقـــف : 46
- تعريف الوقف 46
- وضعية الأراضي بالمغرب العربي أثناء العهد العثماني 47
- الوقف الأهلي بفحَص الجزائر 49
- أوقاف مؤسسة بيت المال 49
- أنواع الوقف 51
- دور العثمانيين وعنايتهم بمؤسسة الوقف 52
- الأسس التي ترتكز عليها مصادر الدخل 60
- الحملات العسكرية كوسيلة للحصول على موارد الدخل 61
- مساهمة الأوقاف في نفقات الأعمال الخيرية 67

الفصل الثالث :

التصوف والرباطات :

1-الطرق الصوفية والرباطات : 83
- مفهوم الطرق الصوفية 86
- أهم الطرق الصوفية 88
- مواردها الإقتصادية 111
- علاقاتها بالسلطة الحاكمة 115
- أثرها على البنية الدينية والثقافية 132

الفصل الرابع :

الزوايا والكتاتيب القرآنية

1-الزوايا والكتاتيب القرآنية 149
- مفهوم الزوايا 149
- علاقة الزوايا بالوقف 156
- أهم الزوايا ونظمها 163
- مساهمة الزوايا في قضايا المجتمع 171

الفصل الخامس :

الدور الثقافي والعلمي للزوايا بالجنوب الجزائري

1-الدور الثقافي والعلمي لزوايا منطقة توات 181
- التعريف بمنطقة توات 181
- الدور الوطني للزوايا في توات 185

- الدور الإفريقي لزوايا منطقة توات 190
- الدور المغربي والإسلامي لزوايا توات 195
- الفقارة كموروث ثقافي بمنطقة توات 199
- إستغلال المياه الجوفية وممارسة الزراعة بإقليم توات 200
2-كنتة وحركة التصوف ونشاط الطرق الدينية 205

الفصل السادس:

السكان والنمط العمراني ، ومظاهر الحياة الإجتماعية والعلمية لمدينة تمنطيط .

- السكان والنمط العمراني 215
- النمط العمراني 220
- مظاهر الحياة الإجتماعية 224
- الحركة العلمية والتعليمية بالمدينة 229
الملاحق 239
الخاتمة 251
البيبليوغرافيا 255